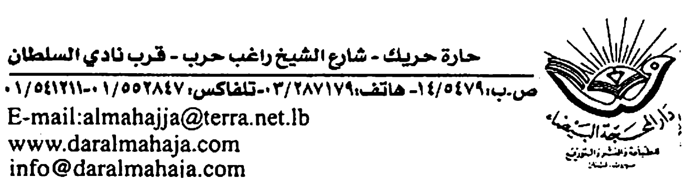

السقيفة والخلافة
د. عبد الفتاح عبد المقصود
دار المحجة البيضاء

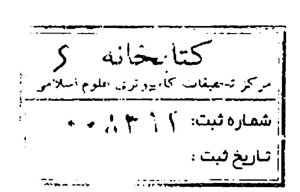
السَّقِيفَةُ وَالخِلَافَةُ

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م



د. عبد الفتاح عبد المقصود



السقيفة والخلافة

دار المحجة البيضاء



«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

صدق الله العظيم

إهداء

اقراراً بالفضل...

أهدي هذا الكتاب إلى الأخ الذي كان دائماً يدفعني إلى الأمام، والذي أراه من خلال كل كلمة يسجلها قلمي...

إلى الأخ محمد محمد فرج...

المؤلف

استهلال

على فرط ما أكثر الرواة والمؤرخون في تناول «السقيفة» سرداً وبحثاً وتحليلاً، فإن بضعة غير قليلة مما أوردوا من عناصر هذا الموضوع كحادث تاريخي، أو من أركانه كقضية رأي، ما زالت إلى اليوم بعيدة عن ومضات ضوء في مجال الرؤية.

ما زالت يلفها الضباب...

ولا سر وراء هذا سوى الروايات.

فالروايات التاريخية، غالباً، تقصر عن أن تبلغ الذهن حقيقة ما قصدت للحديث عنه من تلك التفصيلات أو العناصر، واضحاً غير مشوش، كاملاً غير مبتور.

أحياناً عديدة تختلف، وأحياناً عديدة تأتلف.. ثم لا يخلو ائتلافها من ظلال تكثف في هذا الجانب من بعضها، وتشف في ذاك من بعضها الآخر.. وقد يتعقد السياق فتغمض الدلالات. وقد تضطرب عبارة فيختلف المعنى. وقد تبدر كلمة بغير مقتض، أو إيماء وإيجازاً، فيحتمل التأويل.

بل إن الواقعة الواحدة تتغاير أشكالاً شتى بمقدار تعدد رواتها، في سفر واحد، لمؤرخ واحد.. فإذا أبيضها في رواية قد امتزج بأسودها في رواية سواه امتزاجاً يتعذر معه على الحريص الحذر أن يفرق فيهما الزيف من الصدق، أو يحسم الشك باليقين..

وما هو بعيب أن يقص راوية ما رأى أو ما سمع وإن هو خالف بقوله ما قاله غيره من الناس.. فهذه، بلا ريب، شجاعة رأي تحسب له ولا تحسب عليه، أو أمانة في النقل محمودة.. لكنها أيضاً، لا تخلو من بلبلة للفكر، ومشغلة للبال.. فأن ترسم واقعة من الوقائع بألوان متنافرة من النقائض والأضداد التي قلما يستطيع المرء ولو بجهد التمحيص والموازنة بين

الروايات والرواة، أن يوفق فيها بين الظلال والأضواء - لهو مما يحمل على التردد في الاطمئنان إلى صحة هذه المروي، أو إلى خطأ ذاك، إلا وفي النفس شيء من الشك تحاول أن تغالبه بالترجيح...

من هنا كان من الطبيعي أن تكثر التساؤلات حول العديد من تفصيلات الأحداث، بل حول ذات هذه الأحداث، ثم تبقى التساؤلات معلقة في الهواء بلا ردود قطعية، أو بردود واهية كمثل خيوط العنكبوت، أقل ما يمكن أن توصف به أنها غير منقوطة، تفتقر لكي تفصح عن نفسها - كتعبيرنا الدارج - إلى وضع النقط فوق الحروف!.

والأدلة على هذا ليست بنادرة. ولا هي بغائبة عن الأذهان.. بل هي حاضرة تحت رؤى العيون، ماثلة أمام نواظر التأمل في المراجع والإسناد التي خلفها لنا الرواة أو كبار جامعي الروايات وكانت دائماً المصدر الرئيسي لدراسات المؤرخين والمعلقين.

فقد تُثار تساؤلات تستحق إمعان النظر عسى أن يهتدي المرء بعد بحثها إلى الصحيح الصادق والنقي غير المشوب.. منها، على سبيل المثال:

- ما الذي جرى من سعد بن عبادة، أو جرى له، عندما رأى أن تكون الخلافة له وللأنصار؟..

- هل حقاً سارع علي بن أبي طالب إلى البيعة لأبي بكر صبيحة السقيفة؟.

- كم من الوقت تخلف أبو بكر حين دعى من داره بالسنح إلى المدينة يوم وفاة الرسول؟.

تساؤلات تُثار..

وقد يُثار غيرها كثير..

لكن الردود التي نتلقاها تفتقر، غالباً، إلى القدرة على الحسم البات.. فهي تتأرجح من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، تثبت مرة، وتنفي

أخرى، ثم تتسع الشقة بين «نعم» وبين «لا». . بين الإثبات وبين النفي الإتساع الذي تتزاحم فيه معالم التناقض وتتضارب أسباب الترجيح. .

أفهذا كله عن خطأ في النقل توارى به بعض المنقول؟. .

أم عن تصحيف للرواية بانتقالها من لسان إلى لسان؟. .

أم عن هوى أو غرض مقصود؟. .

الوقائع التي ننتزعها من بطون الأسفار التاريخية رداً على تلك التساؤلات المطروحة قد تضع أقدامنا على أول الطريق المؤدي إلى الفصل بين الخطأ والصواب. . بين الزيف والحقيقة. . بين المصنوع والأصيل. .

ويكفينا للتدليل أن نتجه - من قبيل التمثيل - إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب «تاريخ الأمم والملوك». . من نعرف قدره بين أئمة التاريخ. . فنتلمس فيما نقله ردوداً نحاول بها أن نكف من حيرة الريب التي يهيجها اضطراب التأويل. .

ونبدأ بموقف سعد بن عبادة، رأس الخزرج، يوم السقيفة، لنرى كيف كانت صورته في سفر ابن جرير. .

تقول رواية مما أورد المؤرخ الكبير:

«. . . فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطأون سعد بن عبادة فقال الناس من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطأوه!. . فقال عمر: اقتلوه، قتله الله!. .».

وتقول رواية غيرها يتحدث فيها أبو بكر بالسقيفة إلى الأنصار. . فيكون من حديثه إليهم: «. . . ولقد علمتم أن رسول الله قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار».

ثم يوجه خطابه إلى ابن عبادة:

«. . . ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال، وأنت قاعد: قريش

ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم... وفاجرهم تبع لفاجرهم..».

فقال سعد:

«صدقت. فنحن الوزراء، وأنتم الأمراء».

وبين هاتين الروايتين المتناقضتين التي تصور لنا أولاهما شيخ الخزرج وهو في قمة المقاومة حتى ليوشك أن يحتاج إجماع الناس على خلاف ما ارتأى، وتوشك أن تدوسه أقدامهم غير آبهين... بين هذه الرواية وتلك الثانية التي تصوره وإنه للين مستجيب مطواع، نجد الثالثة يذهب الشيخ الخزرجي فيها إلى أبعد مدى في المجاهرة بالعصيان، ثم يكره إكراهاً بحد السيف على البيعة لأبي بكر..

تقول الرواية الثالثة:

«... لما قام الحباب بن المنذر، انتضى سيفه وقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب.. حامله عمر فضرب يده فندر السيف فأخذه.. ثم وثب على سعد.. ووثبوا على سعد. وتتابع القوم على البيعة. وبايع سعد..».

ثم نجد إلى جوارحها وأخواتها هاته، أخرى ترسمه وقد امتنع عن البيعة وتمرد على أبي بكر ومن مضوا على دربه... تقول:

«... تركوه أياماً. ثم بعثوا إليه: أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك..».

فيكون جوابه:

«أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي فلا أفعل!.. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي، وأعلم حسابي!..».

وتمضي إلى غايتها حتى أوج الإصرار والإباء:

«. . . فكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجتمع معهم. . . فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر. . .».

ولا يقف بنا التاريخ عند هذا الحد. . بل نشهد فيه سطوراً تقدم لنا ذلك المناوئ للبيعة مقتولاً يعزى مصرعه إلى فعل الجن! . . وتقدمه، في قول آخر، وقد أغرى به عمر ابن الخطاب من قتله. . فإذا كل ما نقرأ ونعلم من خبره نقائض وأشتات تتسع بها الفجوات بين الروايات، وتتبعثر بها الحقيقة - أو تضل - في متاهات! . .

ومع ذلك. .

أليس مما يخالف المعقول - على سبيل المثال - أن ينزو عمر بالسيف على شيخ الأنصار في حيه وبين ظهراني قومه، يروم قتله، وما كان عند نزوه إلا في نفر قليل من المهاجرين - لا يعدون على أصابع يد واحدة - هم أعجز عن مساندته وحمايته، وعن الثبات في وجه سيل الأنصار. .؟. .

وهل كان أصحاب السقيفة ليدعوه يحاول - مجرد محاولة - الإجتراء على شيخهم هذا الإجتراء الذي يقوض عزتهم، ويهد كرامتهم، وهم الألى شهدناهم، إبان حياة الرسول، يهبون إلى سلاحهم دفاعاً عن كرامة أنصاري من عرض الناس نازعه غلام من المهاجرين «حق» السبق إلى الماء؟. .

أم هي الدفعة العمرية تسبق بصاحبها التفكير فلا يتقي المحاذير؟. .

أما ابن أبي طالب فينقل إلينا الطبري مرة أنه وآل بيته امتنعوا عن البيعة لأبي بكر زمناً امتد إلى ما بين عشرة أيام[1] وبين ستة شهور. .

وينقل مرة أخرى، أنه أكره على هذه البيعة، أو أريد إكراهه عليها. .

وينقل ثالثة، أنه سارع بالبيعة، لم يتلبث. . .

فمن لنا بالتوفيق - أو تضييق الهوة - بين هذه الروايات وشبيهاتها وإنها لأضداد؟.

---

(١) المسعودي: «مروج الذهب ومعادن الجوهر - الجزء الثاني».

في أولاها نقرأ في سفر تاريخ الأمم والملوك:

«. . . فقال رجل للزهري: أفلم يبايعه على ستة أشهر؟. .».

قال: «لا، ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي. .».

وفي الثانية:

«. . . أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة!. .».

وفي شبيهة لهذه:

«. . . وبايع الناس، واستثبتوا للبيعة. وتخلف علي والزبير. واخترط الزبير سيفه وقال: لا أبايع حتى يبايع علي. . فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر!. .».

وانطلق إليهم عمر فجاء بهما. . وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان!. .».

وفي الثالثة:

«. . . كان علي في بيته إذ أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة. . فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلاً، كراهية أن يبطىء عنها، حتى بايعه. . ثم جلس إليه. وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه. .».

ثم تطالعنا صحائف ما أورد المؤرخون بالكثير من أشباه هذه الأخبار المضطربة التي لا نعدم أن نجد بينها من عنف عمر ما يصل به إلى الشروع في قتل علي، أو إحراق بيته على من فيه. .

فلقد ذكر أن أبا بكر أرسل عمر بن الخطاب ومعه جماعة بالنار والحطب إلى دار علي وفاطمة والحسن والحسين ليحرقوه بسبب الإمتناع عن بيعته. . . فلما راجع عمر بعض الناس قائلين:

«إن في البيت فاطمة. . .».

قال:

«وإن!..».

وذكر أيضاً:

«.. تخلف علي عن بيعة أبي بكر[1] فأخرج ملبباً يمضي به ركضاً وهو يقول: معاشر المسلمين علام تضرب عنق رجل من المسلمين لم يتخلف لخلاف، وإنما تخلف لحاجة؟ فما مر بمجلس من المجالس إلا يقال له: انطلق فبايع!..».

فهل بلغ هوان علي وآله بني هاشم هذا المبلغ الذي لعل عمر بن الخطاب قد توقى أن يبلغ مثله من سعد بن عبادة مخافة الخزرج أن ترده عليه بلغة السلاح؟

وهل كان لدى عمر من بسطة الشجاعة والقوة ما يهون عليه سوق على ذلك السوق الجارح المهين، وليس ثمة من يجهل أن نصيب ابن الخطاب من شدة البأس ما كان ليلحق بنصيب ابن أبي طالب في هذا المضمار؟..

أم في الناس من غابت عنه بطولة الإمام إذ تصدى يوم الخندق لعمرو ابن عبد ود الذي كان يقوم في العرب بألف فارس، فبارزه وجندله، حين خشي كل الصناديد والأبطال في المسلمين مغبة لقائه في حلبة النزال؟.

أم من ينكر بسالته واقتحامه أهول الأهوال، عندما ألقى بنفسه بين أنياب ذئاب اليهود غير هياب، وفتح حصن ناعم بعد أن استعصى فتحه على سواه.. ومهد بهذا الفتح المبين طريق النصر تحت أقدام الإسلام؟..

يومذاك كان المسلمون قد ضيقوا على حصون خيبر الحصار واستمات بنو إسرائيل في الدفاع..

يقول الخبر..:

«... وتتابعت الأيام[2] فبعث الرسول أبا بكر براية إلى حصن ناعم،

(١) ابن ابي الحديد: «شرح نهج البلاغة - الجزء السادس».

(٢) محمد حسين هيكل: «حياة محمد».

فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن. . وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة، فكان حظه كحظ أبي بكر. . فدعا الرسول علي بن أبي طالب ثم قال له خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك. . ومضى علي بالراية. فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم. فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده. فتناول علي باباً[١] كان عند الحصن فترس به، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن. ثم جعل الباب قنطرة اجتاز عليها المسلمون إلى داخل أبنية هذا الحصن. . ».

وأما عن رجوع أبي بكر من السنح، يوم وفاة الرسول، فإن إحدى روايات الطبري تكاد توحي بأن أبا بكر تأخر بعودته بعض تأخر ولم يخف إلى المدينة في الموعد الأولى بمتلهف جزوع!.

تقول:

«. . . لما قبض النبي، كان أبو بكر غائباً، فجاء بعد ثلاث. . ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه حتى أربد بطنه فكشف عن وجهه، وقبل ما بين عينيه، وقال: بأبي أنت وأمي!. . . طبت حياً، وطبت ميتاً!. . ».

فما هي هذه الثلاث؟.

أثلاث ساعات؟.

أم ثلاث وفادات أوفدت إليه بالنبأ ليعود؟.

أم ثلاث صلوات متتاليات المواقيت؟. .

أم ثلاث ليال؟. .

كيفما كان مدلول هذه الثلاثات في لغة التوقيت، فإننا لا نسوق افتراضاتها المختلفة كمآخذ على أبي بكر، بقدر ما نسوقها مثلاً لافتقار الرواية وغيرها من شبيهات إلى الدقة الواجبة في تحري صحة الخبر، وزمن

---

(١) وروي أيضاً: اقتلع باب الحصن.

وقوعه، لأن الراوي، كما رأينا، قد ذكر العدد ثم لم يلحقه بتمييز!..

فإن امرؤ مال إلى اعتماد فرض من هذه الفروض فميله لن يكون من قبيل اليقين، ولا الترجيح، بل التخمين... وليس بالظن وحده تحق وقائع التاريخ..

ثم.. ما هو «الإربداد..»؟.

إنه تحول في لون الجلد عن صفائه الطبيعي إلى كدرة تشوبه، أو غبرة تغلب عليه.. كأنه يقابل ما يسمى في لغة الطب: «الزرقة الرمية» التي تطرأ رويداً رويداً، على البشرة بعد الوفاة نتيجة للتغيرات والتفاعلات الكيميائية الناشئة عن توقف الدورة الدموية.. والتي تلحظها العين المجردة في خلال وقت يمتد إلى نحو ثماني ساعات، قد يقصر وقد يطول، بحسب وضع الجسم، وطبيعة الجو، وحالة المكان.. ومن ثم فإن السطوح الظاهرة من الجسد، وأجزاءه المتحررة بعض التحرر من قيود الالتصاق ولفائف الثياب يتأخر نسبياً - تأثرها بهذا التغير عما عداها من الجوارح المحجوبة عن طلاقة الهواء، أو المكتنزة باللحم أو الشحم، أو الرازخة تحت ثقل الجثمان.. فالتغير في الوجه - مثلاً - أخف منه في عامة البدن. وفي الذراعين أخف منه في الفخذين. وفي السطح الأعلى، كالبطن والصدر أخف منه في السطح الأسفل، كالعجز والظهر، لأن استلقاءة الموتى تكون عادة على الظهور..

من هنا فإن العرف السليم قد جرى، وقضى الرأي الطبي معه، بضرورة تأخير الدفن مدة كافية، خشية أن تنخدع العين عن تبين حقيقة حدوث الوفاة فلا تفرق بينها وبين غشية طارئة لعلها أصابت صاحبها، ولن تلبث أن تنقشع عنه، وترتد بعدها إليه الحياة.

ومن هنا قد يتحرك العجب في الأذهان مما ورد - نصاً ومفهوماً - في الرواية القائلة برجوع أبي بكر إلى المدينة بعد «ثلاث».

فهذه الرواية التي رأيناها تقرن اربداد البطن بعودة أبي بكر من السنح، ثم بالكشف عن محيا الرسول، خليقة بأن تدفع إلى التساؤل:

علام يدلنا نصها الذي يورد العودة بعد الإربداد؟.

وعلام يدلنا مفهومها الذي يجمع الكشف عن البطن إلى الكشف عن المحيا الكريم؟..

إن المرء حين يجترئ على القيام بأمر، فإنه يقوم به، وفي يقينه أو تصوره، أن هذا الأمر يقع في نطاق الممكن له هو دون غيره إن لم يقع في نطاق المباح.. فإذا لم يجترئ فالأمر إذن يقع - بالنسبة لقدرته - في نطاق المحظور عليه، أو المحذور..

بدلالة عبارة النص نعلم، على وجه القطع، أن أحداً من الناس لم يجترئ على الكشف عن محيا محمد - بعد أن اربد بطنه - حتى كان أبو بكر وحده هو الذي اجترأ ساعة جاء، فرفع عنه الغطاء..

وبدلالة ما ينبئ عنه سياق العبارة من مفهوم، نعلم على وجه الترجيح، أنه هو وحده - كما كشف عن الوجه - كشف عن البطن.. وإلا، فكيف عرف - أو رؤي - الإربداد؟..

ولا حاجة، بعد هذا، في مجال التدليل، إلى القول بأن الألى لم يجترئوا على إماطة نقاب أو مثله، عن الوجه، ما كانوا - بداهة - ليجترئوا على إماطة شعار ودثار وإزار، أو نحوها من أثواب، عن البطن الملفوف المستور.. لا حاجة، لأن من يهاب الميسر المألوف أهيب للأندر الغريب.

فلماذا إذن «يترخص» أبو بكر فيعري البطن، وإن الوجه - بما قد يتنأ ويتغور من ملامحه وقسماته - لأقرب، من بقية أجزاء الجسد الظاهرة المسطوحة، تعبيراً عن الوفاة؟. وإن النظرة العجلى، يلقيها على المحيا الشريف - كمألوف العادة في مثل هذه الظروف - كانت تكفيه، ثم تغنيه عن ترخص لعله لم يكن يليق وإن أبا بكر عندئذ لم يكن بمعرض فحص طبي دقيق، وإنما كان بمقام وداع جليل؟..

أترى قد رابه - أو راب قبله الألى لم يجترئوا - من البطن تغير غير عادي، دفعه إلى الكشف عنه؟.

وما هو ذاك التغير الشاذ الذي يعلن عن نفسه، على الرغم من أن البطن. مغطى محجوب بأطباق من الثياب؟..

وكيف وإن أبا بكر نفسه ليعلن بعبارته: «طبت..» أنه لم يطرأ على الجسد النبوي أي تغيير؟..

وهل يعقل هذا الذي توهم به الرواية المعروضة، وما أثر قط أن الجثمان الطاهر تغير هيئة أو تغير رائحة؟..

معاذ الله!..

فإذا افترض، على الرغم من كل الموانع، صدق ما ذكره راوية خبر «الثلاث».. فإن عودة أبي بكر من السنح.. وهي على مسيرة ساعة أو نحوها على القدم أو الظهر[١] تكون قد تأخرت وأمعنت في التأخر، لأن التغير المزعوم ما كان ليحدث في نفس نهار الوفاة الذي انقضى نصفه الأول والرسول ما زال بين الأحياء..

ولئن صدقت أيضاً، فكيف تستقيم وإجماع الرواة على البيعة لأبي بكر بالسقيفة، في نفس ذلك النهار؟.

بل العقل لا يراها تصدق بحال!..

بل يراها مثلاً لغيرها من روايات كثيرات، قد جاءتنا من «المنقول» من وقائع التاريخ بما لا يطابق «المعقول».. بما لا يثبت أمام سلامة التفكير.. بما لا يسلم من تزايد أو انتقاص.. بما لا يخلو من تهويل أو تهزيل..

فكم من نبأ زائف وضع على ألسنة رواة الأخبار!..

كم من رأي مزعوم أجري على أسنة أقلام التدوين!..

ولئن نطق المثل السائر بأن «آفة الأخبار رواتها» فمن الغفلة أيضاً أن نظن في أولئك المؤرخ لهم الذين نسميهم «صناع التاريخ» نزاهة القصد، وعفة

(١) قيل أن ما بين السنح والمدينة ثلاثة أو أربعة أميال.

التجرد من الهوى، ونصوع الضمير، نزاهة وعفة ونصوعاً تجعلهم يدعون سيرهم تدخل في صفحات الأسفار وهي على هيئتها الصادقة الحقة التي قد تبديهم للأجيال المتعاقبة أو المعاصرة، مكشوفي السوأة بغير إزار ولا دثار، وهل من الهين على أي منهم أن يتقبل صرامة حكم هاتيك الأجيال وهي تضع حياته العامة - دع الخاصة! - على نضد التشريح، وتتناول خافيها ومستورها بمبضع النقد والتجريح؟..

وهل عسير عليه تلوين الجوانب القاتمة بحياته تلك بلون أزهر مضيء، أو سد ما في ضعفه البشري من ثغرات، ابتغاء الإرتقاء في نظر الناس، عن عيوبه ومثالبه.. ومن أجل احتياز المديح والثناء وإن هو جار، بفعله هذا، على الحق، وخالف واقع الحال؟..

الأدنى إلى التصور أن نرى بين صناع التاريخ هؤلاء - وهم يملكون قوة السلطان وفي أيديهم جبروت الإملاء - من يجنحون إلى إخضاع التاريخ لأهوائهم الذاتية.. يعبثون بأحداثه.. يحرفون كلمه عن مواضعه.. يعيدون ترتيب سطوره على ما يشتهون لتخرج سيرهم ريانة الضوء باهرة الإشراق.

وليس غلواً في التجني والإتهام أن نعلن أن فيهم من شاء أن يطمس فطمس، أو ينقص فأنقص، أو يضيف فأضاف.. وفيهم من اختص نفسه بأمجاد لم تر على يديه نور الحياة، بل ادعاها لنفسه ادعاء، وابتزها ابتزازاً، سلخها من سير سواه.. وفيهم من أظهر للناس أنه شمس ساطعة شعاعها الوهاج يكسف ما لغيره من شعاع، فلطخ سير من سبقوه بالطين، وحجب أقباس فضائلهم وقدراتهم عن العقول..

وأمثلة أولئك وهؤلاء من أصحاب السلطان المموهين تعيي الحصر والحساب في التاريخ الإنساني: قديمه وحديثه على السواء. ولعل منّا من عاصر واقعة سطو أو تزييف تاريخية عمد إليها حاكم أراد أن يضم تحت جناحي اسمه العريض بضعة منجزات من مفاخر آخرين سبقوه إلى دنيا النفوذ..

تماماً كما فعل، قبل عشرات القرون، فرعون مصر العظيم. رمسيس الثاني الذي لم يكفه أن يغتصب الكثير[١] من آثار الأسلاف وينقش عليها اسمه، بل كان يهدم أحياناً بعض ما شيدوه ليبني بحجارته ما يريده لنفسه من معابد وصروح. وكفى أن نذكر أنه هدم معبد الملك تتي، وهرم سنوسرت الثاني ليقيم بأنقاضهما معبديه بمنف وهرقليوبوليس، كأنما أبى إلا أن يجمع الإغتصاب إلى الإنتقام ممن جاؤوا قبله من أصحاب الأمجاد إذ سبقوه بما ود أن ينفرد به دون الفراعين!..

وكما خالط التاريخ شيء من أهواء صانعيه، وآخر من ميول رواته، فقد خالطه أيضاً بعض الاتجاهات والرغبات العامة التي فرضت نفسها عليه ولم تكن، بحال من الأحوال، وقائع ثابتة بقدر ما هي ألوان من التنفيس عن المشاعر المكبوتة للشعوب، أو وسائل للتعبير عن تصورات لها وأمنيات استطاعت الأخيلة أن تصوغها في هيئة أحداث أضفى عليها الزمان من عتاقته ما دفع بها إلى الإنخراط في موكبه الذي يمثل حركة الأجيال..

فما من أحد يستطيع أن ينكر أن شواهد الحال تدلنا على أن «الشائعة» تقحم نفسها أحياناً في مسيرة الحياة اليومية.. وأن «النكتة» كثيراً ما تكون قرينة تشير إلى وقوع حادث بذاته ربما أغفلت النص عليه - صراحة - أقلام التدوين، أو عجزت عن رده إلى أصوله السليمة.. وأن الواقعة التاريخية قد تنسب، في بعض الأحايين إلى امرئ من الناس لم يكن له بها يدان، ولا كان، في إبان وقتها المعلوم، أو المظنون، إلا حملاً مستكناً في بطن الغيب، أو جانباً من ذكرى غابرة طوتها الأعوام قبل أن تولد وتكون.. فإذا نحن، من الشائعة والنكتة والواقعة المنسوبة لغير ناسج خيوط ديباجتها، أمام أحداث قد تبلورت في هيئة ألوان من التراثات الشعبية، منظومة ومنثورة، لها خطوات زمنية، ولا يمكن إغفالها كل الإغفال أو إخراجها من الحظيرة التاريخية لأنها

---

(١) د. نجيب ميخائيل إبراهيم: «تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم».

جميعها، في حقيقة الأمر، تقدم لنا الإتجاه العام لمسيرة هذا الشعب أو ذاك على مدرجة التاريخ وإن هي افتقرت كثيراً أو قليلاً، إلى معالم التحديد ودقائق التفصيل . .

لذلك نجد علماء الأجناس والمعتقدات واللغات والتاريخ والإجتماع، وأمثالهم من المهتمين بالعلوم الإنسانية، يتجهون دائماً بدراساتهم الموضوعية الجادة، إلى ما خلفه الزمن من الأساطير والملاحم والقصص الشعبي - وغيرها من حصائل فكر الإنسان وخياله على اختلاف مراحل التطور البشري - بحثاً عما قد تحتويه هذه المصادر الثرية من جوانب المعارف التي لعل المراجع والأسناد التاريخية الثبتة أغفلت ذكرها، أو أبهمت في بيانها، أو تقاصرت عن بلوغها يد التنقيب.

ولا غبار، طبعاً، على هذا الاتجاه.. فليس فيه ما يخالف قواعد البحث العلمي السليم، أو يشكل تكلفاً لغير مناهجه القويمة وإن بدا للنظرة المتعجلة الفجة أن مواضع هذه الدراسات وموضوعاتها نوع من الترهات والخرافات.

فما كل ما في الأساطير أباطيل..

ولا قصص التراث كله بدعة خيال..

وغير مقبول أن يقال عن الملحمة، أو الرواية التي ترسم جانباً من قطاع اجتماعي في شعب.. أو طرفاً من سير بعض أبطاله.. أو موقفاً لأحدهم في حلبة حرب أو مجال سلام، إنها لا تعبر إلا عن قطاع أو نفر أو فرد. بل المقبول أن يقال إنها تعبر، من وجهة أو أخرى، عن المجتمع كله، لأن وقع الأحداث هو في الحقيقة، وقع «جمعي» يتناول الشعب برمته، ولا يقتصر أثره على فريق بذاته، أو امرئ دون سواه، وإن تفاوتت درجات التأثير باختلاف أوضاع الجماعات والأفراد...

وتعرض الأسطورة لعجائب من وقائع الحرب، وأحداث السياسة، وصور البطولة المغلفة، عادة، بأغلفة براقة من الإغراق والمغالاة، حتى

ليحسب من يحسب أنها لا تزيد عن عبثات فكر لاه وشطحات خيال جموح، تملكت مشاعر الإنسان البدائي، وتلاعبت بعواطفه البكر في عهد طفولته الحضارية، وكانت وسيلة ذلك الإنسان لملء جانب فسيح من فراغ حياته الجوفاء. . وتعرض أيضاً لألوان من غرائب النحل والعقائد والربوبيات، التي أفرزها قصور الإدراك لدى إنسانها، وتشتت تصوراته، وكانت وسيلته التعبيرية عن خوفه من المجهول، ووسيلته التفسيرية لما يحيط به من غوامض الكون وأسراره على وجه من ترنح العقل، وزيغ البصر، واهتزاز التقدير. .

وعلى الرغم من طغيان ظلام المبالغات الكثيف، وغلبة أوهام التصورات الشاطحة على شعاع الحقيقة الرفيع في الأسطورة، فإن البحوث العلمية والدراسات المقارنة للأساطير عند مختلف الأجناس والشعوب، واستقراء فحاوى هذه الأساطير في ضوء الثابت المعلوم من أحداث عاصرتها، أو قاربت مواقيتها «الظنية» أو المرجحة، يغلب أن تقدم لنا الأسطورة كمعلم على طريق الإنسانية، ورافد له قيمته من روافد التاريخ. .

الأجدى إذن على الحقيقة ألا نستهين بالأسطورة أو نعتبرها محض خرافة تجانب الصدق كل المجانبة فنقذف بها وراء الظهور. . فإن هي إلا حلقة مشوشة، أو مفقودة تاريخياً، من حياة الشعوب. وإن هي إلا مرجع متهاوي الأركان من مراجع التطور البشري أشبه بالطلل الدارس لأثر باذخ إن يكن قد فقد جمال هيئته، فإنه لم يفقد قيمته ودلالته!. .

وهل بوسع أحد أن يغفل كيف شكلت بعض الأساطير اليونانية - كمثل من أمثلة لا تحصى - لبنة من اللبنات التي بنت مصادر التاريخ المصري القديم قبل أن يعثر العالم على المفتاح الصحيح لمغاليق أسرار هذا التاريخ، ويتهيأ له حل ما أكنت اللغة الهيروغليفية من طلاسم ورموز؟. .

وليس معنى هذا أن نركن إلى الأساطير كل الركون. وأن نأخذ ما تضمنته على أنه صدق خالص لا زيف فيه. . كلا!. . إنما علينا دائماً أن نضع في حسابنا أن الأسطورة - كغيرها من مواد التراثات الشعبية - كانت دائماً

أرضاً خصبة لاستنبات إضافات وزخارف ترين ريوناً على الأصول، فإذا هي تثمر من ضروب المتعة وصنوف الإثارة ما يضخم أحداثها، ويجسم مضموناتها، ويلمع شخصياتها على النحو الذي يوافق في شعوبها أمزجة تكلف بالمبالغات والتهويل، ونفوساً تشغف بالبطولات والأبطال، ويصادف هوى لدى كل سارح في الخيال، مبهور بالمجهول، منهوم لكل غريب وعجيب، مولع ببرقشة التزاويق وزهو الألوان!..

في الأساطير، إذن، من الصدق سمات. وإذا كانت لا تنطوي على الوقائع التي يمكن وصفها كاملة بأنها صحيحة.. ولا على التفصيلات التي تحدد بدقة ماهية الأفراد، أو تعاقب الزمان أو معالم المكان، فإن بها، بغير شك، مسحة من الحقيقة تتخللها، وتكفي لتبين لنا حقيقة الإتجاه الغالب إبان مولدها في مختلف مجالات الحرب والسياسة والعقيدة والأدب والفن وما إليها من مقومات حياة الشعوب.

ولعل من أبلغ ما انتهى إلينا نبأه، دلالة على ما تكنه الأساطير من سمات الصدق: قصة أوزوريس وإيزيس. فهي توحي بأن حكم الآلهة في أرض النيل، قبل حكم الأسرات الملكية المعروفة، إن هو إلا حكم بشري، عراقة القدم قد أضفت على أصحابه قداسة الأرباب.. وهي تومئ أيضاً إلى اتساع النقلة الحضارية التي وثبها أوزوريس بقدامى المصريين، فلقد كان هذا «الإله» الحاكم أول من خط بالقلم، وخاط الثياب، ونظر في علم النجوم والحساب.. ومن ثم فإنه أفاض على أهل بلده بحصيلة معارفه. فعرفهم كيف يفيدون أجلَّ فائدة من نهرهم النيل العظيم: «حعبي» محيي موات الأرض وواهب الخير والنماء.. وكيف يحيون حياة إنسانية كريمة، ارتفعت بهم عندئذ فوق مستوى العالمين، وكانت مناراً هادياً لمن تلاهم من الشعوب والأجيال على طريق الحضارة.. إن أوزوريس هو الذي علم المصريين - والعالم - الزراعة.. ودلهم على مواسم الفيضان وبذر الحبوب واجتناء

الثمار.. ولقنهم أصول الحساب والكتابة.. وعودهم إرتداء الثياب المخيطة.. وغرس في ضمائرهم احترام القانون.. وهداهم إلى الله الواحد، وإلى حقيقة البعث والخلود والثواب والعقاب، وحملهم على كل ما ينبغي أن يحمل عليه إنسان تهمه آخرته كما تهمه دنياه، حتى ليقال إنه هو نفسه نبي الله: إدريس عليه السلام [١]..

كذلك ليس فينا من ينكر ما تطالعنا به الإلياذة والأوديسية.. ملحمتا الشاعر اليوناني الخالد هوميروس.. ففيهما من المشاهد ما يجيد التعبير عن مختلف جوانب الحياة اليومية في اليونان القديمة.. مشاهد تمثل سلوك القوم في البيت والسوق، في الحقل والمرعى، في الحرب والسلام. وتصف أسلحة القتال وأدوات النزال.. وتصور المآدب والولائم والاحتفالات.. وتلم بالعادات والأعراف والتقاليد.. وتبين الطقوس والشعائر والعبادات.. وتذكر القيم السائدة في المجتمع ونظرة الناس إلى الدين والآلهة والقانون. وترسم هياكل التنظيمات الطبقية والإقتصادية.. وتشير إلى تيارات الفكر السياسي واتجاهاته.. وتكشف عن الآمال والأماني التي تموج بها الصدور تطلعاً إلى حياة أفضل لإنسان ذلك الزمان..

وبعيد عن الحق، إلى حد المحال، الإدعاء بأننا نرى الصدق يغطي كل ما قدمه ذلك الشاعر القديم في ملحمتيه من وقائع وأحداث. وبعيد أيضاً أن نراه يضفي وقاره وجده على مناسبة بعينها أو على فرد بذاته.. ولكنه، في العادة، يلازم الإتجاه والمشاعر الجمعية. وهل كان هذا الذي تفتقت عنه عبقرية هوميروس ليخلد على الزمن وتتغنى به الألسنة عبر القرون لولا أن انفعلت به البيئة اليونانية[٢]، وكان معبراً صادقاً عما يدور في خواطر أبنائها، ويعتمل في صدورهم من الأفكار والآراء، ومن العواطف والأحاسيس؟..

وعلى نحو ما تفعل الأسطورة، تلعب القصة دوراً هاماً في ملء بعض

---

(١) عبد الحميد جودة السحار: «محمد رسول الله والذين معه - الجزء الثاني».

(٢) د. لطفي عبد الوهاب يحيى: «دراسات حضارية في تاريخ اليونان».

الفجوات التي لم يملأها التاريخ في حياة المجتمعات. إذ يغلب أن تنم – من خلال بنائها الوصفي، وتصرف أبطالها، عن تقاليد المجتمع وعاداته وآماله واتجاهاته الفكرية والسلوكية وبعض ما يقع فيه من ظروف وأحداث.. وهي بهذا تصور من حياة الأمة كلها الجوانب التي تنضح بها، أو تواكبها، حياة أولئك الأبطال..

أما ما اصطلح على تسميته «الرواية التاريخية» التي ينقل رواة الأخبار من خلالها موقفاً لامرئ ممن وعتهم أسفار التاريخ، فإن من التجاوز بلا ريب - إن لم يكن من إساءة التقدير - أن تعتبر كأنها لم تنفرد بالتعبير، مضموناً أو دلالة، إلا عن موقف المروية عنه، أو موقف الراوية نفسه إزاء هذا الحدث أو ذاك.. إنما الأقرب إلى الحق أن ترى ذات تعبير جمعي، ما دمنا نسلم أن صاحب الموقف وراويه ليس أيهما سوى «فرد» في مجتمع متسق الميول والعواطف يشترك آحاده جميعاً، ولو على تفاوت، في إنطلاقهم مع المشاعر والآراء الجمعية وهم متأثرون لا محالة بالجو العام الذي يعيشون فيه..

وحديث التراثات الشعبية والأساطير يطول..

ودورها كروافد تثري التاريخ، ولبنات تسد بعض الفجوات في بنائه ثابت ومعلوم.

والأمثلة على ذلك غير قليلة وإن نحن أقصرنا في التمثيل..

فلقد نقصر فلا يخل الإقصار بالبيان. ولقد نسهب فلا يضيف الإسهاب شيئاً ذا بال إلى التدليل.

ولكن الأمثل الإكتفاء بما قدمنا، لأن الإطناب ها هنا يميل بنا بعض الميل، ويزيد من زاوية الإنحراف فنستغرق في حديث قد يبعدنا عما نحن بصدده من الإلماح إلى التعارض والإضطراب في حقيقة الحدث الواحد من أحداث السقيفة، حين نتناوله من خلال روايات عدة مختلفات، وربما مختلفات!..

كفانا إذن أن أشرنا إلى بضعة نماذج، تمثل ألواناً من التناقض، تغير من شكل الحدث ومن مدلوله، من رواية إلى رواية، ومن راوية إلى راوية فتضيف إليه، أو تنقص منه، أو تأتينا بتفصيلات قد تلتوي به في النهاية، فإذا هو على غير حقيقته، وبخلاف ما كان ينبغي أن يكون..

ومن الخطأ أن يقال - بإزاء ما أوردنا من نماذج ذات أشباه ونظائر يزخر بها التاريخ - أن النتائج وحدها هي ما يعول عليه لا التفصيلات.. فذاك، بلا ريب، قول مردود، لأن الأحداث التاريخية ليست بصور صماء بكماء.. ولا بسطور سوداء على صحف بيضاء!.. إنها، في حقيقتها، كائنات ذات طاقات حيوية جياشة، تنبض بكل ما يميز الأحياء. فلها قدرة على الحركة والإستمرار.. وعلى الفرض والإيحاء.. وعلى التأثير في الزمان والمكان والإنسان.. وعلى النفاذ إلى الغد وصبغه وتطويره بانتقالها خلال الأجيال.. وإذا كانت هذه الأحداث التاريخية تبدو كأنما تنام في بطون الكتب والأسفار، فإنما نومها هذا كنوم أصحاب الكهف والرقيم!.. أو كنوم بعض الأحياء فصلاً من العام تسبت في أثنائه سباتاً كالموت، يعرف باسم «البيات الشتوي» ما أن ينقضي أمده حتى تعود مرة أخرى إلى عالم الحركة والوجود!.

هذه ناحية من القضية ليس إلى إغفالها أو تجاوزها سبيل.

فإذا رأى راء الإكتفاء باتفاق الروايات على فوز أبي بكر بالخلافة عاد من داره بالسنح خارج المدينة يوم وفاة الرسول أو بعد ثلاث ليال.. أو أن يكتفي بإدلاء على البيعة إلى أبي بكر، إن طوعاً وإن كرها، وفوراً أو بعد ستة شهور.. أو أن يكتفي بخذلان سعد بن عبادة في السقيفة، بايع بعد هذا أو أبى ولج في العناد - إذا رأى راء هذا الرأي، فإننا نرى في الإكتفاء بالنتائج وحدها تحيفاً ظالماً على الحق.. واستهانة بشرعية العمل.. وتنكراً لتطلع الإنسانية إلى الإنتفاع بثمرة التأمل في التفصيلات والدقائق التي تعتبر روافد الحدث التاريخي، والتي لا تجسده فحسب لتجعل منه، كأي كائن حي، «هيئة» لها عمق وعرض وطول، ذات ملامح وسمات، فيها أضواء وظلال، بل تضمن للباحث أيضاً استواء بحثه عن الدوافع والأسباب.. وتكشف له عن مقدار

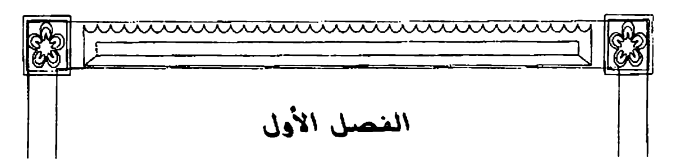
سلامة الوسائل ونظافة الأساليب. . ثم تضعه حيث يسعه أن يعرف هل كان ينبغي أن يكون ما كان أم كان لا ينبغي أن يكون. . وحيث، كذلك، يستطاع - من خلال تركيبة الحدث، بكل عناصره وتفصيلاته وحواشيه - أن نستكنه حكمة التاريخ. .

في نطاق هذه الفكرة نكر عائدين إلى «السقيفة» لنتبين - أمام تضارب التفصيلات واختلافها من رواية إلى رواية - كم من وقفات لا بد لنا أن نقفها لنستيقن أي تلك الدقائق التفصيلية المبثوثة في الأخبار زائف وأيها صحيح. . أيها كامل وأيها مبتور. . ثم أيها، قبل هذا كله وفوق هذا كله، مقبول معقول. .

فكيف نستطيع أن نفرق بين الخطأ والصواب في أحاديث رواة الأخبار؟. .

إن التاريخ، بطبيعة الحال، مجموعة من الروايات عن مشاهدة أو عن سماع. . وهو زمان ومكان. . وزمانية الحدث التاريخي تكون عادة مصحوبة بمكانيته: تصويراً صادقاً لواقع وقع، وتجسيداً له، ونفياً للشبهة فيه. . ومع هذا فلا يمكن أن ينكر أحد أنه لا تاريخ بلا إنسان، لأن التاريخ ليس سوى حركة البشرية على طريق الوجود الحضاري صعوداً وهبوطاً، تقدماً إلى الأمام أو تقهقراً إلى الوراء. . ومن ثم فمن غير الطبيعي أن يغفل رأي العقل الإنساني في المسيرة التاريخية التي بغيره ما كانت لتكون.

على هذا الأساس، فإن الواضح الجلي أن البعد الزماني والبعد المكاني للتاريخ يقترنان ببعد «عقلي» تهتك أضواؤه الوامضة ستوراً من الضباب أسدلتها على كثير من الوقائع التاريخية روايات لم تسلم من ضغوط الفرض والإملاء التي تفتقت عنها رغبات بعض صانعي التاريخ ومن يدورون في أفلاكهم من ذوي النفوذ. . ولا من الأهواء الشخصية والميول المذهبية والسياسية لرواة الأخبار. . ومن ثم فإنها تناولت - فيما تناولت - أحداث السقيفة بالحذف أو بالإضافة. . بالتهوين أو بالتهويل. . . بالتجاهل أو بالتجهيل!. .



الفصل الأول

(١)

بدءاً وخاتمة، بكل الدقائق والتفصيلات، نرى السقيفة تمثل قضية ذات شأن لا يمكن إغفاله، جديرة بأن تثير دائماً الإهتمام لأنها ذات طابع إنساني متميز.. فيها من ألوان السلوك ما يعري النفس البشرية، ويكشف عن ميولها ونوازعها بعض ما قد يجمل ستره وإخفاؤه عن العيون الناقدة إتقاء المعارضة والتثريب!..

إنها قضية إنسانية، بشمول معنى كلمة إنسانية، قبل أن تكون قضية سياسية محصورة في نطاق إقليمي محدود.. لأنها - واقعاً وفعلاً - تقف على قمة القضايا التاريخية الكبرى التي كان لها أبلغ الأثر في إعادة تشكيل طينة العالم، وفي تحديد مسارات شعوبه - بل في تغيير هذه المسارات تغييراً كبيراً والإتجاه بها إلى ما يغاير انطلاقاتها عامة، وانطلاقة الأمة الإسلامية خاصة - على النحو المنتظر آنذاك، إن لم نقل وفق الخطة الطبيعية - لترسم مصايرها إلى مئات السنين..

وهي شاغل أي شاغل لمن أراد تأمل سطور التاريخ بنظر ثاقب، وفكر فاحص، بغية الغوص إلى ما تحت السطوح الظاهرة لما تضمنته هذه السطور من وقائع وأحداث - وصولاً إلى ألباب الدوافع الخفية التي كان لها اليد الطولى في صياغة هذه الوقائع والأحداث.

وهي، على الرغم من مرور القرون، دائمة الخضرة كشجرة الصبار!.. تتجدد على الزمن. لم تخلق جدتها، ولم ترث ديباجتها.. بل ما فتئت تتردد على ألسنة ألوف الألوف من البشر، عصراً من بعد عصر، وجيلاً وراء جيل

لتخالط حياتهم، وتدور في أخلادهم، متأرجحة بالكثيرين الكثيرين منهم بين الغضب والرضا.. بين الرفض والتسليم.. بين القلق والقرار. ثم لا أحسبها إلا باقية على نفس هذه الحال ما بقي على هذا الكوكب الأرضي امرؤ يحاول أن يستجلي غوامض الأمور، ويستخلص حقائقها فيبحث ليعلم.. أو آخر يدين بدين الإسلام، فيؤمن بالله رباً، وبمحمد رسولاً، ويعرف لآل بيت النبوة الأطهار حقهم عند الله والعارفين من الناس، وفضلهم الذي يقصر دونه كل فضل، ولا يعدله عدل، ولا يبلغ أداني سفوحه في العالمين جليل عظيم..

وكفاها خطورة أن عاشت في الأذهان والأخيلة، كما عاشت فوق ألسنة الأفواه وأسنة الأقلام، نحو ألف ونصف ألف من الأعوام!..

كفاها خطورة أن جعلت المسلمين فرقتين متقابلتين، تتحاوران وتتحابان وإن كنت أعيذهما اليوم من لدد العداء وعنف الخصام!..

كفاها خطورة أن غيرت اتجاه تاريخ الإسلام، أو لونت صورته السياسية بغير ما كان ينبغي أو - بأرفق تعبير - بغير ما كان يظن أن تكون الصورة وتكون الألوان!..

قضية!..

وأعود فأقول قضية: قضية لأنها ظلت إلى الآن محور حديث يتجدد ولا ينفد.. يدور أبداً بين طرفين متضادين كأنهما قطبا مغنطيس، يتنافران ولا يتجاذبان، أشبه شيء بما نرى في دور القضاء بين متنازعين أحدهما يمثل «الإتهام» والثاني يمثل «الدفاع»!.. فما يقبله هذا يأباه ذاك، وما يقبله ذاك يأباه هذا، حتى ليستمر الخلاف بينهما مشبوباً لا يفتر فلا يصلا - كلاهما مع توالي الأعصر وطول المناقشات، ومقارعة الحجة بالحجة من هنا ومن هناك - إلى اتفاق أو ما يشبه الاتفاق.. ثم لا يصل، أيضاً، من يقضي بينهما فيما اختلفا فيه إلى «حكم» حاسم بات يكون الفيصل ومقطع القول الذي يضع حداً للنزاع الجدلي، ويرتضيه الفريقان..



(٢)

والسقيفة معروفة..

لا يخفى أمرها عمن ألقى بنظرة عابرة عجلى على غرة تاريخ الإسلام...

إنها واقعة تاريخية توفر لها البعدان: البعد الزماني، والبعد المكاني، بإجماع رواة الأخبار..

فهي حدث ومكان..

السقيفة «المكان» ظلة لبني ساعدة في المدينة، قيل إنها كانت بمثابة دار ندوة للأنصار..

والسقيفة «الحدث» - في رأي المؤرخين كافة - هي أبرز المعالم على طريق التاريخ المبكر للإسلام... وفي رأي جم غفير من المسلمين ومن أهل الفكر نقطة تحول خطير، ومنعطف شديد الإلتواء، لا في التاريخ الإسلامي وحده، بل في التاريخ الإنساني كله من لحظة أن حولت أولهما عن مجراه وخرجت على خلاف المنتظر أو المظنون بتراث رسول الله من حوزة الأعزة الكرام من آل بيته الأطهار، إلى حوزة رفيق الغار!..

فما من أحد يعلم ما كان سيبلغه الإسلام من سعة الانتشار وقوة الرسوخ، ولا ما كانت ستبلغه الدولة الإسلامية من شأو الظمة وسطو السلطان لو سارت الأمور على خلاف ما سارت عليه نتيجة لذلك التحول الكبير..

ولا أحب أن ألوح بعبارتي هذه الأخيرة القصيرة، كأنني أومئ إلى ما قد يظهرني لبعض الظنون أقرب للإنحياز لجانب هذا الرأي الذي يراه ويتبناه أولئك الجم الغفير من المسلمين في ناحية، ويرفضه ويأباه، في ناحية أخرى، عداهم من بني دينهم كثيرون كثيرون.

ولا أن أبدو كمن يحرص على اعتساف النتائج اعتسافاً، أو يوحي بها، ثم يقفز إليها دون أن تفرضها المقدمات..

إنني - حقاً وصدقاً - لا أرمي إلى تغليب نظرة على نظرة ولا طائفة على طائفة. . كما لا أبغي أيضاً تخطف الحكم في قضية السقيفة عن زيغ هوى أو ميل عاطفة. . بل أحاول، مخلصاً، أن أشق نهجاً ليس يبعدني وحسب عن التأثر بآراء من سلف من المؤرخين والمعلقين وإن تألقت أسماؤهم، وعلت أقدارهم، وعلمتنا سيرهم أن نربأ بهم عن زيف التمويه. . وإنما يجعلني أيضاً أجهد جهداً ناصباً لأسقط من الحساب - عند الموازنة بين نظرتي الطائفتين المتجادلتين - الإستناد إلى الأحاديث النبوية التي روتها هذه الطائفة أو تلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، واتخذتها أداة لترجيح الميزان. .

ولا شك في أنني أتمرد على نفسي تمرداً شديداً وأنا أراني ألجأ إلى هذا الإسقاط. فلست بالذي ينكر هذه الأحاديث النبوية الشريفة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وإنها لمن كلام من لا ينطق عن الهوى ولا يميل. . ولست أيضاً بالذي يتحلل من تأمل نظرة أولئك الذين يعتبرونها دعامة راسخة أي رسوخ، عليها يقوم حق ذلك الأولى في الورى قاطبة بخلافة الرسول إيماناً منهم بأن الإمامة تبع للنبوة، ولا تكون إلا بوصية ممن يملك الإيصاء. . . لكنني، في تناولي قضية السقيفة، إنما أردت بهذا الإسقاط أن أدع الاحتجاج بالمنقول مكتفياً بالإحتجاج بالمعقول لأنه أيسر مأخذاً، وأنفى للحجاج في الجدال. .



(٣)

وأترك الاستطراد في الكلام عن هذه المأثورات التي نقلها رواة الحديث، وأعمد إلى تناول السقيفة كحدث ومكان فأقول إن اتصال ذلك الحدث بذلك المكان، أو وقوعه بموقعه في ذلك اليوم الصائف من ربيع

الأول[1] من السنة الهجرية الحادية عشرة، وفي إطار من العوامل النفسية العاصفة والمضطربة التي كانت سائدة حينذاك، قد أنجب لنا هذه القضية التاريخية: «قضية السقيفة» وفرضها فرضاً على الفكر الإسلامي القديم والمعاصر بمنطوقها الشائع الذي ما فتئت تلوكه إلى الآن، وستظل تلوكه، أفواه الأجيال وإن لم يسلم من شوائب وشيات تدفع إلى الظن بأنها تبعد بها أحياناً عن هيئة القضية لتدنو في بعض أجزائها - من هيئة القصة التي ينسجها الخيال!..

فهلا يجوز القول - ولو بلسان تخيل جموح، ومن قبيل تفكه بريء أن هذا التشويه، أو هذا التشويب، إنما يسره على الرواة، أو الوضاع، أن كلمة «قضية» وكلمة «قصة» تتفقان في الرسم إلا من ثلاث نقاط وظيفتها أن تعجم في أولى الكلمتين الضاد وتثنى الياء؟..

أم ما جرى هناك يومذاك من غرائب الوقائع، أو شواذ السلوك، أو عجائب الاتفاق، مما لا يكاد حدوثه عفواً بلا تدبير يخطر على بال إنسان، هو الذي أثار في نفوس بعض من شهدوا، أو سمعوا، أو نقلوا هذا الحدث التاريخي المشهور، ملكة الابتكار والإبداع؟..

كيفما كان الأمر، فمن الممكن أن يقال - مع الترخص في التعبير - أن للسقيفة «ازدواجية» الشكل، إذ هي «قضية» فيها أجزاء تلوح كقصة، أو هي «قصة» فيها فصول هي القضية!.. وبوصف أدق: إنها تحمل القضية والقصة في إطار!..

ولا غرابة إن نحن وجدنا الجوانب القصصية في السقيفة تكاد تجمع الكثير من مقومات الفن القصصي المرتكز إلى الابتداع.. فهي محبوكة مشدودة البنيان متواكبة الأحداث.. بل إنها لمثيرة أحياناً، تملك السمع، وتخلب الذهن، وتهز الأعصاب، وتملأ النفس بالعجب كما تملؤها بالإعجاب!..

---

(١) على أغلب الآراء..

ونحدد فنقول إن ملامح القصة تبرز واضحة في الكثير من روافد السقيفة وأخبارها التفصيلية والهامشية وضوحاً يكاد يوحي إلى المتأمل - إن لم يحمله حملاً على - أن يستيقن أن بها إضافات وتهاويل، أو انتقاصات وإسقاطات، أريد بها صبغ الجوهر الأصيل لذلك الحدث التاريخي بأصباغ تغير من بعض معالمه، فتنقل الحقيقة إلى أسطورة، أو على الأدق الأحرى، تمزج الأسطورة بالحقيقة مزجاً شديداً عسى أن يظهرا، بهذا المزج - كائناً واحداً يفور في عروقه دم الحياة..

والأصباغ واضحة توشك، على الرغم من بعد العهد، أن تعلن أنها غضة الدهان!..

فمنذا الذي يقرأ روايات الرواة عن تلك الفترة، ثم لا تأخذه الدهشة، أبى أم شاء، من بعض ما دار يوم السقيفة من أحداث وجرى على ألسنة أبطالها من أحاديث.

إنك لتلمح في صور هذه الروايات وأوضاعها ألواناً شتى من الدقائق والتفصيلات لها من «الحبكة» ما يظهرها - لفرط إحكامها وتوثق نسجها - وهي أشبه بما يقع في الأقاصيص الموضوعة منها بما يكون في واقع الحياة!..

ثم تعثر فيها على «الصدفة» التي تطرأ عفواً، بلا مقدمات، وعلى غير ميقات، حتى ليوشك من يتحسسها أن يحسبها قد أقحمت إقحاماً لتؤدي دوراً مرسوماً أريد لها أن تؤديه فأدته بإحكام كما هو مرسوم!..

ثم تجد «التعاقب الحدثي» الذي ينساب في نسق منتظم طيع، انسياب سلسلة لدنة تماثلت حلقاتها كل التماثل: طولاً وعرضاً، وزناً وحجماً، لوناً وهيئة، أصلاً ومعدناً، فلا تزيد منها حلقة أو تنقص حلقة عن أخواتها الأخريات بمثل ذرة من غبار، حتى لتظهر حوادثها - لدقة تواترها وانتظامه وهي أدنى إلى ما يجري على مسارح التمثيل!..

وليس من ريب في أن الإغراق كل الإغراق في التأليف بين هذه

الجوانب والتفصيلات كفيل بأن يصبغها بصبغة الحقيقة. ولكنها الصبغة التي لا يمكن أن تصنع من الزيف حقيقة!..

وليس أيضاً من ريب في أن الحرص البالغ على أن تبين بعض الأحداث المروية أمام الأفهام كأنها طبيعية، خليق بأن يشي بأنها ليست طبيعية!.

ولسوف نتبين من بعد نماذج من «الحبكة» و «الصدفة» و «التعاقب الحدثي» المحكم الانسياب، وغيرها من سمات الروايات القصصية التي يدبجها الإبتداع، واضحة جلية في الروايات التاريخية التي جاءتنا بالسقيفة على ألسنة رواة الأخبار!..

لكن قطعة الزجاج المصقول المتلالئ، لا يغير من طبيعتها أن تبدو كأنها من ماس..

وقطعة الماس الغشيم الخام، لا يغير من طبيعتها أن تبدو كأنها حصاة. فالحقيقة ثابتة لا تضيع. لأنها غير قابلة للذوبان في أحماض الترهات، ولا للاحتراق في نيران المغالطات!..



(٤)

وتعالوا نرجع معاً في الزمن شوطاً طويلاً، لنشهد صوراً مما كان.. ثم لنتعمق ما نشهد.. ثم لنتفهم ونتعقل... ثم لنتساءل بعد روية وتمهل، وفي نور التمعن والتأمل: أكان هذا الذي كان حقيقاً بأن يكون أم بألا يكون!..

ها هي صورة!..

ها نحن أولاء قد عدنا إلى الوراء!..

ها هو الماضي يصبح حاضراً يعاش!..

السنة: الحادية عشرة للهجرة.

الفصل: الصيف..

الشهر: أول الربيعين..

اليوم: الإثنين..

الوقت: قرب الظهيرة..

البلدة: مدينة الرسول..

المكان: حجرة عائشة أم المؤمنين..

السكون ممدود منشور، يوشك أن يلف كل ما يقع في حيز النظرات أو يقرع طبول الآذان.. كل الأناسي والأشياء.. كل المرائي والمسموعات.

ثابت النفوس.. ثبتت القلوب.. هجعت الوساوس.. ذهب الروع وعادت الطمأنينة تسترد مكانها في المدينة بكل درب وكل دار.. فلقد علم المسلمون - رأى منهم من رأى، وسمع من سمع - أن رسول الله قد أبل من مرضه العصيب الناصب الذي لازمه ثلاثة عشر يوماً ثقيلة طويلة، كان أشقها عليه وعلى أمته يوم الأحد، أمس الناس هذا الذي فات منذ ساعات.. كثيرون شهدوه صباح يومهم، ذلك الإثنين الهادئ الذي أمنهم، وهو يزيح الستر بيده الشريفة عن باب حجرته، ويدخل عليهم المسجد، فيصلي معهم، ويجلس بينهم، وهو أظهر ما يكون عافية، حتى لقد افتتنوا به فرحاً وقد راح يتحدث إليهم بصوت جلي قوي، لا أثر فيه لوهن المرض أو رجفة الحمى التي لم تنحسر عنه كل تلك الأيام.. وبقية القوم في البلدة الطيبة سرى إليهم نبأ الإبلال السار في لحظات، فسرى عنهم، وانقشع عن قلوبهم المهمومة غيم الغم، وعن ملامحهم المكروبة قتام العبوس..

لكنها فرحة، كومضة برق، قصيرة الأجل خاطفة.. ما تلبث سوى قليل بعد تلكم الظهيرة المشؤومة، ثم تنطفئ كذبالة مصباح جف زيتها أو عصف بها هوج الأعاصير!..

فلقد وقع عندئذ ما كان وقوعه، في هذه اللحظة ذاتها، بعيداً البعد كله عن نظر الظنون وحدس الأذهان..

محمد رسول الله نفض يديه من حياتنا الدنيا، وانطلق إلى ما وراء المنظور.

لبى نداء الله..

اختار الرفيق الأعلى إذ خير فاختار..

ومن حوله التف نفر من آله ولهين جزعين، لا يكادون يقدرون إلا على التطلع، بقلوب مخلوعة، وعيون جوفاء، إلى جثمانه الطاهر - في هيبة وخشوع، وإحساس عميق بالضياع - من خلال سحائب الدموع..

فلقد فدحهم خطبهم وخطب أمتهم فيه..

هدهم حزن فاجع دك الأفئدة، وعقل الألسنة، وأطاش العقول، ما كان أسرع ما انتقل منهم، من وراء باب الحجرة النبوية، إلى كل أهل المدينة، بمثل سرعة انتشار الحريق في الحطب الجاف.. لم يبق منهم فرداً سلم من ناره، ولا ترك لأحد سبيلاً إلى التصبر على البلاء الداهم القاصم، وإن كانوا كافة يعلمون علم اليقين أنه، عليه الصلاة والسلام، إنما سار في نفس الطريق الطبيعي الذي يجتازه كل الأحياء، أنبياء وغير أنبياء، عبوراً من عالم الفناء إلى عالم البقاء.



(٥)

فكأن صاعقة أخذتهم.. مادت لهم تحتهم الأرض، وتساقطت من فوقهم عليهم السماء!..

يا ليت قد شل منهم الشعور، وتجمد الزمن عند حافة ساعتهم هذه قبل أن تبدأ ثوانيها التي مشت على قلوبهم تخترطها كأنها دولاب من الخناجر!..

لكم ودوا لو انطمست، دون هذا النبأ، منهم العقول، وعميت العيون، وصمت الآذان فلا يدركون ولا ينظرون ولا يسمعون فراراً بأنفسهم من محنة ليس مثلها في الدواهي القاصمة والكوارث الداهمة شبيه!..

لكن، أنى لهم هذا.. وكيف الفرار من حقيقة مريرة هي مآل كل حي

وقدر كل إنسان، وسنة الله الجارية على خلقه التي تلازم الحياة، وتتضح بها آيات الله؟..

أم لم يفقهوا قوله تعالى في قدسي التنزيل:

«كل نفس ذائقة الموت»..

وإنه لقول فصل، قضى به سبحانه، فكان قضاؤه حكم تعميم، يحق على جميع الأحياء بغير استثناء؟..

وقوله عز من قائل:

«كل من عليها فان.. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»..

وقوله، له الأمر والخلود:

«كل شيء هالك إلا وجهه»..

مسوياً في الهلاك بين الأحياء وبين الأشياء، منفرداً وحده بطبيعة البقاء؟..

وقوله، تقدست ذاته، وتعالت صفاته مخاطباً نبيه الكريم:

«إنك ميت وإنهم ميتون»..

فلا تفضيل ولا تمييز في الموت للرسول على غيره من قومه. بل قدر على البشر أجمعين ذلك القدر المقدور. كلهم فيه سواء. من قرب من ربه وأحسن كمن بعد وأساء. ومن أطاع واهتدى كمن عصى وضل السبيل؟..

وقوله، جل جلاله، للمؤمنين، يحذرهم مغبة الانتكاس والمروق من الإيمان لو أن محمداً حان حينه فذاق من طعم المنون ما يذوقه غيره من العباد:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين»..

والقرآن الكريم يفيض بالكثير من أمثال هذه الشواهد التي تؤكد تأكيداً

لا يأتيه الريب من بين يديه ولا من خلفه فناء الدنيا، بكل من فيها وكل ما فيها من أحياء ومن أشياء، وإنها لشواهد لا تقبل قط المماراة ولا تحتمل الجدال. ذلك لأن الموت - وإن اختلف الناس على الأديان - هو الأول بين المسلمات والبديهيات التي لا يحتاج إثباتها إلى برهان!..

فهل من أهل المدينة، يوم تلك الطامة الكبرى، من كان خليقاً بهم أن ينسوا جواز الموت على رسول الله - إذ الموت قرين هذه الحياة - لو أنه قد غاب عن بالهم ما جاءهم به القرآن؟.



(٦)

لاجرم إذن أن أيقن الناس بالمدينة موت الرسول، ذلك اليوم الصائف من ربيع الأول، وقد سبق إلى علمهم من الأحداث ما أوحى لهم بوقوع هذا الذي وقع وكان قبل أن يقع ويكون!..

أم لم يشهدوا مع الشاهدين، أو يسمعوا منهم - وإن فيهم لكبار الصحابة - وأهل الحل والعقد بالبلدة الطيبة - ما قد جرى في حجة الوداع؟..

بلى قد شهدوا!..

وقد سمعوا أيضاً رسول الله - أو سمعوا عنه، وهو على ظهر ناقته القصواء، ببطن الوادي من أرض عرنة، في ذي الحجة من العام الهجري العاشر يخطب الحجيج، وهم عندئذ ألوف حاشدة وألوف، بصوت جلي جهير، ومن بعده ربيعة بن أمية بن خلف يردد عنه البلاغ ضمانة أن يصل كلامه ﷺ، إلى أسماع كل من حضروا الموسم، وجمعهم ذلك اليوم المشهود.

يتحدث محمد إلى تلكم الأمواج البشرية الماثلة بين يديه منبهاً إلى

الحقيقة الحتمية فيقول وفي صوته رنة نذير:

«أيها الناس.. اسمعوا قولي.. فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً!..».

وكأنما لا يكفيه أن ينبه وينذر من حضر، لأننا نراه عليه الصلاة والسلام لا يكاد يكمل حديثه هذا الذي أدلى به إليهم، حتى يسارع فيشهدهم على أنفسهم أن قد أعلنهم في غير خفاء.. فيتساءل أمام الجموع:

«اللهم هل بلغت؟».

فسمعهم يؤكدون:

«نعم».

فيشهد عليهم ربه:

«اللهم فاشهد!..».

فإذا سمعهم يقرون، حملهم أمانة نقل ما قال إلى كل من غاب عن شهود ذلك الموقف الجليل المهيب..

يقول:

«فليبلغ الشاهد منكم الغائب!..».

ويمضي بموكب المؤمنين.

لكننا لا نلبث، في نفس اليوم، وبعد أن فرغ صلوات الله عليه من بلاغه للناس، وانطلق بهم في طريقه بعض انطلاق أن تتبدى لنا صورة جديدة، تضيف إلى بعض جوانب القضاء المحتوم ما يكشف عنه بعض الغطاء.

يتلو عليهم الرسول من التنزيل:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

فما أن يتم تلاوة هذه الآية الشريفة حتى يوجس الجمع خيفة.. وكيف لا يوجسون وقد لاحت النذر؟.. وهل هذا الكلام الذي ساقه إليهم، وهذا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

البيان الإلهي الذي أنزله عليه ربه إلا ينبئان - بما لا يدع أي أثر للشك في نفس سامع يعي هذه الألفاظ التي تشف عما وراءها من مضمون - أن أجله ﷺ قد حان.. وأن يومه قد دنا.. وأن مكثه بين ظهرانيهم - بعد حجته هذه - لن يكون سوى أيام، قد تقصر وقد تطول بعض الطول.. فإن طالت فلن يحول بها عليه حول، ولن يكتمل عام؟..



(٧)

ثم توالت أمامهم الصور..

بل توالت النذر!..

فما أحسبهم إلا قد تلقوا عن «أبي مويهبة» - تلك الليلة من صيفهم ذاك الأخير في حياة الرسول - خطاب محمد، صلوات الله عليه، الذي حدث به أهل المقابر، ونعى فيه للناس نفسه نعياً ظاهر المبنى والمعنى، جلي العبارة والإشارة، لا يتيح فرصة قط لتأول متأول يخرج به عن إطار مفهومه اللازم، وإن كان هو التأول المطلوب المحبوب الذي يراد من ورائه - ترفقاً بالنفس وبالناس، وجنوحاً إلى التيمن والفأل الحسن - نفي الموت عن رسول الله.

يومذاك خرج محمد، في جوف الليل - ونسيم رفيق متمهل يحاول أن يبدد بعض ما كان من حر النهار - قاصداً صلوات الله عليه، إلى بقيع الغرقد وهو يقول لأبي مويهبة مولاه:

«إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع.. فانطلق معي..».

وانطلقا ليس معهما ثالث.. فلما أن بلغا غاية السير، وقف عليه الصلاة والسلام بين المقابر، يخاطب أهلها، مسلماً عليهم، مستغفراً لهم، محدثاً بما يكون من بعده مما يكشف له ربه عنه ستر الغيوب..

قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر.. ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما

أصبح الناس فيه.. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى!..».

ثم التفت إلى مولاه يوجه إليه الحديث بعد الإستغفار:

«يا أبا مويهبة.. إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة...».

فانتفض السامع الوفي الأمين، وقد اعتصر الألم قلبه خشية الفراق المرير المنتظر، وبادر من فوره يناشد نبيه العظيم الحبيب:

«بأبي أنت وأمي!.. فخذ مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها، والجنة».

لكن الرسول يقول:

«لا والله يا أبا مويهبة!..[1] لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

إنها لصورة من الصور، أو هي نذير طلع به القدر على المسلمين ونبيهم يشكو شكاته من مرضه الأخير..

لقد كانت زيارته البقيع غداة هذه الشكاة.. وما أن طلع الصبح على ليلته تلك حتى تسامع الناس أنه، عليه الصلاة والسلام، محموم موعوك..

وعن نذر أخرى أبلغ دلالة، وأقسى نكاية في نفوس المسلمين، لا تلبث أن تتكشف الأيام..

وهل من أحد بينهم إلا يذكر أن نبيه قد خرج في بعض أيام مرضه هذا إلى المسجد معصوب الرأس، فجلس على المنبر يحثهم على إنفاذ أسامة ابن زيد وجيشه إلى الشام، ويرد عن القائد الشاب طعن الطاعنين في قيادته الزارين عليه صغر سنه.

ثم ينتقل من اللوم إلى التذكير بالقضاء الوشيك النزول..

يقول: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله..».

---

(١) محمد حسين هيكل: «حياة محمد».

فأين عبد من عباد الله يخير هذه الخيرة سواه؟..

ثم يتكرر هذا المشهد مرة أخرى، في إطار جلي من التصريح، حين علم، ﷺ، قلقهم عليه، فخرج إلى المسجد، ورجلاه تخطان في الأرض من ضعفه، وقد توكأ على علي، فلما أن بلغ المنبر، جلس على أسفل مرقاة منه، وأخذ يخاطبهم بصوت خفيض، تكاد رجفة الحمى تبين في اهتزاز نبراته، حتى انتهى به حديثه إلى أن قال:

«. . . . . بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم.. هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليهم فأخلد فيكم؟.. ألا وإني لاحق بربي وإنكم لاحقون به. . . .».

تقرير!..

بيان يغني عن كل بيان..

ومعالم ومشاهد معه وقبله، فيها المرئي وفيها المسموع قد ملأت العيون وقرعت الآذان، وأخذت بالقلوب وبالأذهان فإذا هي تبدو وقد جسدت المظنون الموهوم وقلبت المجهول لمعلوم!..



(٨)

هذا كله، وأشباهه كثير، عرفه بغير شك جمهور أهل المدينة، في تلك الأيام التي تلاحقت أنباؤها الحزينة ثقيلة وبيلة كحلقات كابوس.. سمعه الناس أو سمعوا به. وشهدوه إن لم يكونوا عاشوه.. وإذا كان بعضهم قد فاتهم بعضه، فإن البقية لم تفتها البقية.. بل الأحرى أن يقال إنهم كانوا عندئذ - لشدة وقع هذه الأحداث في نفوسهم - أدنى إلى الشؤم منهم إلى اليمن، وإلى الخوف منهم إلى الأمن، وإلى اليأس منهم إلى الأمل، وإلى الجزع منهم إلى الطمأنينة..

ولا غرو!..

فما طال بنبيهم مرض من قبل كما طال هذا المرض. ولا اشتد كرب عليه من سقم كما اشتد هذه المرة.. فإذا ارتهبوا وقدموا التوجس بين يدي غدهم فلا ملامة!.. ذلك أن العرب أمة جياشة الأحاسيس والمشاعر، يذهب بها التهاب عاطفتها إلى أبعد المذاهب فتسرف في التشاؤم كما تسرف في التفاؤل.. بل لعلها أميل إلى التطير حتى لكأنها كلفة به تحرص على تعقبه في كل ما يصادفها مما لا يروقها وقوعه أو شهوده أو سماعه.. تحرص على تعقب التطير في عثرة قدم.. في وجه جهم.. في لفظ ناب.. في حلم يرهب.. في صوت ينعب.. ثم لتوشك - على جناح ما تتوهم في هذا الذي تصادف أن تترقب نزول النوازل، وتستبق بالتوجس نزولها إلى مواقيتها المجهولة قبل أن تحين!..

في نطاق من خوفهم على رسول الله أن يرزأهم الموت فيه عاش أهل المدينة شريفهم ومشروفهم، قاصيهم ودانيهم - تلك الأيام الثلاثة عشر التي لازمه طوالها مرضه الأخير، وهم يكتمون الأسى، ويكبتون الألم، ويعالجون الصبر، ويزاولون الرجاء - ثم لا يملكون إلا أن يجتروا في وجوم ورهبة - دلالة تلكم المرائي والمسموعات التي كانت تجيئهم بصورة يوم الهول المرتقب أحياناً مرسومة بلون الإيماء، وأحياناً مرسومة بلون الإفصاح!.

كانت الدلالة - كما في القلوب في الأفواه - تشفق أن تنبس بها الشفاه!..

كانت وفاة رسول الله!..

فإذا ثقلت بهذه الدلالة الفاجعة أفئدة عامة الناس فإن أفئدة خاصتهم بها أثقل.. وكيف لا وهؤلاء الصفوة أقرب إلى محمد: أوثق صلة، وأدنى صحبة، وأعرف بما يجري منه ويجري له مما كان عسيراً أن تتاح معرفة مثله لغيرهم من جمهور المسلمين؟.

ألم تر إلى العباس بن عبد المطلب يرى ذات ليلة في منامه أن القمر قد

رفع من الأرض إلى السماء، فيخف إلى ابن أخيه يسأله تأويل الرؤيا، فيكون الجواب الذي يتلقاه من الرسول، جلياً بلا مداراة:

«وهو ابن أخيك..»؟

ألم تر أيضاً إلى النبي، وهو في محنة مرضه، يسر إلى ابنته فاطمة الزهراء حديثاً فتبكي، ثم يسر إليها حديثاً فتضحك فإذا هذا الذي أبكاها هو قوله عليه الصلاة والسلام:

«... إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة وإنه عارضني هذا العام مرتين.. وما أراه إلا قد حضر أجلي».

وإذا الذي أضحكها قوله:

«... إنك أول أهل بيتي لحوقاً بي. ونعم السلف أنا لك!.. ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة؟..».

ثم ألم تر إلى غير هذا وذاك من وقائع وأمور تحدث عن موت محمد وكان أولى بآله وصحبه المقربين أن يعلموا نبأها، فيتهامس بها فريق ويكتمها آخرون!..

غير أن الذي وقع في الثامن من يونيه[1] ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان كان فيصل لحطاب.. فلقد رأت أم المؤمنين عائشة زوجها الكريم وقد شخص بصره لا يطرف له هدب، ثم سمعته يقول في هدوء كأنما يجيب على سؤال مطروح عليه من من عالم الغيوب:

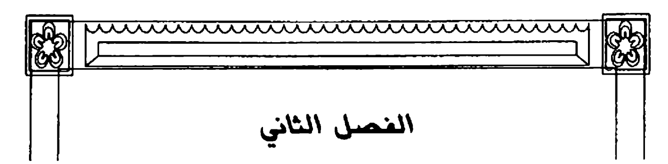
«بل الرفيق الأعلى والجنة!..».

فلم تملك السيدة في لحظة الهول هذه إلا أن تقول:

«خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق..».

وامتلأت الدار بعويل ما لبث أن زلزل المدينة وقد انتشر في دروبها ودورها كالحريق.

(١) سير وليم سوير: «الخلافة، قيامها، وضعفها، وانهيارها».



الفصل الثاني

(١)

تحقق إذن ما نفثه الله في روع رسوله الكريم، ووقع ما كان يخشاه المسلمون، وما نمت عنه تلكم الصور والنذر التي توالت تترى لتسبق إليهم بنعي نبيهم قبل أن تكون الوفاة.

وتفرق الناس طرائق.. أو تجمعوا شراذم، هنا وهناك، حيارى مضيعين.. لا يكادون من هول هذه الداهمة القاصمة، يدرون ما يريدون. ليس فيهم سوى جزوع وهلوع.. كثيرون احتشدوا في المسجد.. جمهور كبير تجمعوا على رؤوس الدروب.. آخرون غيرهم غلقوا عليهم بيوتهم وقد أثبتهم الخبر الرهيب أن ينتقلوا إلى مصدره، أو كأنما شاؤوا الاحتجاب وراء الأبواب فراراً من المرائي والأصوات التي راحت تعلن لهم، بإصرار ملح، عن فجيعتهم في نبيهم الحبيب.. وأنى لهم هذا التواري ودار محمد على كثب منهم، يقتحم عليهم ما يتردد في جنباتها من بكاء وعويل مجانهم ومثاويهم فيوشك أن يزلزل تحتهم الأرض، ويسقط عليهم السماء؟..

حتى جيش أسامة بن زيد، المعسكر في الجرف تأهب لغزو الروم، ما لبث أن انفرط عقده، وطار رجاله عائدين إلى بلدة الرسول على جناح النبأ المشؤوم.

المدينة كلها غدت في الخواطر وفي النواظر قطعة من الليل الأسحم.. كسفة من عذاب.. صيباً من ويل.. محنة من كرب لم يكن كمثله من قبل كروب تصيب القلوب. فالصبر يوهي العزائم الصلاب.. الحزن يمور في الصدور ويفور.. الأنفاس تحترق في السحور والنحور.. الكلام يختنق في

الحلاقيم.. والعيون دموع، والقلوب صدوع..

لكن ثمة روايات لم تطابق هذا الواقع الملموس..

إنها تأتينا بفرد واحد يخالف المجموع.. فرد واحد من دون كل تلكم الجموع الوالهة يرى غير ما ترى، ويحس غير ما تحس، ويناقض بنظرته الشخصية ورأيه الخاص نظرتها الجمعية ورأيها النابع من انفعالها الصادق بذلك الحدث القاصم النابغي الألم كأنما ذلك الفرد كان بمعزل عن تلك النذر والشواهد التي عايشت الأيام والليالي الأخيرة من حياة الرسول، وكانت تفصح عن وفاته الوشيكة، عليه الصلاة والسلام، أبلغ إفصاح..

ذلك عمر..

العجيب أنه عمر!

فما أكثر ما نقلت إلينا روايات، مع اتفاق في المعنى واختلاف في العبارات، أنه لما سمع عن وفاة النبي أنكر الخبر.. ثم أمعن في إنكاره إلى حد العدو بالتنقص والتهديد على من تناقلوه، واصماً بالنفاق، متوعداً بالقتل وبما هو أنكى من القتل كل من يقول إن محمداً قد مات..

فإلى أي مدى جرت بهذا الموقف العمري أسنان الأقلام على صحائف التاريخ؟..

إلى أبعد الآماد..

فكثيرون من قدامى المؤرخين والحوليين تناولوه وأسرفوا في تناوله ما شاء الإسراف.

وكثيرون من محدثي المعلقين والباحثين تناولوه وأفاضوا فيه شرحاً وتفصيلاً حتى بلغوا غاية الغايات في التحليل والتعليق..

تناوله أولئك وهؤلاء فما اختلف صورة، ولا اختلفوا رأياً إلا بقدر ما تغير من هيئة الخبر عبارة تضاف هنا أو عبارة تنتقص هناك..

أما فحواه ففي الحالين فحواه، ومعناه فهو معناه..

في أكثر من مصدر قيل:

«لما توفي النبي، وعلم عمر الخبر، انطلق مهتاجاً إلى المسجد، ووقف يصيح في الجموع:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات. وإنه والله ما مات. ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران. . والله ليرجعن رسول الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات. .».

وورد عن أنس بن مالك[1] أنه قال:

«لما توفي رسول الله ﷺ، بكى الناس، فقام عمر بن الخطاب في المسجد خطيباً فقال:

«لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات. ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران فتلبث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات. .».

وتكرر الخبر الأسناد. .

أفكل أولئك الذين تناقلوا، ذلك النهار، خبر وفاة الرسول كانوا حقاً منافقين وإن منهم، بلا أدنى ريب، لكثيرين كثيرين تطهرت نفوسهم، وأخلصوا قلوبهم لله؟. .

وممن عسى استقى الناس النعي إن لم يكونوا قد استقوه من منبعه الأول والأوحد وهو بيت الرسول؟. .

وأين «موت» محمد من «ذهاب» موسى بن عمران؟. .

لقد كان قوم المدينة أقرب المسلمين إلى رسول الله، وأعرفهم به، وأيسرهم سبيلاً إلى الأخذ عنه في كل أمور الدنيا والدين. .

وكان مجتمعهم، بحكم الصحبة النبوية، يضم أعلم أهل المجتمعات

---

(١) محمد بن سعد: «الطبقات الكبرى».

الإسلامية بدينهم، وأحراهم بتبين ما قد يغمض عليهم من شعائره، ومن شرائعه، ومن آيات كتابه الحكيم وإن محمداً لمعهم، نهارهم وليلهم، يستهدونه فيبصر، ويستفسرونه فيفسر، ويسألونه فيجيب..

ثم كان من بينهم رجال لم يعرفوا الإسلام معرفة تسليم وحسب، بل عرفوه أيضاً معرفة إحاطة واستوعبوه استيعاب تيقن، ودرسوا القرآن دراسة تأمل ومقابلة مقارناً بغيره مما تنزل من قبله على الأنبياء والمرسلين..

ومما لا نظنه يبعد عن سلامة التقدير - والمدينة وما حولها كانت مباءة اليهود - أن نفراً من ذوي المعرفة في بني إسرائيل قد دخلوا في الإسلام فتفقهوا فيه مثل تفقههم في دينهم الأول، وقرأوا القرآن فأدركوا منه إدراك وعي ما أدركوا من التوراة.. فهل عن مثل هؤلاء كان يخفي أن القرآن لم يقل - وقد تمت آياته، واكتمل الدين - إن محمداً عائد إلى هذه الحياة الدنيا بعد رحيله عنها بأيام معدودات كما تشير إلى هذا كلمات عمر بن الخطاب؟.. وهل عن مداركهم اليقظانة يغيب أنه لا وجه قط للشبه بين ذهابه إلى ربه يومئذ وبين ذهاب موسى بن عمران قبله بعدة مئات من السنين؟..

لو كان جائزاً أن تختلط على فريق من المسلمين حقيقة هذه الرحلة الربانية المنسوب ذكرها لعمر، لما جاز اختلاطها على فرد واحد من هؤلاء اليهود، ولا عمن عساهم عرفوا عنهم بعض دينهم القديم بحكم المعاشرة والجوار.. ذلك لأن ذاكرتهم كانت خليقة بأن ترتد إلى أسفار التوراة، لتتبين الحقيقة.. فلا يعضلها أن تجد بين سطورها ما تريد..

فقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج:

«وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن هناك، فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم...».

ويمتثل موسى..

وتصف التوراة اللقاء الرباني، وتجلى الله، فتقول:

«... وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون

بني إسرائيل ودخل موسى في وسط السحاب. وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة..».

فإذا أفرز هذا النص شيئاً في نفوس أولئك الذين علموه، فإنه ما كان ليفرز سوى العجب لقول من يعادل بين ذهاب محمد إلى ربه وبين ذهاب موسى بن عمران..

والواقع أن القرآن لم يدع سبيلاً لظان أن يخمن، ولا لمتأول أن يتأول حقيقة ذهاب موسى إلى ربه، وكيف كان..

جاء في سورة الأعراف:

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين».

والمقارنة بين الذهاب والذهاب تظهرهما على خلاف.

فبالروح والجسد ذهب موسى إلى لقاء الله، وبالروح والجسد أيضاً عاد إلى قومه تضطرم فيه جذوة الحياة..

نقول مسايرة للسياق:

أليست ثمة معالم تشابه يفرض نفسه على الذهن، معادلاً بين وضع هارون ووضع علي بن أبي طالب يتكشف للمرء حين يعرض بالتأمل لما ورد في هذه الآية الكريمة على لسان موسى بن عمران مقارناً ومقروناً بما جاء ذات مرة، على لسان محمد بن عبدالله؟..

ثم..

ألا يرى من يمعن النظر، ويعمل الفكر كيف تصور الآية الكريمة موسى

وهو يكلف أخاه هارون بمهمة ما كان ليجترئ على تكليفه بها، لولا أنها أمر من الله، عليه أن يصدع بتبليغه وتنفيذه؟..

إن الآية تقول:

«وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي».

وإن محمداً - بالمقابلة - يصور لعلي دوره، في معرض حديث شريف له عليه الصلاة والسلام، يضع به «أخاه» علياً حيث ينبغي أن يكون موضعه، مقدماً على كل من عداه من المؤمنين..

يقول هذا الحديث:

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى لولا أنه لا نبي بعدي».

ففي النبوة يختلفان ولكنهما في «الخلافة» يتماثلان.

ونكرر..

لقد أخذنا النفس في هذا البحث باستبعاد الاستناد إلى الأحاديث. وما أردنا بهذه الإشارة الاحتجاج بحجة بقدر ما نحاول مسايرة السياق..

وبالروح وحده ذهب محمد للقاء الله، وبقي جسده مسجى على فراشه بغير نبضة حياة.. وشتان بين ذهاب وذهاب..

فالفارق بينهما لا يحتاج لمنطق برهان، لأنه فارق مادي جلي، تدركه الحواس.. يميزه اللمس، وتراه العين، ولا تخطئه الأذن حين تتسمع ضربات القلب ووسوسة الأنفاس فلا يصافحها غير فراغ السكون وهمود الجمود.

بل قد أخذت موسى صعقة كادت تقضي على حياته وهو بعد بين يدي ذلك اللقاء.. والموت لا يجوز إلا على الأحياء..

عن موعدة من ربه ذهب موسى ليعود بعد لقاء..

وعن موعدة من ربه ذهب محمد إلى لقاء هو البقاء..



(٣)

والمجال هنا ليس بمجال حديث عن رجعة الرسول. .

وما سلف ذكره - ليس محاولة تتحرى مصادرة رأي الألى يحسبون قولة عمر بالرجعة يومئذ لم تقم على فراغ. .

فراء وما يرى. .

ولكل وجهة. .

إنما التصدي لتلك القولة المنسوبة لعمر، ليس من حيث انطوائها على مبدأ إيماني مقرر لدى كثيرين، بل من حيث هي خبر من الأخبار. .

أما الفيصل في التصدي لمثل هذه الروايات فهو الموازنة بين معالم الصدق ومزاعم الإدعاء في الأنباء، دون الخروج عن خط التاريخ إلى خط الإبتداع.

ومن ثم فإننا نضع، تحت ضوء التأمل، ما بين الروايات بعضها وبعض من تضارب وتعارض، ومن تآلف واتساق، ليتقبل منها العقل أو يستبعد ما يشاء تقبله أو استبعاده، حسبما تهديه إلى ذلك سلامة النظر وروية التفكير.

فلقد علم أن موسى صعق وأفاق. . والصعقة تعني الغشية. لكنها قد تعني أيضاً الموت، بدلالة معنى قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[١].

وإذن فالإفاقة هي الرجعة إلى الحياة. .

فإذا كان هذا هو الذي حدث عند الجبل فلقد يقول قائل: وما هو وجه

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

الغرابة في أن يحدث مثله بغرفة الرسول؟.. وهل عجيب من ابن الخطاب لو اعتقد يومذاك أن محمداً لن يغيبه الموت عن قومه إلا كمقدار صعقة موسى أو نحوه، ثم لا يلبث أن يبعث حياً من مسجاه فيقطع أيدي رجال وأرجلهم أرجفوا بأنه مات؟..

ما من غريب ولا عجيب، لولا أن هذا الذي بدا كأنه تشابه بين ذهاب الرسولين الكريمين للقاء الله، ونمت عنه تلك الكلمات المنقولة بلسان عمر، ترينا الروايات كأنما عمر قد ناقض فيه نفسه مرتين متباعدتي الزمان والمكان:

فهو يتناول، في مرة، ما بدر منه عن الرجعة، فينفيه وهو بمعرض أسف أو اعتذار.. ثم يتناوله في أخرى، فيثبته، وهو بمعرض تبرير أو إقرار..

نقيضان لا يلتقيان..

رأيان لا يصدران من نبع واحد. وما كانا ليصدرا عن مثل عمر وقد أتيح له من الوقت قبل نطقه بأيهما - ما يفسح له في الأناة..

أم كيف يفهم استناده في كليهما إلى القرآن، فيصرح أن لا سند لقوله بالرجعة في كتاب الله ثم يتبع تصريحه هذا بآخر ينقضه على أساس أن الرجعة وردت في كتاب الله؟..

في الأولى.. تنقل إلينا الروايات.. عن إجماع - أنه وقف في غد السقيفة، يقدم أبا بكر للناس ليبايعوه البيعة العامة..

يقول:

«... إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كنت وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إلى رسول الله. ولكنني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا، ويبقى ليكون آخرنا...».

وفي الثانية.. تنقل إلينا رواية أنه تحدث يوماً إلى عبدالله بن عباس عن قولته تلك التي توعد بها المرجفين كيف ندت عنه فإذا هو يبررها بأنه إنما استقاها من قوله تعالى:

«إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد..».

نقيضان - كما قلنا - لا يلتقيان. .

موقف عمر، على ذلك النحو، كان أولى بأن تتباين فيه آراء الجماهير الحاشدة في دائرة المسجد، وعلى كثب من دار النبي، في ذلك النهار.

فلئن صدق دعواه من القوم أناس فلا بد أن لم يصدقها آخرون. ولئن سكت عنها فريق فلا بد أن قد جرى إنكارها على ألسنة فريق. . أما أن يؤمن سامعوه جميعاً على ما قال، فهذا ما يتعذر أن يقال، أو يخطر ببال، لأنه أشبه بمحال إن لم يكن هو المحال.

لكن المحال كان. . فلم نقع على رواية واحدة تشير إلى امرئ بين تلك الجموع المحتشدة بالمسجد وما يدانيه قد أخذ على عمر دعواه تلك، وحاول أن يرده عنها إلى جادة الصواب.

فإذا ظن أن الحالة النفسية المضطربة لتلكم الزمر كانت كفيلة بأن تميل بطائفة منهم إلى السكوت وبطائفة غيرها - قليلة أو كثيرة - إلى تصديق دعوى عمر، فكيف كان إذن موقف بقية الناس؟. .

وهل كان ليطول أمد السكوت أو التصديق إلا بقدر ما يتبين لهم اليقين وإنه بلا ريب قد تبين بعد لحظات، أو دقائق معدودات، ودار النبي تحت الأبصار والأسماع تضج ضجيجاً بالولولة والعويل؟. .

وإذا ظن أن هيبة ابن الخطاب في نفوس المسلمين قد ألجمت ألسنتهم عن مجابهتهم إياه بكلمة حق، أفليس من المعقول أن يتصدى له بعضهم متسائلين ومستفسرين؟. .

لنعجب للناس كيف أجمعوا - عندئذ: شهوداً. . ثم من بعد رواة ومعلقين - على ذلك الصمت الأخرس وهم يسمعون الرجل، أو يعلمونه، قد راح يرمي - كقول تلك الروايات - في وجوه أهل المدينة بألفاظ دعواه وما احتوت من وعيد وتهديد، ثم يردد ويعيد فيمعن في الإعادة والترديد. .

ولنعجب أيضاً للروايات كيف صورت عمر وإنه لأحد فئة قليلة جليلة من أخلص خلصاء محمد، وأوثقهم به صلة، يخرج بمسلكه ذاك عن حدود

الرزانة الخليقة بمن هم في مثل مكانته، فلا يوقر جلال الموت، ولا يحترم أسى المحزونين، وإنما يصرخ بدعوى عرفنا منه هو نفسه أن لا سند لها في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله، فضلاً عن مجافاتها للواقع المرئي المشهود..

فبإجماع ما ورد في الأسناد أو بما يشبه الإجماع.. ومن دون أصحاب محمد، وبخلاف ما كان من أهل المدينة الحزينة على تغاير المنازل والأقدار، نرى من خلال سطور الروايات عمر وحده هو الذي أبى إلا أن يكذب نبأ وفاة رسول الله، وأبى أيضاً على الناس أجمعين إلا أن يكذبوه..

فهل هذا مقبول؟..

أيقال: إن فداحة المصاب قد أذهلته عن نفسه فلم يملك إلا أن يثور بالجمهور الأسيف تلك الثورة التي تلهبت بغضبه العنيف؟..

لئن قيل فإنها إذن ثورة كان أحرى بها ألا تطول سوى لحظات يصدم بعدها الواقع المؤلم صاحبها فيفيق.. تماماً كنائم استغرقه كابوس، ما أن تخزه أو تهزه حتى ينتفض من سباته الثقيل مجتازاً، في طرفة عين، ذلك الخط الدقيق الفاصل بين الحقيقة والوهم، بين اليقظة والمنام..

وكيف تطول وإن عمر عندئذ لمثل جزيرة في بحر لجي يكتسح شواطئها موج صاخب من الدموع؟..

لكننا نجد من ينظر إلى تلك الثورة العمرية - أو «السورة» - فلا ينفيها ولا يتشكك فيها.. وإنما يفلسفها محاولاً أن يثبتها ويؤكدها وإن هي من الوجهة العملية قد تناقضت كنتيجة حدثية مع كل ما بسطته مقدماتها من أحداث، وإن هي أيضاً من الوجهة النظرية قد خالفت الطبيعة الإيمانية لعمر الذي أسلم لله فأحسن الإسلام، وأشربت روحه كتاب الله وأحاديث رسول الله..

يفلسفها فيقول:

«... القوة في إيمانه - إيمان عمر - كانت هي المسيطر الأكبر على

كل خلق من أخلاقه وكل رأي من آرائه، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقاداً من الأخلاق والآراء، وأشد عراماً من العقائد والشبهات وهي: دوافع الطبع وسورات الغريزة..

«. . . ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبي إلى المسلمين فأنكر أن ينعي وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرؤوس:

«والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات».

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فتمشى وئيداً صامتاً لا يكلم أحداً، وتيمم النبي وهو مغشى بالثوب فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وقبله وبكى.

ثم أحس هولة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال:

«إجلس يا عمر..».

وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء:

«وأما بعد. فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين».

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب..

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعاً عاتياً هو أولى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق..

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس. ثم انهزامه كأسرع ما يكون الإنهزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار. وغاشية تتجلى عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه، ماض بشعوره إلى حيث يمضي به إيمانه، فهما قوتان غالبتان وليستا بالمعسكرين المغالبين..

لقد كانت تلك سورته الكبرى[١]..».

سورة

لكنها السورة الحرية بأن تنفي وقوعها المقدمات الحدثية كما تمنعه قوة الإيمان..



(٥)

ثم تكثر التناقضات..

ففي حديث للسيدة عائشة أم المؤمنين: «لما توفي رسول الله، استأذن عمر والمغيرة بن شعبة[٢] فدخلا عليه، فكشفا الثوب عن وجهه. فقال عمر:

«واغشياه.. ما أشد غشي رسول الله..».

ثم قاما. فلما انتهيا إلى الباب قال المغيرة:

«يا عمر.. مات والله رسول الله..».

قال عمر:

«كذبت.. ما مات رسول الله، ولكنك رجل تحوشك فتنة.. ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين..».

وفيما روى عن مكرمة[٣] أنه قال:

«توفي رسول الله فقالوا: عرج بروحه كما عرج بروح موسى، وقام عمر خطيباً يوعد المنافقين قال: إن رسول الله لم يمت وإنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى. لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال وألسنتهم..

---

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية عمر».

(٢) محمد بن سعد: «الطبقات الكبرى».

(٣) لمحمد بن سعد: «الطبقات الكبرى».

فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شدقه. فقال العباس. . إن رسول الله قد مات فادفنوا صاحبكم. . أيميت الله أحدكم إماتة ويميته إماتتين؟. . هو أكرم على الله من ذلك. . . .».

خبران يثبتان ولا ينفيان. .

يثبتان أن عمر دخل غرفة الرسول بعد وفاته وشهده شهادة عيان جسداً بلا حياة. .

ويثبتان أن المغيرة بن شعبة تبين ما كان يسيراً تبينه على أيما امرئ من الناس، وأكد له وقوع الوفاة. .

ويثبتان أن عائشة والعباس لم يتأثرا بسورته، ولم يميلا ميله عن سلامة النظر إلى عوج التهويل. . وليس بمستبعد أنهما رداه عما قال. لو أنه قال!. .

فأما السيدة فقد مشى معه سمعها - كنص حديثها - إلى الباب. وما نظنها كانت معفيته عندئذ من إلزامه الصواب ونحن نعلم أنها أول من تلقف من شفتي الرسول ما يؤكد أن قد جاءت لحظة الرحيل.

وأما الرجل فقد أعلنها صريحة بلا إبهام، مؤكداً موت ابن أخيه، وداعياً القوم إلى مواراة جثمانه الطاهر التراب، نافضاً عنهم ما لعل القولة العمرية المهتزة بثته من تأول أو ارتياب. . فإن لم تكن صراحة شيخ بني هاشم قد جابهت عمر ولما يغادر الغرفة إلى المسجد ليتهدد الناس، فأحرى بها أن تكون لحقته عند الباب. .

ولا شك في أن رواية عكرمة هي الخبر الذي يمكن وصفه بأنه «الصورة الكاملة» لسورة عمر بكل ما بها من تفصيلات. فهي تذكر «العروج» أو الذهاب إلى الله. . وتذكر دخول عمر الحجرة النبوية عقب موت رسول الله. . وتذكر كشفه الثوب بيده عن محياه. . وتذكر المغيرة يؤكد الوفاة، كما تبين قيام عائشة وعمر بما يحتمل تفسيره لإلزام ابن الخطاب جادة الصواب. . ثم تذكر، على الرغم من هذا كله وبعده، قصة ما بدر منه من وعيد. .

ومع ذلك فلم تحفل الروايات بخبر دخول عمر غرفة النبي وكشفه الغطاء عن وجهه بعد وفاته مثل احتفالها بما روى من إلهابه الناس بسياط التهديد. .

فلقد أثبتت نبأ الدخول طائفة كبيرة من المؤرخين والحوليين تضاهي الإجماع، وأغفلته بضعة لعلهم رأوا الإجتزاء من الصورة بجانب دون جانب والأخذ من الرواية بنصيب دون نصيب. .

فلماذا الإجتزاء؟. .

ربما لأن هذا النبأ كان - بنظرتهم - غير ذي أثر في سير الأحداث.

ربما لأنه «هامشي» باهت اللون إن هو ذكر إلى جوار محنة المسلمين الحالكة السواد. . محنة رزئهم في نبيهم وهاديهم وقائدهم العظيم. .

ربما لأنهم لم يقعوا عليه فيما قرأوه أو سمعوه عن تلك المدة من أخبار. .

ربما قد غفلوا عنه وفاتهم أن يسجلوه. .

ربما زهدوه ورأوه غير جدير بالتدوين. .

ربما أغفلوه لأنهم أرادوا إغفاله عامدين. .

ولِمَ لا؟. .

أليس هو الخبر القاطع المانع الذي ينتفي بثبوته حدوث الغضبة العمرية الشهيرة، وليس غريباً أن يكون من بين صناع تاريخ تلك الفترة، أو أنصارهم، من يرى خيره، وخير جماعته، وخير رأيهم الذي يعتنقونه - مذهبياً أو سياسياً - في انطباع سورة عمر، بحروف غائرة، وبمداد كثيف فوق صفحات التاريخ؟. .



(٦)

كيفما كانت الأسباب التي دفعت كثيراً من المؤرخين إلى إغفالهم ذكر حادث دخول عمر إلى حجرة محمد عقب وفاته عليه الصلاة والسلام، فإن وقائع الحال ونظرات العقول حقيقة بألا تنفيه..

فبدلالة ما سلف بيانه، يخرج عمر إلى المسجد من دار الرسول فيتوعد القائلين بالوفاة، ثم لا يكف عن السدور في وعيده حتى يجيء أبو بكر فيزجره وينهاه..

فمتى كان مجيء أبي بكر؟..

ومتى كان الزجر؟..

مع التقتير في التقدير كان ذلك بعد مدة تراوحت، بحساب زماننا، بين ساعة وساعتين قضاها ابن الخطاب وحملته الموعدة مصلته على الرقاب..

وهذه مدة، لا خلاف، بأنها كافية لانكشاف غاشية الذهول عن عمر إن لم تكن رؤيته الجثمان، ثم رد المغيرة، ثم حديث عائشة، ثم كلام العباس كافية للانكشاف.

ذلك أن أبا بكر - بإجماع الروايات - كان، في لحظة انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، غائباً بداره في «السنح»: تلك العالية من عوالي المدينة التي تقع على مبعدة نحو ثلاثة أميال من المسجد وغرفة الرسول..

ومسافة كهذه يقطعها المرء، في الذهاب والجيئة، في نحو ساعة أو اثنتين على الظهر أو على الأقدام..

فإذا وضع في الحسبان ذلك الوقت الذي استغرقه هرج الناس بالمدينة واضطرابهم عندما داهمهم النبأ المشؤوم على غير انتظار.. ثم الوقت الذي استغرقه، بعد هذا، امتلاكهم أعنة الأعصاب وفيئهم إلى القرار.. ثم الوقت الذي عسى قد استغرقه تردد النعاة في نقل خبر الوفاة إلى أبي بكر حيث كان

تردداً مرجعه من ناحية إشفاقهم على ذلك الصاحب الوفي أن يصيبه من صدمة النبأ الصاعق مكروه، ومن ناحية أخرى: إشفاقهم على أنفسهم أن ينفر الناس ويقرنوا بهم الشؤم أبد الدهر إذ مشوا، وسمّموا الأسماع بأنحس خبر يمكن أن يذاع.. ثم الوقت الذي قضاه أبو بكر بعد مجيئه من السنح، في وداع الرسول.. إذا وضع هذا كله في ميزان الاعتبار، فليس خطأ أن يقال إن الصديق أبا بكر إنما راجع عمر في سورته بعد نحو ساعتين من لحظة الوفاة..

هنا يواجهنا التاريخ، من خلال مختلف الروايات، بصور عدة لابن الخطاب..

فهو، مرة، يريناه يدخل غرفة رسول الله، ويشهده شهود عيان جسداً فارقته الحياة..

وهو، ثانية، يريناه عند المسجد، على مقربة من الغرفة النبوية، يؤكد للجموع أن محمداً لم يمت، ويتهدد القائلين بوفاته، فلا يتصدى له من الناس رجل واحد يحاول أن يرده عما يقول..

وهو، ثالثة، يريناه سادراً في وعيده، مصراً على دعواه حتى يعود أبو بكر فينهاه..

فإن كانت الأولى، فقد سقطت الأخريان، ولزم انتفاؤهما كل الانتفاء..

لأنه لا شيء أصدق من مرئي ملموس، تراه العيون، ولا أقدر منه على تحدي بقية الحواس.

فالمشاهدة سيدة الإثبات..

ومن ثم فلم تكن بعمر حاجة قط إلى النطق بلفظة تهديد فضلاً عن سدوره ذاك في الإرعاد، وإصراره على ترديد الوعيد.

وإن كانت الثانية، فقد لزم استبعاد الأولى، وإسقاطها من حساب التاريخ. إلا أن يقال - من قبيل الافتراض - ربما انفعل الرجل بخبر الوفاة دون تثبت واستيقان..

أو.. قبل أن يدخل حجرة الرسول..

وذاك افتراض يشير إلى أنه فوجئ بنبأ الوفاة في وقت مبكر ولما يشع في الناس الخبر، ولا علمه أحد خارج الدار أو علمه نفير قليل..

فلو أنه علمه - مبكراً - فليس له من سبيل إلى الارتياب فيه..

لأنه علمه، لا محالة، ممن سبقوه إلى العلم به وهم، بغير جدال، آل محمد وقرابته الأدنون ولا وجه للريبة فيما يقولون..

ولو أنه علمه - مؤخراً - فقد كانت له مندوحة عن التكذيب..

لأن الحجرة النبوية، وهي على كثب منه، كانت عندئذ ترتج بالنحيب.

ولأن الطبيعي في هذا الظرف أن يخف فيمشي خطوة أو بضع خطوات فيجتاز الباب إلى حيث يقطع الشك باليقين..

ولأن المدينة كلها كانت غارقة في الدموع..

ولأن البديل المنطقي الوحيد الذي قد يظاهر تهديده، أو يبرره، هو احتمال حضوره إلى مسرح الفاجعة قبيل مجيء الصديق بوقت قصير، جد قصير..

لكنه تبرير ينفيه التاريخ..

فلقد ورد في الأخبار:

«قال أبو جعفر[1]: توفي رسول الله وأبو بكر في السنح، وعمر حاضر».

ولا مجال لاقتران وجوده بالمدينة بجهله النبأ الأليم، أو بعلمه به في وقت متأخر وابنته أم المؤمنين حفصة كانت خليقة بأن تخبره به قبل غيره من المسلمين..

وإن كانت الثالثة، فالفرض السابق يهدمها من الأساس..

(١) محمد بن جرير الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

أم لم تبلغه حفصة؟ . .

أم لم يشهد أحزان الناس؟ . .

أم لم يدفعه التلهف إلى اجتياز باب الحجرة النبوية، إن لم يكن قد دفعه الفضول للدخول ليتيقن من أهل الدار؟ . .

فمن شاء اختيار الأخذ برواية أولئك الذين لم يوردوا خبر دخول عمر غرفة النبي فله أن يختار . . ومن شاء أن ينكر أنه قد عاين جثمان محمد مسجى، خلال المدة التي سبقت مجيء أبي بكر من السنح، فله الإنكار . . لكنه إذن الاختيار المريب المدخول، والإنكار الذي يخالف المقبول المعقول . .

ولا بدع . .

فعمر لم يكن من عامة المسلمين . . بل كان من خاصة الخاصة فيهم ومن أكبر زعمائهم المرموقين . .

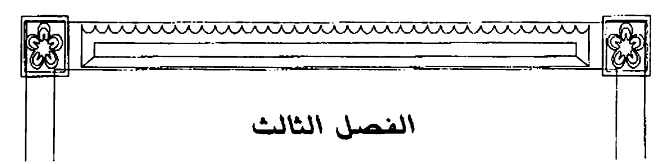
وهو قد كان من أقرب صفوة الصحب، وأحبهم إلى الرسول . .

وهو، فوق هذا وذاك، أبو حفصة أم المؤمنين . .

لقد شهد الناس، في ذلك اليوم الأغبر، أبا بكر الصديق ما أن يصل إلى المدينة حتى يخف من فوره إلى دار محمد، لا يتمهل في سيره، ولا يتلفت لأحد أو شيء، ليقف خاشعاً حزيناً أمام الجثمان الطاهر يناجيه ويبكيه . .

فهل ترى مما يجوز، بحال من الأحوال، على أن يدرك عقل، أن يسمع عمر بوفاة صاحبه العظيم: زوج ابنته - دع نبيه! - ثم لا يسرع إلى دار الراحل العزيز وإنها لعلى خطوات كما ينبغي أن يفعل الأصدقاء والأحماء؟ . .





الفصل الثالث

(١)

من عجائب التناقض التي تقودنا إليها الروايات، أن التهديد العمري لا بد قد أتى - في ترتيب التعاقب الحدثي - تالياً لدخول عمر بن الخطاب حجرة رسول الله، واستيقانه وفاته عليه الصلاة والسلام استيقان رؤية ولمس وسمع لا يتطرق إليه أثر من شك، ما دام قد عاين بنفسه الجثمان الكريم. .

هذا هو ما تحكم به طبيعة حب الاستطلاع أو الفضول. .

وما يقضي به منطق الأمور في مثل تلك الظروف. .

وما تحتمه على عمر مكانة الرسول منه ومكانته من الرسول. .

وما تؤكده شهادة المغيرة بن شعبة وعائشة والعباس. .

فكيف يمكن التوفيق بين علمه بوفاة محمد وبين إنكاره وقوع هذه الوفاة؟. .

وبماذا نبرر تهديده الذين علموها وجهروا بها، ذلك التهديد الذي حدثتنا عنه الروايات بإجماع أو بشبه إجماع؟. .

لا تبرير لموقف الصاحب الجليل يتأتى ظهوره في إطار حكم سليم يقيم النتائج على المقدمات، ويبني المسببات على الأسباب إلا أن يدعي من لعله يؤثر الإدعاء انتفاء اللقاء بين عمر وبين الجثمان الطاهر الإنتفاء الذي يهدر كل ما سلف من مؤكدات وقوع ذلك اللقاء. . ثم يزعم أن ثورة ابن الخطاب «الوعيدية» إنما ترجع إلى سورة من الذهول عارمة قد تملكته بغتة فشلت تفكيره وختلت تقديره إذ فوجىء عند باب بيت الرسول، أو على مدى منه قصير أو

طويل، بمن باغتوه بنبأ الوفاة، فإذا هو، دون وعي، يركب الناس بوعيده ويسوطهم بسياط غضبه التي تلهب النفوس والأفهام.. وإذا هو - وقد فل ذهناً ومشيئة - لا يستطيع أن يتكلف محاولة اجتياز الباب لمشاركة أهل الدار مشاعرهم نحو الراحل الغالي كما تقضي بذلك حقوق الصحبة والمصاهرة وفروض الولاء والوفاء.. وإذا هو لا ينبري للتحقق من أولئك الآل والصحب من الخطب الذي دهم، والرزء الذي ألم إن كان مثل هذا الخبر الفاجع الذي ذاع وشاع وملأ الأفواه والأسماع بحاجة إلى مساندته بعبارة تأكيد..

الفيصل إذن الذي يجنح برواية الرواة لواقعة التهديد العمري عن الزيف إلى الصدق، وعن الباطل إلى الحق، ليجعلها يقيناً من يقين، ثم ليبرر ذلك الموقف الذي وقفه عمر هو: الذهول.. فأي ذهول؟..

إنه الذهول الذي يفترس المرء فكراً وعاطفة، قلباً وذاكرة، فينسيه حدوث ما كان وتقدير ما يكون، ويغمض عينيه عما رأى ويرى، ويسد أذنيه عما سمع ويسمع، ويبطل إحساسه مما لمس، ثم يفصل فصلاً كاملاً بينه وبين واقع الحياة..

وأنى بذهول كهذا لابن الخطاب وإنه للجلد الشديد، الصلب العود، الصارم العزم، القوي الشكيمة الذي لا يتهافت له جنان ولا تلين قناة أمام الخطوب؟..

أنى له وحده به من دون المسلمين كافة وعلى رأسهم صفوة آل محمد وصحبه الأخيار؟..

أذهول هو المغالاة في الشذوذ ممن أتاه، أم خبر هو الشذوذ في المغالاة ممن رواه؟

لئن تعلل متعلل بأن عمر إنما كان يخفي وراء ظاهره الجاف باطناً أملس، وهيئته الخشنة نفساً لينة حتى لقد بلغ من رقة قلبه أنه لم يستطع تحمل الصدمة العنيفة التي أصابته بوفاة محمد ورجته رجاً مزلزلاً أفقده اتزان التفكير، فإن الرد اللازم الميسور الذي توجبه طبيعة الأمور هو ما قد وقع من

آل رسول الله في نفس اللحظات التي جرّدت - هكذا كما روى - عمر من صوابه وأصابته بما يشبه الفصام. . وهل كان من أولئك الآل يوم المحنة إلا كل ما يجمل أن يكون من تصبر، وإن عز وجل، انصياعاً لمشيئة الله، وإنهم لأولى الخلق باستشعار صدمة الوفاة والإحساس بهولها وقد تفجرت صاعقتها بينهم - بل فيهم - . . فكان لهم منها الضربة المباشرة الساحقة، وكان لمن عداهم من المسلمين من آثارها الجانبية أو الهامشية نصيب من الشظايا إن لم نقل بعض نصيب؟ . .

لقد كان حزن المسلمين جميعاً، وفيهم أولئك وهؤلاء، على رسول الله، على قدر فجيعتهم فيه. .

وكانت فجيعتهم على قدر حبهم إياه، ومدى تقبل قلوبهم للتأثر برزء الوفاة. .

والذي لا شك فيه أن ابن الخطاب، شأنه كشأن الصفوة من أصحاب محمد، كان يحب نبيه حباً لا يمكن أن يقاس بمألوف ما نعرف الآن من حب يكنه قلب إنسان لإنسان صهراً كان أو صاحباً أو تبيعاً لصهر أو لصاحب أو لمتبوع. .

فهل ترى على قدر حبه وتأثره قد أصابه ذلك الجزع الهالع الذي رمى به في غمرة الذهول؟ . .



(٢)

لقد كان حبه كبيراً. .

وكان تأثره عميقاً. .

لا ريب في هذا ولا في ذاك. .

لكن أحداً لا يستطيع أن يقول، ولو من قبيل التجاوز، إن عمر كان

أرهف إحساساً بالمصاب الفادح من غيره من نخبة أصحاب رسول الله.. أو أنه - على أي وجه من وجوه التقدير - أقرب صهراً، وأكثر حباً، وأدنى صحبة، وأرق قلباً من أبي بكر الصديق.

بهذا تتحدث الحقائق، وتنطق شواهد التاريخ..

فلقد ورد أن النبي، بعد خطبته الجامعة في حجة الوداع، ركب ناقته القصواء حتى بلغ الصخرات. وهناك تلا على الناس قوله تعالى:

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

«فلما سمعها أبو بكر بكى إذ أحس أن النبي، وقد تمت رسالته، قد دنا يومه الذي يلقى فيه ربه[1]».

وورد أيضاً عن أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ، خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر. ثم كان أول ما تكلم به، أن صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، وأكثر الصلاة عليهم ثم قال:

«إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله».

«ففهمها أبو بكر وعلم أن نفسه يريد. فبكى وقال:

«بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا[2]....».

وورد عن السيدة عائشة أنها قالت:

«لما مرض رسول الله ﷺ المرض الذي مات فيه، أذن للصلاة فقال:

«مروا أبا بكر أن يصلي بالناس».

تقول عائشة:

«فقلت: إن أبا بكر رجل رقيق. وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق....».

---

(١) د. محمد حسين هيكل: «حياة محمد».

(٢) محمد بن جرير الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

وفي رواية أخرى قالت:

«إنه رجل رقيق، فمر عمر[١] . . . .».

فالرقة إذن بأبي بكر أنسب، وهي أولى بأن تحكم تصرفه في ذلك اليوم الأسود الحزين، لو كان مقياسها هو التعبير عن الشعور. .

وعمر أقدر على كبح نفسه، وحملها على كتمان التأثر الخليق بأن يغتال جلد الصديق. .

كذلك فإنه، بحكم الطاقة العاطفية التي تتيحها للنفس البشرية عوامل الوراثة، وظروف البيئة، وروابط العشرة، وأصول التوافق الروحي، لم يكن عمر قادراً، ولو شاء وحاول، أن يرقى بحبه للنبي إلى مثل حب علي ابن أبي طالب الذي اجتمع في قلبه لابن عمه، عليه صلوات الله، حب الأخ لأخيه، وحب الاب لأبيه، وحب الربيب لمربيه، وحب التلميذ لهاديه، وحب المولى لمولاه، وحب الصفي للذي اصطفاه. . ثم يتوج هذا كله حب فخور فذ، يذهب في الفخر إلى أبعد الأبعاد، وفي الفذوذ إلى التوحد والإنفراد. ليس بمسبوق ولا ملحوق. بغير نظير ولا شبيه. يبتعثه في نفسه ونفوس ذويه وذراريه إلى آخر الزمن اعتزاز بانتماء ولده - دون العالمين أجمعين - ببنوة الدم إلى أشرف الخلق كافة: محمد عليه الصلاة والسلام من خلال أمهم الزهراء. .

لكن هذا الحب الفريد الكبير لم يكن ليخرج علياً من طوره عندما دهم قضاء الله. فما شل تفكيره. ولا عبث باتزان تقديره. ولا عصف بصبره أو اصطباره. ولا ألقى بوعيه بين يدي مثل ذلك الذهول. . إنما لاذ بالوقار أو التوقر. وبالجلد أو التصبر. ولم يعرف عنه أنه خرج عندئذ على جلال الموقف بفعل أو قول. بل علمناه، وهو يجهز وليه العظيم لرحلة الفراق الأليم، يناجيه فيقول:

---

(١) محمد بن جرير الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

«. . . لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء. . لولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً والكمد محالفاً، وقلا لك! . . ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه. بأبي أنت وأمي. . أذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك. . ».

وسمعناه وقد أودع نبيه مقره الأخير، يقول:

«. . . إن الصبر لجميل إلا عنك. . وإن الجزع لقبيح إلا عليك. . وإن المصاب بك لجليل، وإنه قبلك وبعدك لجلل. . . .».

بل إن سيدة نساء العالمين الطاهرة أم الأطهار: فاطمة بنت الرسول - التي أحبت محمداً كما لم تحب أباها في البنات ابنة، ورعته كما لم ترع وحيدها في الأمهات أم، ولازمته ما عاش لم تكد تفارقه ساعة من يوم - كانت أملك لوعيها، في لحظة الهول الأكبر، من أن يذهب لها، ويطيش صوابها وتختل مشاعرها فتخلط الحزن بالهوس، والشجو بالخبال. ويتخبطها من فجيعتها ما يخرج بها عن صبر المؤمنين، وإيمان الصابرين، هي التي آثرها محمد عليه صلوات الله، بحب قلبه الكبير الذي لا يعلو إلى شأوه من الحب ما يبتدعه إغراق الأساطير، ولا تذهب بعض مذهبه شطحات الخيال. .

أولى بفاطمة إذن، وهي عندئذ الأنثى الضعيفة الشفيفة الذاوية العود، الرقيقة الفؤاد، أن تنهار نفساً وبدناً، وتتهاوى حطاماً عقلياً تحت وطأة الرزء الساحق الذي كان رزؤها في أعظم الناس وأكرم الناس وأحب الناس: أبيها نبي الإسلام، قبل أن يكون رزء غيرها من الناس.

لكنها، كزوجها المتجمل بالصبر، تجرعت الصبر المر. . والتزمت حدود الحزن الجليل الوقور، تسليماً مؤمناً بقضاء الله. . وكان قصارى ما تفجر به شجنها العميق الذي يدك الجبال أن راحت تندب ذلك الأب الأثير الحبيب، وتنعاه إلى من في الأرض ومن في السماء، فتقول وحرق الأسى تحيل دموعها دماء:

«أبتاه.. أبتاه..

«يا أبتاه..

«أجاب رباً دعاه..

«يا أبتاه..

«جنة الفردوس مأواه..

«يا أبتاه..

«إلى جبريل ننعاه..».



(٣)

فهل كان عمل بطبيعة وضعه الإجتماعي بين زهرة الآل والصحابة أدنى إلى رسول الله من أبي بكر الصديق؟.. وأكثر له حباً من علي بن أبي طالب؟.. وأحنى عليه قلباً من فاطمة الزهراء؟..

أليس، بحكم تكوينه الجسمي والنفسي والعقلي، أوثق بناء، وأشد أزراً، وأصلب عزيمة، وأقوى شكيمة، وأوسع أفقاً، وأعمق وعياً، تجعله أقدر على الثبات أمام الخطوب والأهوال وأعصى على الشطط والخبال، فلا تبدر منه مثل تلكم البادرة الخائرة التي تناقض كل المناقضة صفاته الخلقية والخلقية: بادرة التهديد الأهوج التي رسمتها لنا رواية الرواة..

ألم يكن - بفضل معارفه الدينية، وما أحاط به من علم بكتاب الله، ودراية بما احتوت آياته من أحكام وبينات - على قدر كاف من الثقة بما يعلم ويدري يعصمه من الانفلات إلى ما يبعده عن النهج الأقوم ومما يميل به إلى غير ما تجيزه نصوص القرآن وشرعة الدين؟..

أيسير عليه أن يغفل - بل كيف يغفل هو الذي عايش يوماً بيوم، وساعة بساعة أحداث ذلك العام الأخير في حياة الرسول - أنه قد لمح من نبيه من

الإيماءات، ثم شهد من النذر، ثم سمع منه وعنه من التصريحات ما قد أكد له وللمسلمين بدء النهاية.. فعلم وعلموا دخول الموعد، ودنو الأجل، واقتراب لحظة الرحيل؟..

بل كان أصلب وأقوى..

وكان أوثق وأيقن..

وكان أعلم وأوعى..

فإذا طلعت علينا الروايات - على الرغم من هذا - بصورة لعمر تريناه وهو يهتم بالنفاق والمروق، ويتهدد بالقتل والتمثيل كل من قال بموت رسول الله، أفلا تكون صورة مريبة مهزوزة تخالف منطق الأمور؟..

بلى تكون..

ولا تفسير لهذا الذي قيل إنه وقع إلا أن يكون عمر والذين حضروه جميعاً - وهم عظم أهل المدينة - قد اتخلعوا عن عقولهم تماماً.. فلم يعد هو ذاك الذي عرفناه صلابة وثقة واقتداراً على مجابهة الملمات والأخطار بنفس تكاد تشفى أحياناً على حافة الإلهام.. ولم يعودوا هم أولئك الذين عرفناهم مجاهدين في الله. يعيشون بالحق. ويموتون من أجله وقلوبهم عامرة بالإيمان..

أم لا، فإنه يكون إذن قد ذوق الموقف ثم ادعاه وهو يعلم أنه يدعيه.. ويكونون هم قد مالأوه على الادعاء معقولي الألسن كشياطين خرساء!..

افتراضان يعنان..

لكننا لا نعدم أن نتبين من ورائهما ما رسمته الروايات فإذا هو الموقف الذي لو حاول أن يشق لنفسه طريقاً على أرض الواقع لضل وتاه.. ولصدته الطبيعة العمرية الجلدة القوية لأنها أخلق وأحق بأن ترفضه وتأباه..

وإذا هو الموقف الذي يخالف طبائع كل من يزعم زاعمون أنهم شهدوه في ذلك اليوم الكالح العبوس وسكتوا عنه أو أقروه. يستوي في ذلك: الأجلاد الأقوياء والخوارون الضعفاء..

وإذا هو الموقف الكفيل، بصورته تلك، بأن يبتعد بروايات الرواة الذين أوردوه، بعداً ظاهراً عن تحري الصدق التاريخي إلى مجانفة ترهات الخيال وتهاويل الأوهام. .

فلعله، بالنظرة المنطقية، حقيق بالإنكار والإسقاط. أو لعله خليق بالإضعاف والتوهين. . لأنه - كواقعة حية - لا يكاد يثبت أمام حصيلة النظر العقلي وحقائق الأوضاع التي نظنها قادرة على تحدي ما قدمته لنا الروايات عن سلامة نية، أو تزيد وإقحام. .

وكفى بهذه الحصيلة اقتراباً من الصدق وقوة إقناع أنها تجمع في وفاضها حقيقة الموت الأزلية: سنة الخالق في خلقه وصنو الحياة. . إلى الدلائل والبينات القرآنية. . إلى الشواهد والنذر النبوية، تلميحية وتصريحية. . فإلى سجايا ابن الخطاب وملامحه النفسية، وملكاته العقلية، ومقوماته الخلقية، ومكوناته الخلقية. . ثم إلى أوضاع الأمور، وظواهر الأحوال وبواطنها وكل أولئك أحرى بأن يلف ثورة عمر التهديدية بضباب الارتياب، حتى ليوشك أن يجأر بأنها أدنى إلى أن تكون «قصة» وضعها الوضاع أو اختلقها الإبتداع. .

وليس لنا، ولا من حقنا، أن نتغاضى عما نجده من إجماع أو شبه إجماع على ذلك الموقف العمري الغريب، لا من حيث هو موقف، بل من حيث هو رواية حفظتها لنا حوليات قدامى الرواة في بطون الأسفار، ثم نقلتها عنهم إلينا كتب الكثيرين من المحدثين: مؤرخين ومعلقين. . فذاك واقع مشهود ملموس، مالنا إلى الطعن في وجوده سبيل. . إنما نجدنا لا نملك إلا أن نرى في موقف عمر ما يرينا ظاهره الذي يتبدى كأنما قد موه بطلاء من غير معدنه، ولون بغير ألوانه. . حتى ليحسب المرء رواته قد افتعلوا عباراته، فانطقوا الرجل بغير لسانه، وترجموا عن غير أفكاره، وأبانوا عن غير بيانه. .

ولا حريجة هنا في الإقرار لهم بالإقتدار، فلقد عرفوا كيف يضعون في فم ابن الخطاب المقال الذي يوافق طبعه ويناسب المقام. . الكلمات التي

تلتهب بالغيرة والحمية. . العبارات التي تمتلئ بالسخط والتحفز. . النبرات التي تموج بالغضب والهياج. . كل ما هو أشبه بالطبيعة العمرية الخشنة التي تندفع أحياناً إلى العنف بلا أناة حيثما تجمل الأناة قد حركوا به شفتي صاحب رسول الله، لتختزنه المراجع والأسفار، ويذيعه الرواة عبر العصور. . ولتكون لحديث التهديد المروي قدرة لا تبارى على الاستهواء والاحتواء، لا بسبب القيمة الموضوعية للحادث نفسه، بل بسبب قيمة محدثه: ذلك الرجل العظيم النابه عمر بن الخطاب الذي قل نظيره في الرجال، وكان من أكفأ زعماء الإسلام، وأكبر قادة الأمة الإسلامية، وأبرز أساطين الفكر والسياسة، وأقوى عمالقة الحكم في تاريخ الإنسان.

(٤)

وعلى الرغم من دواعي توهين خبر التهديد، نراه يظهر في الأسفار وقد حفل به الرواة أي احتفال فجعلوا منه (ركيزة) تاريخية ثابتة الأساس، ومعلماً من المعالم على طريق «الخلافة». . ثم ذهب من ذهب في تبريره، وتأويل سلوك صاحبه، إلى الحد الذي يبدي التأويل وكأنه اعتذار عن ابن الخطاب أهون منه - في اعتقادنا - الاتهام. .

خبر التهديد العمري ظل، وما زال، مثار اهتمام من تناولوا تاريخ هذه الحقبة بالعرض أو بالتحليل لأنه، بغير شك، جدير بالاهتمام. . وهم أمامه طائفتان: طائفة مالت بكل ثقلها العاطفي إلى الأخذ به لأنه يرتكز إلى أفدح كارثة اعتصرت القلوب والعيون هي كارثة وفاة الرسول الذي افتتن به المسلمون حباً عمق إحساسهم بالرغبة في الاحتفاظ دائماً بسلامته، عليه الصلاة والسلام، وبأمانه بعيداً عن مواطن الخطر وغير الدهر وعواديه. . وطائفة مالت بكل ثقلها الجدلي إلى الأخذ به لأنه يمثل المدخل الرئيسي إلى ما تلاه من أحداث تكشفت عن الحركات الفكرية والسياسية والمذهبية التي

تعاقبت على الدولة الإسلامية منذ السقيفة وبدء خلافة أبي بكر إلى الآن. . ولا ملامة على الطائفتين فيما تريان، فهذا اجتهاد وذاك اجتهاد. والتاريخ هو الذي قال، وهما عنه ناقلان. والمرائي تختلف هيئة ولوناً باختلاف زاوية الرؤية أو باختلاف درجة الإبصار. . أما وقوع التهديد ذاته ففيه نظر. وهل كان ليقع فعلاً وقد سبقته موانع وقوعه التي تتأبى على النفي والامتراء؟. .

ولا مبالغة لو قيل بانقلاب هذا التأويل على المتأول له - فضلاً عن متأوليه! - وانكفائه إلى التخلي عنه، والإزراء عليه بدلاً من المساندة والتأييد. .

ولمن ينكر هذا، فليأت من قصة الوعيد بموقف يمكن أن يكون لسان صدق يدعم مسلك ابن الخطاب ويقف إلى جانبه شاهداً له لا شاهداً عليه. .

فما من شيء قط أشد إساءة إلى عمر، وأبلغ في ابتذال قدره من تصوره على هيئته تلك التي رسمتها ريشة التهديد كصاحب شطط وتهور. . يتخطف النتائج والأحكام ويعتسفها تخطفاً واعتسافاً، فيتصرف قبل أن يتدبر. . ويسبق بلسانه جنانه. . ويطمس صدق ما يؤمن به أو ما يعرف بزيف ما ينكر أو ما لا يعرف. . وتختلط في مجال تفكيره الحقائق بالأوهام واليقينيات بالمدعيات الاختلاط الذي رأينا كيف تتهاوى به في ذهنه قوى الإدراك والتمييز تهاوياً يرج كيانه المتعقل رجاً مدمراً عنيفاً. . يندك به صرحه الباذخ الشامخ، ويتناثر ركاماً وحطاماً، ينقله إلى ما يشبه الفصام. .

ومن الأمانة أن نقرر أن عمر لم يسلم طبعه من دفعة لا تحمد منه، كانت تورده أحياناً موارد الشطط والخطل، وتضعه حيث لا يحسن منه أن يكون. . وليس بغائب عن الذهن - كمثال - ما بدر من مراجعته رسول الله، يوم الحديبية، مراجعة بها من التسرع والتحرف ما يخرج على مقتضى الحال ويجافي وقار المقام. .

فلقد حنق الرجل وغضب حين علم أن النبي تقبل بالرضا شروط الصلح التي أملى معظمها وافد المشركين، سهيل بن عمرو، إملاء من له اليد

العليا.. فمضى يحاور وهو مغيظ صاحبه الصديق..

قال في إنكار:

«أليس برسول الله؟..».

فرد أبو بكر:

«بلى».

«أو لسنا بالمسلمين؟..».

«بلى..».

«فعلام نعطي الدنية في ديننا؟..».

فزجره أبو بكر:

«يا عمر.. الزم غرزك.. فإني أشهد أنه رسول الله..».

لكن الزجر لم يكفه.. بل لعله أثاره.. فإذا هو يمضي بنفس حنقه ذاك يراجع رسول الله نفس المراجعة، لا يرده مقامه الأسنى، عليه صلوات الله، عن الحدة والغضب وجفوة النبرة وعنف الحديث.

وبسماحة حلمه يصغي محمد لفظاظة الرجل.. حتى إذا رآه قد أفرغ ما في جعبته، مسح على قلقه الهائج برفقه، وقال بهدوء:

«أنا عبد الله ورسوله. لن أخالف عن أمره، ولن يضيعني..».

موقفان من عمر، يوم السقيفة ويوم الحديبية، شتيتان وإن ظهرا كأنما يتشابهان..



(٥)

إن الدفعة العمرية، في أي موقف بدرت، هي بلا ريب بضعة من خلائق الرجل، لا سبيل إلى المماراة في ثبوتها، ولا إلى فصلها عن طبيعته.. ومن الممكن أن تحسب له كما قد تحسب عليه..

فهي، ومن وجه: «علامة من علامات[1] العبقرية التي تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال. يقرر العالم الإيطالي «لومبروزو» ومدرسته المؤتمة برأيه - بعد تكرار التجربة والمقارنة - أنها علامات لا نخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها. وهي تتفق وتتناقض، ولكنها في جميع حالاتها وأشكالها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة..

«فالعبقري يكون طويلاً بين الطول، أو قصيراً بين القصر. ويعمل بيده اليسرى، أويعمل بكلتا يديه. ويلفت النظر بغزارة شعره، أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس.. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور وفرط الحس، وغرابة الاستجابة للطوارئ. فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه..».

وهي من وجه آخر انحراف عن إطار العادي المألوف، وعما قد يصح التغاضي عنه، في أحايين كثيرة، من الهفوات والزلات التي يسهل اغتفارها ولا يسلم من الوقوع فيها المعتدلون الأسوياء فضلاً عن ذوي العواطف الحريفة المتطرفة، والطبائع الزئبقية الهوجاء.. وإذا كان عبقرياً ذلك الذي تفرط سورته، فما الرأي فيه إذا ما ذهب به جيشان شعوره، وتوفز حسه إلى سورة كأنها خمار مخمور، تختلط بها رؤاه، وتتعثر خطاه، فيجنح بعيداً عن السلوك السواء؟.

لقد كانت دفعة عمر، يوم الحديبية، مما يتلمس فيه للغاضب المعاذير، ويسهل التغاضي عنه واغتفاره لأنها تريناه محفوزاً إليها بغيرته على الإسلام وخشيته أن يظن المشركون بأهل دعوة السماء المتنزلة على محمد شيئاً من الضعف يطمع الشرك فيهم.. ثم تريناه آخذاً بظاهر أمر خفيت عنه حقيقته الغيبية التي لم يكن ليعرفها عندئذ أحد من الناس - مسلمين وغير مسلمين -

---

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية عمر».

سوى رسول الله حتى تكشفت لهم من بعد عن نصر مؤزر لمحمد ومن اتبعوه لم يكن يخطر لامرئ في بال وطلع به عليهم غد مجهول..

أما دفعته يوم السقيفة، فقد كان ظاهر أمرها كخافيه، كلاهما يبدي بجلاء أمام الأبصار كما يشعر البصائر حقيقة الموت اليقينية التي لا تختلف عليها العيون والظنون، ولا الأحاسيس والعقول.. والتي ترددت بها أحزان الجمهور ولاحت معالمها واضحة لابن الخطاب في وجه النبي الكريم الذي فارقته الحياة. وليس بمقبول إذن أن ينكر عمر ما يوقن، وينكر ما يرى، وينكر ما يسمع، ثم يلقي بنفسه في خضم الولهين الجزعين (يقرعهم) برأي هو أول من ينبغي عليه أن يعلم العلم كله أنه - يحكم المشاهدة والسليقة - رأي مضعضع مفلول.

فهل حادث التهديد نفسه مفتعل؟..

أم الخبر عنه مدعى ومنحول؟..

وممن الافتعال؟..

أو ممن النحلة والإدعاء؟..

أمن عمر، أم من الرواة؟..

ما تثيره موانع وقوع حادث التهديد من شكوك تنوش اعتماد صحة الخبر يحتم الاحتكام إلى العقل في تقويمه لمعرفة نصيبه من الانتفاء أو من الثبوت فالإحتكام هنا ضرورة يقضي بها تصويب التاريخ قبل أن يقضي إنصاف عمر ونفض ما علق به من غبار الشبهات.

فأما ذلك الإجماع على الخبر، أو شبه الإجماع من قدامى الرواة فليس بمستعيد ألا يشكل دليل صدق على الحقيقة لأنه في ذاته الحجة التي لا تقطع دائماً بصحة المجمع عليه، ولطالما أجمع الناس على الخطأ وخالفوا عن الصواب.. وليس بمستبعد أيضاً أن يجيء نتيجة لازمة لانسياق طائفة من الرواة وراء أخرى منهم رائدة في مجال حشد الأسفار بالسمين والغث من الأخبار دون تحقق ولا استيقان.. ولا أن يكون تداعياً من فريق لنظرة جماعة

مبتدعة شط بها الهوى، أو لعب الخيال، أو اهتز التقدير فمالت إلى الإبتداع والإدعاء.. ولا أن يمثل استجابة الكثرة لغريزة القطيع استجابة انزلقت بها على مزالج أسلاف زاعمين وأدعياء، فمضت على نفس دربهم تهاوناً واستيساراً متمثلة بالقول السائر: خطأ شائع خير من صواب مهجور!.. وليس عصياً أن يقع الباحث على صورة للتهديد العمري مندسة في سطور راوية من الرواة لم يكن يحمد كثيراً على ما يرويه..

ثم لماذا لا يتناول الإختلاف الروايات؟.. ولماذا لا يخالطها الزيف ولا تقع فريسة للحذف والإضافة، ولا للتعديل والتبديل وما سلمت من مثل هذه الآفات أحاديث الرسول نفسه فطمست منها أحاديث وزيدت عليها أحاديث؟..

إن المقرر المعلوم أن المفتريات الملفقة[١] عند جيل من الأجيال الماضية إذ تناقلتها ألسن الرواة، ثم تناولتها أقلام الضبط، لا بد أن تصبح يوماً كحقائق راهنة عند الأجيال الآتية. ولذلك ينخدع عادة جيل الأبناء بما ينتقل إليهم عن الآباء والأجداد من أضاليل ومفتريات، دون أن يحس ضرورة التثبت من صدق المنقول بالمطابقة على المعقول.

من هنا فإن انتفاضة عمر بوعيده الصخاب، الذي حدثتنا عنه الأسفار، يمكن أن يتشعب البحث عن حقيقتها إلى عدة افتراضات ليس أهونها شأناً كذب خبرها من الألف إلى الياء.



(١) الشيخ عبد الله السبيتي العاملي: «تحت راية الحق».

(٦)

ولا غرابة..

ذلك أن كل ما مر تحت السمع والبصر من شواهد ونذر راحت تعلن تباعاً عن حتمية وفاة الرسول، وما تلاها يوم الهول الأكبر من دلائل وبينات أكدت وقوع هذه الوفاة، عصى - مع ثبوتها - اعتبار موقف عمر التهديدي موقفاً طبيعياً يمثل انفعالاً نفسانياً أصيلاً قد تولد عن شعور تلقائي عفوي أو - بتعبير أوضح - عن «لا شعور».

فالإنفعال صدق، بينما الإفتعال ادعاء..

وإذا كان على المرء أن يسلم بأن وعيد عمر - كخبر مكتوب - قد حقق وجوده بانسيابه عبارات وألفاظاً فوق صفحات التاريخ، فهل هذا يعني وجوب التسليم أيضاً بأنه - كحدث حي - قد حقق وجوده الواقعي، ودبت قدماه فعلاً على طريق الزمان؟..

لا..

فالثبوت بالتدوين لا يعني - بالضرورة - الثبوت بالحدوث.

إذ الأول قد يحتمل الشك، بينما الثاني لا يحتمل غير التصديق..

وما دامت المقدمات ترجع إلى ما يقارب اليقين انتفاء تفجر ثورة التهديد كنتيجة لشعور لا إرادي هو حركة «نفسية داخلية» فإن ذلك الذي قيل بتفجره لم يكن إلا نتيجة لشعور إرادي هو حركة «عضوية خارجية».. أو هو فعل تمويهي ربما انطبعت على صفحته بصمات ابن الخطاب إن كان هو الفاعل، أو آثار من دماء سمعته إن كان هو الضحية!..

وما أيسر التمويه!..

ما أيسر الاختلاق، كما سبق القول، وانتقال المفتريات من الأجيال

القديمة، مدسوسة في رواية تتناقلها ألسن الرواة لتصبح كحقيقة ينخدع بها جيل الأبناء..

ما أيسر أن توضع هذه الفرية أو تلك في رحم إحدى المرويات المدونة لتصبح نطفة مخلقة لا تلبث أن تدرج على صفحات الأسناد المعروفة وكأنها وليدة شرعية من ولائد أحداث التاريخ.

فهل يخالف الصدق في كثير أن يقال إن قصة التهديد قد أتت من سفاح؟..

في خلافة عمر..

بعد عدة سنوات من حادث الوعيد..

وقف غلام حدث بين يدي أمير المؤمنين فتكلم بما لم ينطق بمثله أفصح الرجال ولا أشجع الرجال..

وأعجب عمر بحديث الغلام، متوسماً فيه نبوغاً مبكراً، وقدرة فذة على قيادة الناس، فقال:

«لله در هذا الغلام!.. لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه..».

وكان الفتى: زياد بن سمية..

وكان أبو سفيان حاضراً المجلس، فتاه فخراً بهذا الإطراء.. ولم يستطع كتمان زهوه، فهمس يقول باعتزاز:

«أبت المناقب إلا أن تظهر في شمائل زياد..».

ثم مال إلى أذن عمرو بن العاص، يساره:

«أما والله إنه لقرشي».

فسأله عمرو:

«ومن أبوه؟..».

قال:

«أنا.. لقد وضعته والله في رحم أمه..».

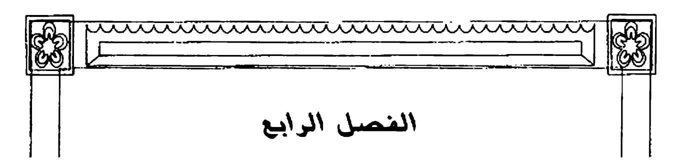
«فهلا تستلحقه؟ . .».

فكان جواب أبي سفيان وهو يشير خفية إلى عمر:

«أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي. .».

ولأمر ما، بعد سنين وسنين، استدنى معاوية ذلك الفتى المغموز النسب المجهول الأب، معلناً على رؤوس الأشهاد شرعية أخوته، مدعياً صحة انحداره من صلب أبيه شيخ الأمويين. .





الفصل الرابع

(١)

ما يقال عن انتفاء وقوع حادث التهديد العمري يفرض وجوده من خلال تلك المقدمات المانعة للوقوع والمتمثلة في النذر والشواهد والبينات، كما سلف التفصيل..

لكنه أيضاً يتمثل في الشبهة التي تغلف رواية من أشهر الروايات التي صورته، وراوية من أشهر الرواة الذين ذكروه، حتى ليبلغ الشك بالمرء إلى المدى الذي يرى فيه ذلك الوعيد وهو مجهول الأصل، مغموز النسب، بغير أب شرعي متيقن، تماماً كزياد..

فزياد قد استلحق بأبي سفيان حين دعت الضرورة والمصلحة معاوية إلى هذا الاستلحاق..

والوعيد. أغلب الظن، قد استلحق بابن الخطاب عندما كان لا بد من تبرير لما بدر، يوم السقيفة، من هذا الفريق من أصحاب رسول الله في حق ذلك الفريق..

فأما التبرير فاللقاء به ليس ببعيد..

وأما الاستلحاق فهو ماثل أمام العيون لمن شاء، عندما يلقي المتفحص بنظرة بصرية وفكرية غير ساهية على السطور وعلى ما بين السطور في ذات الآن..

ففي أخبار السنة الحادية عشرة، يورد ابن جرير الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك:

«حدثنا ابن حميد قال:

«حدثنا سلمة، عن أبي إسحق، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال:

«لما توفي رسول الله ﷺ، قام عمر بن الخطاب فقال:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي.. وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات.. والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات..».

قال:

«وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة. فأقبل حتى كشف عن وجهه. ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال:

«بأبي أنت وأمي.. أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً..».

ثم رد الثوب على وجهه. ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال:

«على رسلك يا عمر.. فأنصت..».

فأبى إلا أن يتكلم. فلما رآه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس. فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر.. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت..».

«ثم تلا هذه الآية:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل..» إلى آخر الآية..

قال:

«فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ.. قال: وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم..».

قال أبو هريرة:

قال عمر:

«والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فتعثرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي.. وعرفت أن رسول الله قد مات..».

والرواية هكذا تتبدى رواية شاهد عيان، حضر بالمدينة وفاة رسول الله.. واليوم الذي توفي فيه النبي، عليه الصلاة والسلام - كما يقول نفس المصدر - «لا خلاف بين أهل العلم بالأخبار فيه أنه كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، من نفس هذه السنة، غير أنه اختلف في أي الأثانين كان موته..».

وأبو هريرة، راوي قصة التهديد هذه، امرؤ من اليمن، من الدوسيين محسوب - كما هو معلوم - في عداد صحابة الرسول..

ذكر أنه أسلم قبل الهجرة النبوية بمكة - وهو بعد بأرض قومه باليمن - على يد الطفيل بن عمرو الدوسي.. كما ذكر أنه إنما أسلم في صفر من السنة السابعة، حين وفد على رسول الله وقد افتتحت خيبر..

ويؤرخ هو لهذا الوفود فيقول:

«أتيت رسول الله وهو بخيبر بعدما افتتحها. فقلت: يا رسول الله، أسهم لي.. فكلم المسلمين فأشركونا في سهامهم..».

وأما صحبته محمداً، فيرى راؤون أنها ثلاث سنوات، لزم فيها رسول الله في حله وترحاله، يدخل بيته، ويحضر مجالسه، طوال المدة من صفر في السابعة، إلى ربيع الأول من الحادية عشرة، مرفوعاً منها ما لعله قضاه بالبحرين منذ رحيله إليها مع العلاء بن الحضرمي في ذي القعدة من السنة الثامنة، بينما يرى آخرون أن الصحبة لم تزد مدتها على عام واحد وتسعة أشهر

محسوبة من تاريخ وفوده على خيبر حتى خروجه إلى البحرين لأنه لم يعد إلى المدينة إلا بعد وفاة رسول الله بسنين طويلة.

فلقد ورد أن النبي، عند منصرفه من الجعرانة بعد أن قسم غنائم حنين، بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي، عامل الفرس على البحرين، وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم.. وبعث معه نفراً كان فيهم أبو هريرة..

عن هذه البعثة يحدثنا أبو هريرة فيقول:

«بعثني رسول الله مع العلاء بن الحضرمي، وأوصاه بي خيراً.. فلما فصلنا قال:

«إن رسول الله قد أوصاني بك خيراً.. فانظر ماذا تحب..».

«فقلت:

«تجعلني أؤذن لك، ولا تسبقني بآمين..».

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها في صحبة النبي، فإنه أكثر من التحديث حتى زاد ما رواه عن رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام، على بضع مئات وخمسة آلاف حديث، فبلغ المسند إليه منها أضعاف جملة ما أسند إلى كل الخلص من صحب محمد اللصيقين بنبيهم، الملازمين له طوال حياته وهم: علي وزيد بن ثابت وأبو بكر وعثمان وابن عوف وطلحة والزبير وعمر وأبي بن كعب ومعاذ وسلمان..



(٢)

والظاهر أن إفراط أبي هريرة في التحديث كل هذا الإفراط قد فتح الطريق واسعاً للتقول على مروياته، وتظليل بعضها - كثيراً أو قليلاً - بالشبهات والشكوك في نظر جماعات من المسلمين من الأولين والآخرين..

ولا عجب أن يمسها الارتياب وتحرم التوثيق وقد ألف الناس، في ذلك العهد المتقدم من حياة الإسلام، أن يروا خاصة صحب رسول الله وتابعيهم لا يكادون يروون عنه، عليه الصلاة والسلام. فإذا رووا فبإقلال أو اعتدال، لأن كثرة الرواية مظنة الوقوع في الكذب أو الخطأ أو التحريف. بل قد كانوا غالباً ما يمسكون عن الرواية تحرجاً وتقية حتى لنسمع أحدهم يقول:

«أدركنا مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله وعليه وسلم ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه..».

وتشدد الصحابة في الحديث، وأمسك كثيرون منهم عن روايته درءاً للمظنات والشبهات، وكراهية التجاوز والانفلات، وانصياعاً لأمر رسول الله الذي أثر عنه أنه قال:

«لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن. فمن كتب عني غير القرآن فليمحه[1]».

ومن المتفق عليه أن عمر رفض ذلك الإكثار من أبي هريرة - كما رفضه من سواه - ونهاه عن التحديث منذراً إياه بالنفي إلى اليمن إن لم يقلع عن ذلك.. قال له:

«لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس..».

وأنذره أيضاً عثمان، في عهده، نفس الإنذار..

بل قد ذكر أن عمر لم يكتف بنهيه وتهديده، واتهمه فيما يرويه:

«أكثرت يا أبا هريرة.. وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله..».

ويكاد الرجل، من بعد، يحمل على الظن بصحة تلك العدوة العمرية عليه.. فلم ينفها النفي القاطع، بل عرف عنه أنه كان يقول:

«إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمن عمر - لضربني بالدرة، أو يشج رأسي..».

وكان يقول للناس وهو يروي لهم عن الرسول:

---

(١) محمود أبو رية: «أضواء على السنة المحمدية».

«أفكنت أحدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي؟.. أما والله لأيقنت أن المخفقة ستباشر ظهري[١]..».

ولا يبعد عن الظن أن يكون بعض ما اشتهر من سلوك أبي هريرة هو الذي أدى إلى عدم توثيق جانب مما كان يرويه الرجل عن الرسول..

فبالإضافة إلى إسرافه في التحديث - على ذلك النحو المتغالي فيه - إسرافاً غير محمود، فلقد غمزه بعض ذاكريه بالكثير من الشبهات..

ذكر أنه تتلمذ على كعب الأحبار، فأكثر النقل عنه، فاستفاضت في مروياته الإسرائيليات والخرافات..

وذكر أنه كان يرفع كل ما يرويه من الحديث إلى النبي وإن لم يسمعه هو نفسه - أو يسمع بعضه - من لسانه عليه الصلاة والسلام..

وذكر أنه كان مزاحاً يتودد إلى الناس بكثرة المزاح لتسليتهم حتى لقد كان يأتي من الأفعال والحركات الغريبة ما يحسب معه كأنه مجنون..

وذكر أنه كان يهذر في كلامه.. والهذر - لغة - هو الخلط في المنطق وكثرة الخطأ والباطل فيه، والهذيان وسقط الكلام.. وقد ورد أن السيدة عائشة قالت فيه:

«... لقد كان رجلاً مهذاراً..».

وذكر أنه كان يبالغ فيما يرويه من الوقائع التي شهدها مبالغة تخرج بها عن دائرة المعقول[٢] وتضعها في نطاق الخيال والخبال..

من ذلك قوله، عند سيره مع العلاء عامل البحرين لغزو زارة ودارين، إنهم انطلقوا حتى أتوا على خليج من البحر ما خاضه قبلهم أحد، ولا يخوضه بعدهم أحد.. وأخذ العلاء بعنان فرسه فسار على وجه الماء وسار الجيش وراءه.

---

(١) محمد عجاج الخطيب: «أبو هريرة راوية الإسلام».

(٢) محمود أبو رية: «شيخ المضيرة أبو هريرة».

ويردف فيقول:

«. . . (فوالله) ما ابتل (لنا) قدم ولا خف ولا حافر. .».

ويقول مرة أخرى:

«دفنا العلاء، ثم احتجنا إلى رفع لبنة فرفعناها، فلم نجد العلاء في اللحد».

ذكر هذا ومثله كثير. . فجرت فيه الألسنة - قديماً وحديثاً - بما لم تجر بمثله في غيره من صحابة الرسول والتابعين وأعلام الرواة بالتجريح. فقيل اتهمه عمر وعثمان. . وراجعته عائشة وحفصة وأم سلمة في بعض ما رواه. . وقيل كذبه ابن عمر، وأنكر عليه ابن عباس وابن مسعود في بعض آخر. . وقيل كان رجال الحديث يتحرجون في النقل عنه. ولا يأخذون من أحاديثه إلا بما كان في وصف جنة أو نار، أو حثٍ على صالح، أو نهي عن شر جاء به القرآن. . وقيل ورد فيه عن أبي حنيفة أنه «كان يروي كل ما سمع من غير أن يتأمل في المعنى، ومن غير أن يعرف الناسخ من المنسوخ». . وقيل وصفته المعتزلة بأنه «مدخول». . وقيل فوق هذا كله إن الإمام علي بن أبي طالب وصفه بأن قال مرة فيه:

«لا أحد أكذب من هذا الدوسي على رسول الله»(١). .



(٣)

وقد اضطربت فيه الآراء. .

فكما اتهمه فريق وثقه آخرون. . والخلاف بين كليهما على حقيقة النظرة إليه ممدود إلى اليوم. ثم إلى الغد القريب وربما البعيد. .

---

(١) محمود أبو رية: «شيخ المضيرة أبو هريرة».

والعجب أننا نسمع الرأي ونقيضه من الألى وصفوه، وجاءتنا رواياتهم المادحة له أو القادحة فيه.. قد نسمع القدح فيه من مادح، وقد نسمع المدح من قادح، فيختلط التكذيب بالتصديق، والشبهة بالتوثيق.

قيل إنه كان أجرأ الصحابة على سؤال رسول الله، فلما سئل ابن عمر عنه:

«هل تنكر مما يحدث أبو هريرة شيئاً؟».

أجاب:

«لا.. ولكنه اجترأ وجبنا..».

وذكر أنه كان يحدث عند باب عائشة وهي تسمعه. ويسألها:

«يا أمه.. أتنكرين مما أقول شيئاً؟».

يقول ابن عباس:

«لم تنكر ما رواه. لكن قالت:

«لم يكن رسول الله يسرد الحديث سردكم..».

على أننا، هنا، لا نحاول التأثير في ميزان التقدير... فليس لنا أن نقف مع أولئك أو هؤلاء.. لا في جانب التكذيب ولا في جانب التصويب لما رواه - كله أو بعضه - هذا الصحابي عن النبي الكريم.. فذاك مبحث آخر وأمر يطول.. ورجال الحديث وعلماؤه هم الأولى بخوض هذا المضمار..

إنما نحاول النظر، نظر استقراء وتأمل، فيما ورد عن أبي هريرة متصلاً بالتاريخ العام، وبتلك الفترة بالذات البادئة بوفوده من اليمن على خيبر وقد افتتحها المسلمون، والمنتهية بوفاة الرسول..

يحكى عن الرجل أنه قال:

«قدمت ورسول الله بخيبر، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين، فأقمت معه حتى مات.. أدور معه في بيوت نسائه، وأخدمه، وأغزو معه، وأحج.. فكنت أعلم الناس بحديثه..».

وكلامه هذا أيضاً، يبين - كما بينت روايته لحادث التهديد العمري - أنه كان بالمدينة يوم وفاة رسول الله.

فهل حقاً كان بالمدينة يوم الوفاة؟..

وهل حقاً شهد عندئذ ابن الخطاب. وسمعه وهو يتهدد القائلين بموت محمد، فروى ما سمعه ورآه؟..

توشك «لا» أن تفرض نفسها كجواب..

فالحقيقة تقول: لا..

الرجل نفسه يقول: لا..

الوقائع أيضاً تقول: لا..

ففي هذه الآونة، كان بالبحرين يعمل بالتأذين، منذ بعثه رسول الله مع واليها العلاء.. ورد الخبر نقلاً عن لسانه، في حديث له - مر بنا - سمعه منه سالم مولى بني نصر، وذكره ابن سعد في «طبقاته الكبرى».. كما رواه أيضاً، بحرفه ونصه، ابن حجر العسقلاني في «الإصابة».

يؤيد هذا أن العلاء بن الحضرمي عمل أميراً لرسول الله على البحرين - كما بيّنا من قبل - وظل عليها حتى متوفاه عليه الصلاة والسلام كما يؤكد تعاقب الأحداث.

ثم عمل عليها عهد أبي بكر..

ثم عمل عليها طرفاً من خلافة عمر..

وفي خلال أعوام عمله هذا، التي امتدت من ذي القعدة في السنة الثامنة إلى السنة العشرين أو الحادية والعشرين، على قول جمهور من المؤرخين.. وإلى السنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، على قول جمهور غيره، ظل أبو هريرة بالبحرين: تلك الإمارة النائية، التي تقع عند خليج فارس، بأقصى الطرف الشرقي للجزيرة.

بل قد ظل بها، طول هذه المدة أو تلك، إذ أقامه ابن الخطاب عاملاً

عليها بعد العلاء . . أو بعد عثمان بن أبي العاص الثقفي، أو قدامة بن مظعون الجمحي اللذين خلفا - أو خلف أحدهما أو الآخر - العلاء . .

فإذا قيل إن بعضهم ذكر أن النبي عزل العلاء واستعمل أبان بن سعيد فبقى عاملاً على البحرين ثم اعتزل إثر وفاته أنفة العمل لسواه عليه الصلاة والسلام، وإن أبا بكر أعاد عندئذ العلاء مرة أخرى إلى حيث كان . . إذا قيل هذا ، فإن عزل العلاء - لو حدث - لم يكن ليعني، بالضرورة، عزل أبي هريرة عن التأذين وليس عمله هذا بعمل ذي بال يمكن أن ينال شيئاً من الاهتمام في حساب الولاية والتأمير . . ثم لم يكن أيضاً ليعني ذهابه إلى مدينة الرسول . .

ذلك أنه لم يثبت، بخبر موثوق، أن الرجل غادر البحرين إلى الحجاز فإلى المدينة، في وقت يتيح له حضور كارثة موت النبي الكريم . .

إنما الثابت أن هذا الصحابي الدوسي، الذي تأرجحت الآراء ببعض رواياته ولا تزال تتأرجح - بين التصويب والتكذيب - قد اتصل مقامه بالبحرين، منذ دخلها مع العلاء، مدة تراوحت، مع اختلاف الأقوال، بين اثنتي عشرة سنة وبين سبع سنوات . .

وإثبات هذا غير عسير . .

ومعالم الصورة الحقيقية لهذه المدة تفصح عنها الأسناد . .

فإلى جوار اتفاق أكثر المؤرخين على أنه ظل بالبحرين إلى السنة العشرين أو الحادية والعشرين حين ولاه أمرها عمر بن الخطاب، فإن العلاء بن الحضرمي كان عاملاً عليها عندما توفي الرسول . . وكان عاملاً عليها عندما اندلعت بها فتنة الردة . . وكان هو عاملها الذي حارب المرتدين . .

عن جانب من الصورة يقول الطبري:

« . . . وكان من حديث البحرين أن النبي ﷺ ، والمنذر بن ساوى اشتكيا في شهر واحد. ثم مات المنذر بعد النبي بقليل وارتد بعده أهل البحرين . . » .

وعن جانب آخر يقول سير وليم موير:

«. . . وتوفي المنذر بعد موت محمد بوقت قصير، فعم العصيان الإقليم. . وفر العلاء. ولكنه بعث مرة أخرى إليه في جيش قوي لإخضاع المرتدين. .».

ويبين الطبري فيقول:

«. . . وخرج (أبو بكر) إلى ذي القصة. . فقطع فيها الجند، وعقد الألوية. . أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً. وأمر أمير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة. . عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد. . ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة. وللمهاجر بن أبي أمية وأمره بالأسود العنسي. . .».

ويعدد من عقد الخليفة لهم الألوية. . حتى يقول:

«. . . وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين. . ففصلت الأمراء من ذي القصة، ونزلوا على قصدهم. . فلحق بكل أمير جنده، وقد عهد إليهم عهده، وكتب إلى من بعث إليه من جميع المرتدة. . .».

وبهذا تكتمل الصورة، على نحو زمني متواكب السياق:

يموت الرسول قبيل منتصف ربيع الأول من السنة الحادية عشرة. .

يموت المنذر بن ساوى، الذي يدين له الإقليم بالولاء على الأغلب في نفس الشهر، ربما بعد وفاة النبي بأيام. .

يهب أهل الإقليم على الأثر، ثائرين على الدولة، مرتدين عن الدين. .

يفر واليهم العلاء إلى المدينة وقد رأى أن لا قبل له بإطفاء الفتنة. .

يجيش أبو بكر الجيوش لضرب الردة في مختلف أنحاء الجزيرة. .

يعقد للعلاء لواء الحرب، ويعيده على رأس جيش قوي، لقتال المرتدة بالإقليم. .

يزحف الوالي بمن معه وبمن استنفر من رجال القبائل الثابتين على الإسلام:

أحداث تترى، يمسك بعضها بذيل بعض في تلاحم واتصال، ليس بين بعضها وبعض مهلة زمنية يمكن أن تسمح لأولئك الخارجين على الله والنظام العام بالتقاط الأنفاس..

وما تنبئنا عنه الأخبار يثبت لنا أن هذه الحروب التي شنت على المرتدين كانت خاطفة، لم تمهلهم غير قليل.. ثم يؤكد أن العلاء بن الحضرمي قد طهر إقليمه من رجس الردة في أشهر معدودات..

فقد ورد، في رواية، أن فتح البحرين كان في السنة الثانية عشرة..

وورد في أخرى، أنه كان في السنة الحادية عشرة..

ويأخذ «موير» بالرواية الأخيرة..

وما يهمنا من هذا كله هو أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لأبي هريرة ليعود إلى المدينة والنبي حي، ما دمنا نعلم أنه كان ملازماً العلاء في البحرين منذ حل بها في ذي القعدة من السنة الثامنة.. وإن لم نستبعد أن يكون قد صحب الوالي أثناء فراره عندما استعان الخليفة على التزود بالسلاح والمال والرجال لقصف الخارجين على الله..



(٤)

أكثر من هذا.. أننا نطالع في مرويات أبي هريرة - منه أو عنه - أن فترة اشتغاله بالتأذين بالبحرين في وقت السلم قد اتصلت - دون فاصل زمني - بفترة اشتغاله التالية في العمل العام..

فقد شهد انفجار عصيان المرتدة بالإقليم.. وشهد حرب الردة به وشارك فيها مشاركة إيجابية ولم يخلد لإيثار السلامة والإنزواء.. وما جاءنا من نبأ وقائع هذه المدة - رواه هو أو رواه آخرون - يؤكد لنا أنه حضر تلك الأحداث، وقص من أخبارها الكثير..

من أنباء هذه الوقائع:

.. .. والتقى المسلمون والمشركون. وخندق الفريقان.. وكانوا يتراوحون القتال ثم يعودون إلى خنادقهم.. فبينما الناس ذات ليلة إذ سمع المسلمون من ناحية المرتدة ضوضاء شديدة. فأرسل العلاء من أتاه بالخبر. فإذا العدو سكارى قد غلب عليهم الشراب.. فاقتحم عليهم المسلمون عسكرهم ووضعوا فيهم السيوف حتى كسروهم وأشاعوا فيهم القتلة إلا من فر منهم ناجياً إلى جزيرة دارين..

ولما سلك العلاء برجاله منطقة «الدهناء» القاحلة، نفرت إبلهم في جوف الليل بما عليها من أزواد.. وأصبحوا لا زاد لهم ولا بعير، فأيقنوا الهلاك في ذلك البلقع اليباب.

لكن العلاء ناداهم، يعيد إلى نفوسهم الطمأنينة:

«أيها الناس، لا تراعوا.. ألستم مسلمين؟.. ألستم في سبيل الله؟.. ألستم أنصار الله؟..».

قالوا:

«بلى»..

قال:

«فأبشروا.. فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم..».

وصلى بهم حين طلع الفجر.. ثم جثا على ركبتيه وجثا الناس ينصبون في الدعاء، مرة فاثنتين فثلاث مرات حتى لمع لهم سراب الشمس. فبعث رائداً من لدنه يرتاد ما تراءى من ذلك اللمعان، فإذا ثمة ماء.. فشربوا واغتسلوا. وما أن تعالى النهار حتى عادت إليهم إبلهم من كل وجه..

يقول أحدهم:

«فأروناها وسقيناها، وكان أبو هريرة[1] رفيقي. فلما غبنا عن المكان قال لي:

---

(١) محمد بن جرير الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

«كيف علمك بموضع ذلك الماء؟..».

فقلت:

«أنا من أهدى العرب بهذه البلاد..».

قال:

«فكن معي حتى تقيمني عليه..».

فأتيت به على ذلك المكان بعينه، فإذا هو لا غدير به ولا أثر للماء..

فقلت له:

«والله لولا أنني لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان.. وما رأيت ماء ناقعاً قبل اليوم».

وإذا هناك إداوة مملوءة..[١]

فقال أبو هريرة:

«... هذا والله المكان. ولهذا رجعت ورجعت بك.. ملأت إداوتي ثم وضعتها على شفيره...».

ومن أنباء هذه الوقائع أيضاً:

... وندب العلاء الناس إلى دارين، لمطاردة أولئك الهاربين. وجمع جنده فخطبهم.. قال:

«إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين في هذا البحر.. وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا.. فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر..».

قالوا:

«نفعل. ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا..».

ودعا ودعوا.. واجتازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً. يمشون على مثل رملة ميثاء[٢] فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل..

---

(١) الإداوة: سقاء من جلد.

(٢) ميثاء: أرض لينة سهلة.

يقول أبو هريرة:

«. . . وما ابتل قدم ولا خف ولا حافر». .

(٥)

ثم يزيد في تأكيد اتصال إقامة أبي هريرة بالبحرين، منذ دخلها مع العلاء في السنة الثامنة إلى ما بعد سنة عشرين، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استشهده على عاملها قدامة بن مظعون حينما اتهم بشرب الخمر، ثم استعمله عليها، بعد عزل هذا الوالي المتهم، في نفس العام. .

والواقع أن انتفاء وجود الرجل بالمدينة عند وفاة رسول الله لا تكاد تعتوره ريبة. .

فإذا كان بعضهم يتخذ من رواية أبي هريرة عن نفسه - القائل فيها بأنه أقام بالمدينة مع الرسول حتى مات - حجة على شهوده الوفاة فهي إذن حجة أحرى بأن تدخل في باب الإدعاء. . ولسنا بهذا نتهم الصحابي الدوسي في صدقه، ولكننا لا نستبعد أن توضع هذه الرواية أو تلك على شفتيه، أو أن تسند إليه مرتبطة بغير أوانها الصحيح. .

ولا نغالي. .

فلقد يرجع الظن فيما تراوح من أقوال أبي هريرة بين التكذيب والتصديق، وبين التشكيك والتوثيق إلى ميل فريق من معاصريه، ثم جماعات من اللاحقين، في بعض مروياته نتيجة لإفراطه في التحديث، ذلك الإفراط المسرف الذي أغرى بالتقول عليه، لأنهم كانوا يرون الإكثار في الروايات عن الرسول لا يبرأ أن يكون مظنه للوقوع في الكذب، وسبيلاً إلى الخطأ والتحريف. .

ومن يدري. .

فربما اتهم لأنه أكثر. . ولأن إكثاره كان التربة الخصبة الملائمة لنمو الاتهام. . إذ أثر عن عمر أنه كان يتشدد على من يكثر الرواية، خشية أن

ينصرف الناس عن القرآن، ويضعوا الأحاديث في غير مواضعها فيقعوا في الخطأ.. وكان يقول:

«اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله..».

ويقول:

«أقلوا الرواية عن رسول الله إلا فيما يعمل به..».

فالإكثار إذن غير محمود.. والمكثر أدنى إلى الإنحراف عن طريق الصواب..

أو.. ربما لأنه سرد الحديث بغير سرد النبي، محرفاً في اللفظ، أو مغيراً في التعبير..

وقد ذكر عن عائشة، فيما مر بنا، أنها قالت:

«لم يكن رسول الله يسرد الحديث سردكم..».

ومن ثم، فلعل سرده المغاير أخذ على أنه تحريف متعمد أو كذب مقصود..

أو.. ربما لأنه لم يحسن النقل، ولم يصب جانب الدقة والإحكام، كما يحدث عادة لأي كلام ينقل من لسان للسان إلى الإنسان.. فلم يعذروه، وأدخلوا خطأه النقلي في نطاق الإدعاء..

أو.. ربما لأنه روي قولاً في واقعة حدثت في ظرف، وروى غيره قولاً في واقعة مثيلة حدثت في ظرف آخر.. فلما لم يتطابق القولان، واختلفت الروايتان، حسب عليه هذا الإختلاف فأدين.. وأحياناً يحمل بعض آي القرآن الكريم على غير المحمل السليم إذا ما أخذ على وجه التعميم، وفصل بين الآية وبين سبب النزول..

ونكرر أننا لسنا بصدد اتهام ولا دفاع، لأن ذلك متروك لعلماء الحديث.

ونكرر أيضاً أن باب الحكم لأبي هريرة مفتوح لمن يرى تصويبه وتبرئة

ساحته.. وكذلك باب الحكم عليه مفتوح لمن يرى اتهامه والطعن فيه..

ومن هنا لا نعجب حين تنطق بعض مروياته بالغريب الذي لا يتفق والطبيعي المألوف.. وحين يطالعنا بعضها بالمحال الذي يخالف كل معقول.

على أن هذا الراوية الدوسي، مهما كان أو قيل فيه.. مهما تزيد وتجاوز، أو بالغ وأمعن في المغالاة.. فالأحرى به، بغير ريب، هو التورع عن التفوه بما عسى أن يظهره في صورة طفل جاهل غرير، وليس اقتراف ما لا يليق بشيخ عارف وقور..

وقديماً قيل: الكذوب ذكور..

ذلك لأن الكلف بصياغة الأكاذيب يكون عادة حريصاً على إتقان التزييف..

أما أن يبدو وإنه لكذوب نساء.. وإنه لغز مأفون، فهذا افتراض بعيد الاحتمال، متعذر الوقوع. فمن كان مثله يصاحب أعاظم الرجال، ويخالط أعلام العلماء، أولى به أن يتكلم بحساب لأنه يدرك أن كل ما ينطق به هو دائماً تحت مجهر النقد والتمحيص.. فإذا نازعته نفسه مرة إلى تلفيق كذبة، حرص على ألا يقدمها مفضوحة، تتكشف للناس على غير استحياء، بل استعان براعة التزييف ليداري سوأتها، ويستر عورتها بشعار ودثار، ورداء وكساء..

لكن أبا هريرة - كما تقدمه لنا الروايات - يبدو من خلال حديثه الذي يحكي لزومه النبي حتى مات، يبدو كجهول نزق، يطلق الكلام على عواهنه، مفلوتاً بلا عيار، غير مبال فتيلاً أخطأ القول أو أصاب.. أم ترى قد فاته أن الذين يحدثهم حديثه هذا قد نسوا أنه حدثهم أيضاً ما علموا منه وجوده بالبحرين عندما توفي الرسول.. ثم حضوره بها حرب المرتدين.. ثم بقاءه هناك بضع سنين.. ثم عمله عليها من بعد والياً لابن الخطاب؟..

ما كانت هذه الحقائق لتفوت الرجل. وما كانت أيضاً لتفوت الناس.

فالحديث إذن - سواء رواه أبو هريرة أو ادعاه عليه غيره - غير معقول لأنه يخالف حقائق التاريخ. .

وأشبه بهذا أيضاً ذلك الحديث المنسوب إليه، في معرض الكلام عن بناء مسجد الرسول. .

روى الإمام أحمد:

. . . وبينما كان المسلمون يحملون اللبن إلى بناء المسجد، ورسول الله ﷺ معهم، رآه أبو هريرة وهو عارض لبنة على بطنه، فظن أنها شقت على رسول الله، فاستقبله قائلاً:

«ناولنيها يا رسول الله».

فقال ﷺ:

«خذ غيرها يا أبا هريرة. فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة. .».

وقد علم الناس أن النبي قد بنى مسجده هذا في سنة[1] هجرته إلى المدينة وأبو هريرة حينذاك بأرض دوس لم يكن قد أسلم بعد، أو - على الأقل - لم يكن قد وفد على الحجاز ولا التقى بالرسول لأن اللقاء إنما تم في السنة السابعة للهجرة. . أفيعني هذا أنه قد شارك في بناء «إضافة» إلى المسجد بعد بضع سنوات من تاريخ إنشائه، وإن كانت كلمات الحديث لا تكاد تؤدي إلا إلى بناء «الإنشاء»؟. .

ألا ما أقدر صفحات التاريخ على الإنفساح للافتراضات، بل للمتناقضات. . وما أكثر مثل هذا التخليط ومجافاة الدقة في روايات الرواة. . فإن رؤى أن أبا هريرة بدا من هذه الرواية وأختها الأخرى كأنه قد شهد وفاة الرسول، فلا مناص من القول بأن قد ادعاها عليه، ومثيلاتها من فواحش الروايات التي لا توافق الحقيقة، بعض أولئك الذين لهم هوى في تزييف الأحداث التاريخية، مستخدمين من الشبهة فيه - بسبب إسرافه في التحديث -

(١) محمد بن عبد الله الزركشي: «إعلام الساجد بأحكام المساجد».

ذريعة لإسنادها إليه.. ثم انتقلت إلينا بعده من خلال مؤرخين لم يتناولوها بالتمحيص..

وعلى أيما جانب تقع تبعة هذه الأخطاء، فإنها وجدت مكاناً لها في المراجع، وأقحمت نفسها على مسيرة الأحداث.

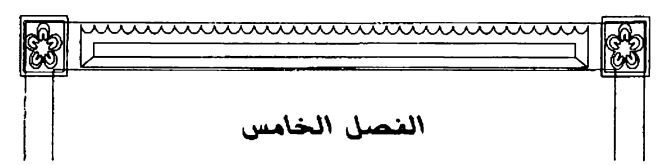
لكنها، لا ريب، خليقة بالتوهين إن لم تكن خليقة بالإسقاط، وخليقة أيضاً بأن تنطق بانتفاء ما ترتب عليها من آثار..

فإذا قيل إن عمر بن الخطاب قد ثار على القوم، وتهدد القائلين منهم بوفاة رسول الله، فمن حق المرء أن يشك في وقوع تهديده ذلك لأنه خبر بني على رواية زيفها ظاهر، سواء أكان التزييف ممن روى أو ممن لعلهم ألصقوا به الرواية..

وإذا قيل إن رواية التهديد وردت من أكثر من وجه، وجرت على ألسنة رواة آخرين، فذلك لا ينفي عنها الشبهة، لأن العبرة ليست بكثرة الرواة.. ومن يدري.. فلعل «صحبة» أبي هريرة وما اشتهر من «جرأته» في التحديث، قد سبقا به غيره من المحدثين فكان لهم رائداً أخذوا عنه وسردوا سرده وإن لم يسندوا إليه ما سردوه..

على أننا لا نقول بأن انتفاء وجود أبي هريرة في المدينة يوم وفاة الرسول دليل على انتفاء وقوع حادثة الوعيد.. إنما نقول بأنه «قرينة» تمثل إضافة أخرى إلى نافيات الوقوع وناقضاته، تزيد من زلزلة بنيان صدقه.. فمن يدعي رؤية حادث وهو غائب عنه، ليس خطأ إبعاده من قائمة الشهود العدول.. ثم لماذا ننسى أن من يتهم بتقوله على رسول الله، لا يبعد أن يتهم بالتقول على عمر أو سواه؟..





الفصل الخامس

(١)

كما يمكن القول بأن التزييف الخبري لحادث التهديد العمري قرينة تشكل بعض التفسير لدخوله صفوف الوقائع التاريخية الحية، فمن المستطاع أيضاً رد ظهوره بين هذه الوقائع إلى خيال الرواة..

ولا غرابة في اجتراء الخيال على الحقيقة مثل هذا الإجتراء..

فالخيال نوع من أنواع التزييف..

وكم لعبت الأخيلة من أدوار في كتابة التاريخ..

وفي واقعة التهديد ليس بمحال أن يكون الخيال قد شاء رسم صورة لها تبرزها في هيئة خبر به من مقومات الإثارة والإبهار ما يسمح بتلاؤمه مع ذلك الجو العام، المختنق بالوجوم، والمشحون بالإضطراب النفسي الناشئ عن الجزع الهالع، والحزن الفاجع، والأسى الخالع التي عاناها المسلمون ساعة وفاة الرسول.. وليس بمحال أيضاً أن تكون قصة التهديد قد سيقت سوقاً للتدليل على فداحة الخطب الداهم، وشدة وقعه على نفوس أبناء المجتمع الإسلامي - وفيهم عمر - شدة حرية بأن تذهب بالصواب، وتهدم اتزان التفكير حتى لقد خبلت عندئذ ابي الخطاب عن عقله وإنه لفي مقدمة أقوى المسلمين شكيمة، وأقدرهم على التصبر، وأثبتهم جناناً في الملمات.

فما بالك بمن هم دونه رسوخ قلب وصلابة عزم وطاقة احتمال؟

ما بالك بعامة الناس؟..

إن هذا التفسير لحادثة التهديد العمري، لا ينافي طبيعة الروايات والرواة..

وهل يبعد بنا عن الحقيقة أن نرانا كثيراً ما نلمس معالم للإبتداع والمغالاة في الروايات. . وأن نحس في المروي ضغطاً وقع على راويته، فمال به عن الدقة أو الصدق مسايرة منه لميل مذهبي، أو خضوعاً لسطوة سياسية؟. .

لقد وصل إلينا تاريخ هذا العصر المتقدم من عصور الإسلام نقلاً من لسان إلى لسان على لسان، وكان المؤرخون الأولون يعتمدون فيما يوردون من وقائع وأحداث، تتصل بهذه الفترة على الرواية الشفوية والخبر المسموع. فإذا علم أن حركة التدوين التاريخي لم تشق طريقها إلى الوجود إلا في وقت لاحق، وفي عهود كان خلالها السلطان السياسي والنفوذ المذهبي كلاهما في ملاك قوى مناوئة لآل محمد وحقهم في الخلافة، شديدة العداء لشيعتهم، منهومة بالبطش بهم، هي الدولة الأموية[١] ثم من بعدها الدولة العباسية[٢] وما تفرع عنهما من ولايات ودويلات. . إذا علم هذا، فليس من التجني والإدعاء أن ترى بعض روايات الرواة موصومة بالإنحراف. .

والتاريخ بالسماع، بالإضافة إلى المعروف من افتقاره للدقة، لا يسلم أن يتلون كثيراً أو قليلاً - ولو من غير قصد - بعاطفة راويته. . ثم بعاطفة ناقله أو ناقليه. . ثم برأيهم، أو برأي بعضهم في أحداثه واجتهادهم في تفسيرها اجتهاداً قد يأتي به مائلاً عن خطه السليم. . هذا فضلاً عما لطول العهد،

---

(١) استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها. واجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره - نور علي - والتحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا مادحيه بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة أو يرفع له ذكراً حتى حظروا أن يسمى أحد باسمه. (ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. الجزء الأول).

(٢) الدارس لسيرة أبي مسلم الخراساني يرى أنها كانت تعتمد على الشعور الشيعي المناوئ للأمويين، والواقع أنه كان يدعو لموالاة أهل البيت. ولكن ما أن وصل العباسيون إلى الحكم حتى انقلبوا على الشيعة، فكان اضطهادهم إياهم أقسى من اضطهاد الأمويين. (دكتور سيد حسين نصر: الإسلام: أهدافه وحقائقه).

وجموح الخيال، وسهو بعض الحفاظ، وتعدد ألسنة النقل من أثر فعال في إصابة الرواية بانتقاص وإسقاط أو تزيد وتضخيم، أو تحريف وتصحيف. .

وقد فطن ابن خلدون إلى ما في طريقة الاعتماد في التاريخ على السماع من مآخذ[1]. . فنبه إليها. ونقدها، وهاجم أصحابها مقرراً أن المؤرخين والخبريين وأئمة النقل، كثيراً ما يقعون عند تدوين الوقائع والأحداث في المغالط والأخطاء بسبب استنادهم في ذكرها على مجرد نقلها بلا تفرقة بين ما تحتويه من غث وسمين، ودون عرضها على أصولها، أو قياسها بأشباهها، أو سبرها بمعيار الدقة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط. . ومن ثم فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين في الأخطاء ونقلها عنهم الكافة من غير بحث ولا ارتياب.

في هذا الإطار، لا يتعذر أن نعثر على عديدين ممن أرخوا لهذه الفترة الإسلامية المبكرة وعرضوا لحادث السقيفة وغيره من أحداث بالرواية أو التحليل أو التعليل، فلا نتعجب حين نجدهم يثبتون في كتاباتهم وقوع التهديد العمري، ثم يثبتون أيضاً، إلى جواره، كل الشواهد والنذر والدلالات التي تنفيه. .

ولماذا نعجب؟ . .

ألأنهم وضعوا أنفسهم في تناقض ظاهر مكشوف وهم يجمعون ضداً إلى ضد، وشتيتاً إلى شتيت من حيث كانوا يريدون أو من حيث كانوا لا يريدون؟ . .

بل إن إعجابنا بتناقضهم ليضاهي عجبنا منهم. . .

ذلك لأنه - في اعتبارنا - التناقض «الطبيعي» الذي لا معدى عن وقوعه في مثل تلك الظروف السياسية والمذهبية الضاغطة على تفكير الرواة وأقلام المدونين. .

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: «دراسات في الحضارة الإسلامية».

ولأنه التناقض «الأريحي» الذي يتطوع بفتح الباب على مصراعيه، واسعاً فسيحاً، أمام العقل وأمام الوجدان، متيحاً لهما دورهما في التأمل والاستشعار ثم التقويم، ومهيئاً السبيل ليضيفا إضافة سخية إلى وسائل البحث تثري التفسير المعنوي للتاريخ. .

ولا تعويل هنا على الثقة في صدق راوية، أو الاعتماد على تواتر رواية، أو الإطمئنان إلى إجماع رأي أو اتفاق رواة. . فهذه وأمثالها جميعاً إنما تعتبر من أدوات التمحيص التي لا تعمل إلا في نطاق مادي ملموس هو نطاق الآثار والنصوص، لأنها الأدوات التي تزن أو تكيل أو تقيس فلا بد لها إذن من محسوس يوزن أو يكال أو يقاس. .

أما التفسير العقلي الوجداني، أو التفسير المعنوي للتاريخ، فإنه يعمل في مجال المعنويات والمجردات. . ويقتضينا، بطبيعته، مطابقة المنقولات على المعقولات في إطار محدد من المشاعر والأحاسيس، ومن النزعات والميول، ومن الاتجاهات السلوكية التي تحرك مسيرتها وتؤثر فيها التيارات الفكرية والقيم الروحية ومقومات الأخلاق. . والتي تسود مجتمعاً من المجتمعات الإنسانية في فترة زمنية معلومة، تتشكل من عجينتها ذهنية أبناء هذا المجتمع ونفسيتهم الكلية على تفاوت - لا ريب - بين فرد وفرد، وطبقة وطبقة، وفئة وفئة، تبعاً لتفاوت الأخلاق، وتباين القدرات، وتغاير الأوضاع واختلاف الهيئات. .

لهذا افترق المفكرون فرقتين على «صدق» انفعال عمر بن الخطاب: فرقة تراه، وفرقة تأباه. .

وكان افتراقهم نتيجة منطقية لرأيين متعارضين. .

رأي يمثل ميل إحداهما إلى الاعتقاد بأن ذلك الانفعال لم يكن حركة نفسية ولا إرادية، بل حركة عضوية مدعاة ما دمنا نسلم بسابقة علم عمر - من خلال مختلف النذر والبينات - بحتمية موت رسول الله.

ورأي يمثل وثوق أخراهما أكمل وثوق بأن عمر، عندما سمع النبأ

الفاجع كان «يظن» - وهذا تعبيره - أن الرسول ما كان ليموت.

والمغالطة الأولى التي يبدو لنا الرأي الثاني وهو ينطوي عليها، ونرى عمر نفسه يكشفها، تطل علينا لحظة أن بادر فبسط كفه لأبي عبيدة محاولاً البيعة له ما أن جاءه خبر اجتماع سعد بن عبادة في السقيفة مع الأنصار..

والمغالطة الثانية التي ينطوي عليها نفس الرأي، تطلع خطمها من خلال مزية لعمر[١] تحسب من أمهات محامده الخلقية ولا تكاد تختلف عليها الآراء.. تلك هي الفطنة التي ترسم الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح فتسيء الظن لأنها تعرف الشرور التي في طبائع الناس، وليس لأنها تستشعر شعور السوء.. فهو معصوم من أن يخدع أو ينخدع لغيره..

كان كما وصف هو نفسه:

«ليس بالخب ولكن الخب لا يخدعه».

وقال عنه المغيرة بن شعبة أحد أدهى ثلاثة في زمانه:

«والله ما رأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمته كائناً من كان ذلك الرجل، كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع..».

هنا يعن افتراضان..

لئن بدر التهديد لأن عمر خال محمداً لم يمت، فكيف نراه حاول البيعة لابن الجراح، ولا بيعة - بداهة - لخليفة والرسول، صاحب الأمر، ما زال عليه الصلاة والسلام حياً بين الأحياء؟..

أم هي بيعة موقوته بأيام، أو بزمن معلوم أو غير معلوم، عمر وحده أوتي علمها دون سواه؟..

وإن جاهر بتهديده ليشغل الناس - حيرة وقلقاً، عن عقد عزمهم على اختيار الأخلق بالأمر بعد الرسول - عسى أن يعود أبو بكر في تلك الأثناء

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية عمر».

ويظفر بالبيعة لنفسه، فقد حق لمن شاء أن يرى تهديده ادعاء. .

أم لم يكن خلقه أولى بأن يجنبه، ويسمو به، عن مقارفة هذا الخداع؟. .

محصلة كلا الافتراضين تأبى تقبل وقوع التهديد. .

فأما وقد ظهر في الأسفار، فلا على المرء أن يقول: إنه - كافتعال - رأي «طائفة» كبيرة من المسلمين تراه. .

ولكن الذي «روى» والذي «رؤى» لا يمنع أيهما الظن بأن فكرة «اصطناع الانفعال» لم تخالج ذهن عمر استناداً إلى تدبير سابق، وإنما كلمعة البرق ما أن علم بنبأ وفاة الرسول، ومن ثم فموقف التهديد جاء عفو اللحظة، عن بديهة حاضرة لماحة طفرت طفراً إلى النتائج قبل انكشاف المقدمات. . أو هو الموقف الطارئ العارض وليس الموقف المقصود المحسوب. .

ظن قد يجوز. .



(٢)

بل هو ظن يستحق التأمل. . لا تناقضه مناقضة حرية خلجات النفوس البشرية في مثل هذه الأحوال. . ولا يعوزه السند في القرائن والشواهد التي لم تخل منها الظروف السائدة في المجتمع الإسلامي، والمؤثرة في مشاعر أبنائه آنذاك. .

فلقد ثبت، بما لا يتطرق إليه الشك، أن المسلمين كافة بالمدينة، وفيهم عمر بن الخطاب، كانوا قد استبشروا خيراً، وهدأوا جاشاً، وقد تبين لهم أن نبيهم العظيم أبل من مرضه، ذلك اليوم الأخير من حياته، حين دخل عليهم المسجد، ساعة الصبح وهو أظهر ما يكون صحة وعافية، حتى لقد افتتنوا به فرحاً، واغتبطوا أجل اغتباط، إذ بدا لهم كأنما هادنهم فيه صرف الزمان،

وتبددت عن قلوبهم الهواجس التي دهمتهم وسودت حياتهم نحو نصف شهر مخافة الفراق . .

عندئذ عاد نور الرجاء يتألق في العيون وأيقن أهل البلدة الحزينة جميعاً أن الحياة عادت سيرتها الأولى : تمشي الهوينى في طريقها الطبيعي المألوف الذي لا تنثر العقبات فيه فجاءات القدر، ولا تبلل ثراه الدموع . .

وعلى أثر شيوع هذا الإحساس بالطمأنينة فيهم، يتقدم أسامة بن زيد، متهلل الأسارير إلى نبيه يستأذنه في الزحف المقدس بجيشه على الشام، انتصافاً للإسلام من صلف الروم، بعد أن تلبث بالكتائب المجاهدة طوال أيام المرض الثقيلة بمعسكره في الجرف لا يقوى على المسير لوجهته ومحمد، عليه صلوات الله، مريض . .

ويستجيب النبي لمطلب قائده الشاب، فيأذن له في الانطلاق إلى هدفه، بجند الإيمان، جهاداً في الله . .

ثم يمثل من بعده أبو بكر بين يدي نبيه، يخاطبه وهو هانىء منبسط الملامح مطمئن الفؤاد لما يراه على المحيا الكريم من علائم الشفاء . .

يقول :

«يا نبي الله . . إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم بنت خارجة . . أفآتيها؟ . . » .

فيلبي الرسول سؤاله، سامحاً له بالذهاب إلى تلك الزوج المقيمة بالسنح، في طرف من المدينة غير قريب . .

ثم يقبل عليه علي وعمر وغيرهما من صحابه يحادثونه ما شاؤوا . ويسألونه ما شاؤوا ليتفرق كل من بعد إلى شأنه، برضا وإذن . وما منهم سوى متطلق الوجه، باسم الثغر، قد انجاب عن صدره وقر القلق، وذهب منه الروع، وفاضت مشاعره هدوءاً وثقة وطمأنينة .

أما المسلمون عامة فقد نشطوا جميعاً إلى أمورهم، وهم على بشر وارتياح بال .

من هذه الشواهد، لا يعسر على ذهن أي متأمل، أن يتبين بأجلى جلاء كيف أن ابن الخطاب - كغيره من المسلمين - لم يكن يعرف، ولا كان ليحدس، أن رسول الله سيلقى ربه، هكذا سريعاً، في نفس ذلك النهار الذي ظهر فيه، عليه الصلاة والسلام، وهو أبعد ما يكون عن المرض، وأدنى ما يكون إلى البرء.. بل أكمل ما يكون صحة وقد عوفي تماماً كأنما أراد الله سبحانه أن يمد له في البقاء..

مناخ نفسي معتدل، لا يلائم النافر الغريب من السلوك بقدر ما يلائم الطبيعي المألوف..

فحين يخرج عمر بتهديده عن نطاق هذاالاعتدال النفسي الطبيعي الذي أضفته حينئذ على قلوب المسلمين علائم الشفاء، وعن حدود العلم اليقيني التقريري الذي غرسته في أرواعهم، قبل ذلك، حتمية الوفاة، فخروجه يماثل اندفاع ريح عاتية تهب، لا كنتيجة لازمة لدورة الرياح العادية، بل بسبب «انخفاض جوي» مفاجئ لم يكن له على الخريطة المناخية مكان..

إن تقبل عمر غائلة القضاء يومئذ بالتسليم، أو بالإستسلام، هو الأشبه بإيمانه، الأليق بالوضع، لأنه السلوك الطبيعي المنتظر.. وتهديده الراعد الثائر هو السلوك النابي الشاذ..

فإذا الرجل جنح، مع استيقانه وفاة الرسول، إلى ذلك التهديد فلا انفعال.. إنما الأحرى تفسير حركته الراعدة هذه بأنها افتعال هول محاولة وليد إرادة أفرزها الوعي المدرك وليس وليد صدمة عصبية تعزز خبلة الذهول.. ومن ثم فإنها الحركة التي «صنعت» لتناسب الموقف، وتأتي في أوانها لكي تشغل الناس حتى يجيء أبو بكر فيظفر بالإمرة وقد شلت تماماً عقولهم عن التفكير فيمن هو أحق بخلافة الرسول..

ومع ذلك هل من وجه للقول بأن عمر - إذ عاجل القوم بالتهديد ثم حاول البيعة لابن الجراح - إنما أراد بما فعل أن ينأى عن شبهة انحيازه لأبي بكر، ويدرأ عن نفسه وصاحبيه مظنة اتفاق رأيهم على الاستئثار لكبيرهم بالخلافة؟..

بل كانت له مندوحة عن هذه الحركات الخداعية وليس بينه وبين ابن أبي قحافة عندئذ غير قيد أنملة لتلتقي كفاهما تعبيراً منه عن الولاء ومن أثيره على قبول الولاء دون أن يلقيا من أحد خلافاً أو مراجعة وأهل البيت مشغولون بهمهم، بعيدون عنهما وعن مسرح الخلاف والاستخلاف. .

بل كيف يفوته أن حركاته تلك إن هي إلا لعبة مكشوفة لا تخفي حقيقتها على نظرة العامة والدهماء فضلاً عن نظرة الدهاة والأذكياء لأنها التمويه الخليق بأن يزري على فطنة المموه وحسن توقيه - وعمر فطن أريب - إزراء يديه كمن ترفع طرف ثوبها لتستر رأسها فلا يكون قصارى فعلتها إلا تعرية سوأتها للناس! . .

(٣)

ثم لماذا لا تكون حكاية التهديد قد حيكت خيوطها بعد مولدها التاريخي «المكتوب» بسنين وسنين؟ . . لكأنها الاعتذار الحري بأن يرد بعض لوم اللوام عن أبي بكر وعمر وابن الجراح حين يبحث باحث في سجل «البيعة الفلتة» عن الحقيقة بين أساطين ذلك العهد وزعمائه بأن يلام. . لكأنها التبرير القادر، من بعد، على أن يفسر للرأي العام الإسلامي وأجياله المقبلة، تفسيراً مقبولاً أو شبه مقبول، تسلل هؤلاء «الثلاثة» لاستلال الإمرة من وراء أظهر آل بيت النبي حين انشغالهم بجهاز جثمانه الكريم. .

إن الصورة التي رسمها التاريخ لا تخفي أن أبا بكر وصاحبيه كانوا على بينة بالخلافة فيمن ينبغي أن تنحصر، ولمن يجب أن تؤول، إن لم يكن استناداً إلى ما سمعوه من لسان الرسول، فبمقتضى فضله وقدمته وارتفاع ذكره بين المسلمين ارتفاعاً شاع وملأ الأسماع حتى لأوشك أن ينعقد حينئذ على أفضليته الإجماع. . كانوا يعلمون أنه الأولى بالأمر بعد ابن عمه العظيم، ثم لم يمنعهم علمهم هذا أن يبادروا إلى ما هو له فتتقبض أكفهم عليه. . وسواء

أفعلوا ذلك عن اختيار أم اضطرار، عمداً وقصداً، أم أكرهتهم الظروف على البدار، فإنهم بدوا في الصورة التاريخية المرسومة - أو على الأقل في رأي الكثيرين - وقد غمطوا ابن أبي طالب حقه المعلوم.. فكيف عسى يدافع أولياؤهم عن هذا السلوك حين تتلاغط به الألسنة وتتفرق حوله الآراء عندما تتكون الفرق الإسلامية، وتتبلور مذاهبها، ويكثر بين أصحابها ويحتدم الجدال والحوار؟..

كيف يدافعون إلا بأن يعزوا ما بدر من «الثلاثة الكبار» يوم بيعة السقيفة من التسلل والاستخفاء والاستلال إلى شدة تدافع الأحداث، وضيق الرقعة الزمنية، وخشية الفتنة، وافتقاد الرؤية، ويسبق كل هذه الأسباب اضطراب الأعصاب ذلك الاضطراب الذي طاش بصواب عمر - وإنه لأقوى صحبة جلداً وشكيمة - فختله عن سلامة التفكير، وحسن وزن الأمور، فكيف ببقية الرفاق والصحاب؟..

هنا لا دفاع إلا الذهول؟..

فلا حرج على ذاهل فاقد التقدير لا يكاد يفرق بين الخطأ والصواب، لأن الذهول ينفي العمدية، ويهدر تبييت النية على مقارفة الفعل الموشوب، ويقدم العقوبة عذراً ينجي من المساءلة والحساب..

هكذا، أغلب الظن، ولدت واقعة التهديد وما تلاها وترتب عليها من أمور..

عمر تخونه أعصابه فيذهل، ويختل عن الصواب فيما يقع تحت وعيه وأحاسيسه من معلوم مرئي ومسموع..

فإذا هاجم الناس بالوعيد فالذهول هو المسؤول..

وإذا خالف الأليق به المنتظر منه فحاول البيعة لابن الجراح فالذهول هو المسؤول..

وإذا استل أبا بكر وحده من بين من كانوا بحجرة الرسول ليسر له مما تعتزمه الأنصار فالذهول هو المسؤول..

وإذا انطلق وصاحبيه إلى السقيفة مغفلاً دعوة علي لاصطحابهم - بل استشارته. . بل مجرد إبلاغه بانطلاقهم ذاك - فالذهول هو المسؤول. .

كل هذا أدنى إلى أن يقال، من قبيل الاعتذار، عن غمط على حقه، أو من قبيل التبرير. .

لكنه القول الذي لا يقال إلا مع التسليم بامتناع حدوث واقعة التهديد. . والامتناع هنا، وإن ساندته القرائن والحجج العقلية كما سلف البيان - لا يرتكز إلى منقول، أو إلى دليل. .

والدليل موجود. .



(٤)

الدليل موجود

إن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم ينقطع خيطه عن الزمان والمكان بل جرى به لسانه عليه السلام.

بل تحدر صيبه - لجلال معانيه وروعة بيانه - عبر الأجيال، يملأ السهل والجبل، ويفيض على البيد والحضر، حتى لقد بلغ «الذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين خطبة، أوردوا على البديهة»[1]

وما نقل عنه ظل «محفوظاً في الصدور مروياً على الألسنة حتى كان عصر التدوين والتأليف فانتشرت خطبه ورسائله في كتب التاريخ والمغازي والمحاضرات. . ».

وحاول كثير من العلماء والأدباء على مر العصور أن يفردوا لكلامه كتباً

(١) تاريخ المسعودي.

خاصة ودواوين مستقلة بقي بعضها وذهب الكثير منها على الأيام. .[١]

إلا أن أعظم هذه المحاولات خطراً، وأعلاها شأناً، وأحسنها أبواباً، وأبعدها صيتاً وشأواً هو مجموع ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي في «نهج البلاغة» وجعله كتاباً «يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وآداب. . يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب. .[٢]».

وقد بدأ الرضى جمع هذا السفر الجليل في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، وانتهى منه في سنة أربعمائة. ولم يذكر ما هي مصادره، ولا ممن استقى محتواه. وإن كان واضحاً أنه نقله عن الجاحظ والمبرد والواقدي وابن جرير وغيرهم آخرين. . أما نسبة ما فيه إلى الإمام علي فكانت على مر العصور والأزمان مثاراً للشك عند العلماء والباحثين، المتقدمين والمتأخرين، الذين لهم هوى في تشويهه والنيل منه، مدعين أن كثيراً من كلامه «محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة. .».

ولا يهمنا الآن دحض هذا الإدعاء. فقد تصدى له من نقضه وبرهن على بطلانه، وكان من بين داحضيه ابن أبي الحديد المعتزلي الذي لا يمكن حمل دفاعه عن صحة نسبته إلى أمير المؤمنين على محمل التشيع والهوى المذهبي المنحاز. . إنما يهمنا أن نقول إنه الإدعاء الذي لو صح لكان خليقاً بأن يضمن «النهج» كلاماً يضيف إلى حق الإمام، ويبرر حججه، عليه السلام، على كل من ناوؤه أو خاصموه عند الاستخلاف أو بعد أن أفضت الإمرة إلى الصديق. .

والذي يدقق النظر في صحائف «الكتاب» لا يجد فيه أثرة انحياز، إنما يعثر في كل ما ورد به من وقائع وآراء، ندت عن لسان الإمام وجرى بها قلمه

---

(١) شرح نهج البلاغة.

(٢) مقدمة الرضى للنهج.

على ما لا يخالف - في عمومه الخط العام للتاريخ، ولا المسيرة الحدثية التي اتفق على استقامة جادتها وانتظام قوالبها جمهور المؤرخين والنقاد تباينت بهم أو تطابقت المذاهب والسياسات. .

فما أكثر ما خاض «الكتاب» في أخبار ذلك العهد المبكر من تاريخ الإسلام. . وما أبلغ ما رسم علي فيه، بريشة الصدق، ما لقي من الناس وجابه به الناس. . وإذا كانت «أزمة الاستخلاف» هي أخطر ما مر به الإمام من مراحل حياته العامة، لبعد أثرها فيه وفي مستقبل الأمة الإسلامية، فمن الطبيعي أن نقع في جانب كبير منه - خطباً كان أو رسائل - على أقباس نور تكشف بأضوائها عن نواح عدة من مواقفه ومواقف معاصريه تجاه ذلك الحدث الخطير:

ويعرض الإمام في «النهج» بالرد وبالنقد لما كان من بعض صانعي الأحداث، التي أوقعت به الضر يوم السقيفة، كلما استطرد به حديث، ودعت ضرورة الحال أو تطرق المقال. . ومن هنا فإننا نجد في كلامه خواطر وأفكاراً، حين تنتظم في سلك، تؤلف خيطاً متسقاً يؤرخ لتلك «الأزمة» أدق تأريخ، ويصور محنة اغتيالهم حقه صورة بارزة المعالم جلية الألوان. . ولا شك في أن أوضح ذلك الكلام وأصرحه هو ما تناول به سلوك الشيخين أبي بكر وابن الخطاب. .

وتتواتر أمام العيون والأذهان تلك المشاهد التي يقدمها أمير المؤمنين في النهج، فلا يفوتنا بها من أزمة الاستخلاف كثير ولا قليل، من الألف إلى الياء. .

كان واثقاً أن خلافته رسول الإسلام هي بديهة البديهات التي لا يختلف عليها اثنان حتى لنسمعه وهم يتعجلونه البيعة له حين انشغاله بالجثمان الطاهر يستمهلهم، وكله يقين:

«هذا أمر ليس يخشى عليه. .».

لكنه يفاجأ بالإمرة تفضي من وراء ظهره إلى غيره. .

فإذا أخذ عليه أنه لو سبق أبا بكر إلى الناس لبايعوه.. دهش لهذا المنطق، وقال:

«أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه ثم أخرج أنازع الناس سلطانه!..».

وإذا سئل عن قومه ما علة دفعهم إياه عن مقام هو الأحق به، قال:

«الأثرة..».

ويعجب بقدر ما يغضب من هذا الذي بدر من أصحاب محمد الأدنين.. ثم يعصف بعمر ومن أرادوه معه على البيعة لأبي بكر. ويقول:

«أنا أحق بهذا الأمر منكم، فلا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي..».

ويجيبه أبو بكر بعبارة قاسية تزري عليه التفافه ودورانه:

«أفسدت علينا أمرنا، ولم تستشر، ولم ترع لنا حقاً..».

ثم يدحض ساخراً.. تلك الحجج التي ساقها الشيخ في السقيفة واحتلب بها الخلافة.

«فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب؟
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب؟».

ولا يعفى عمر من تبعة ما أصابه، حين يلفيه مجداً في مساندة زميله، بل يرميه بأنه إنما أثمن على هذه المساندة.

«أحلب حلباً لك شطره، وشد له اليوم يردده عليك غداً..».

فإذا أتيح له الكشف عن وجه الحق الذي يوارونه خلف خشيتهم الفتنة، وضغط الظروف، لم يتردد في الإعلان عن رأيه على ملأ الناس، حين السقيفة أو بعدها بأعوام، وإن آثر حجب الأسماء مكتفياً بالإيماء..

فلا حاجة للتصريح بمعلوم..

تارة يقول: «أما والله لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلى الطير».

وأخرى يقول:

«يا عجباً!.. بينا «هو» يستقبلها في حياته، إذ عقدها «لآخر» بعد وفاته.. لشد ما تشطرا ضرعيها!..».

ويمضي على هذا النحو الذي يصف حادث الاستخلاف ويؤرخ له فلا يخالف عن حقيقة الوقائع الثابتة ولا عن حقيقة أحاسيسه الممرورة.. ولا يخلو، هنا وهناك، من التعرض لذلك الموقف الغريب «اللولبي» الذي وقفه منه الصاحبان الكبيران أو ضيعا به حقه، أو ابتزاه..

ولعل قمة ألمه عندئذ تتمثل في شكواه إلى رسول الله، وفي استعدائه ربه على من ظلموه.. فلقد استسفر الزهراء في نقل شجوه وشكواه إلى أبيها الكريم، فقال وهو يوسدها مثواها الأخير:

«السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك.. لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة.. أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم. وستنبئك ابنتك بتضافر «أمتك» على هضمها - فأحفها السؤال واستخبرها الحال.. هذا ولم يطل بك العهد. ولم يخل منك الذكر...».

وقال مرة يرفع ظلامته إلى الله:

«... اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من «غيري»..».

والاستطراد في هذه الأقوال وأمثالها يطول. لكن من يتعقب المشاهد التاريخية التي تصاحبها أو تصورها لا يغيب عنه، وهو يخوضها بالملاحظة وإمعان الفكر، أن يراها سلسلة متصلة الحلقات من التهم، خليقة بأن تشكل الدليل «النقلي» على انتفاء حادث التهديد..

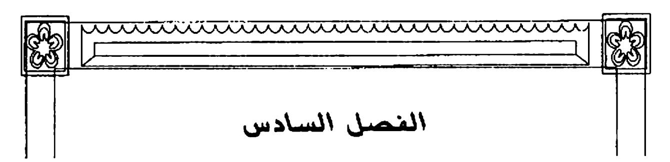
فلقد عاب الإمام موقف الصاحبين يوم السقيفة وسخطه أشد سخط وأفظعه أن أذاقاه طعم العلقم وطعن الحراب.. ولم يكن يلقى الكلام على عواهنه بغير تحرز ولا حساب، مصدراً فيه عن عاطفة ملتهبة أو خرقاء تغالي

في التقدير. إنما ساقه نقداً «موضوعياً» يستند إلى الوقائع الثابتة التي تتعالى على المماراة والإنكار..

وعلى فرط قسوته في لوم الرجلين، واتهامه إياهما اتهاماً صريحاً باستلابهما حقه مخالسة من وراء ظهره، فإننا لا نجده يذكر، فيما ورد من كلامه بنهج البلاغة، عبارة واحدة تشير إلى حادثة التهديد العمري من قريب أو من بعيد.. فلو كان قد فاته ذكر هذه، وإنها لأحرى بالذكر، وأدخل في باب المخاتلة والخداع، وأقدر على تفسيق الوسيلة التي اتبعاها للغلبة عليه، وكشف غلوها في مجافاة أساليب المنافسة الأمينة والنضال الشريف.. لو كان هذا قد فاته، أفكان يفوت أولئك القوم من أتباعه فصحاء الشيعة الذين نسب إليهم أصحاب الهوى أنهم بثوا في النهج كثيراً من كلام محدث هم الألى صنعوه؟..

ما كان ليفوت.. ولو كانت تلكم الحادثة وقعت من عمر - سواء عن انفعال أو افتعال - لما غربت عن ذهن الإمام. ولا غابت من خطبه وكتبه وأحاديثه. ولا نجت من لسانه من ملامة وسخرية وتعزير.. فأما ولم يجر بذكرها في «نهج» أمير المؤمنين قلم على صفحة قرطاس، فذلك لأنه لم يكن لها على خريطة الأحداث يوم السقيفة مكان..





الفصل السادس

(١)

لم يقع من عمر - على الأرجح إن لم يكن على وجه التحقيق - تهديد.. فما كان الخب الذي يموه على الناس بهذا الأسلوب الفج المكشوف، أو الذي يتظاهر بالبيعة لابن الجراح ليغطي ميله لأبي بكر وميله كتاب مفتوح، واضح العبارة منقوط الأحرف لا يمكن أن يخفيه عن نظرة معاصريه مخادعة ولا تمويه..

ولم يقع أيضاً من أبي بكر ما يحمل كبرهان على وقوع هذا التهديد، سواء أتم لحظة اجتماع السقيفة أم قبله في نفس النهار.. ولا عبرة هنا بالاحتجاج بما أورده رواة الأخبار من خروجه إلى الناس من حجرة الرسول وردعه عمر عن وعيده المقول، ثم تحذيره إياهم أن يفتنهم موت محمد عن إيمانهم بالله..

والحق أن ما نسب إلى أبي بكر من قول في ذلك المقام لا يمكن بحال من الأحوال اعتباره برهاناً على وقوفه في وجه التهديد ورفضه انتفاء الوفاة.

إنما هو أدنى إلى أن يفسر لنا تأثره الشديد بما كانت جزيرة العرب قد أخذت تموج به من انتقاضات الردة وحركات الامتناع عن أداء الزكاة إذ انتهزت القبائل عندئذ مرض محمد ثم خلو الميدان السياسي من شخصيته الآسرة لتتحرر من سلطان «المدينة» أو الحكومة المركزية، ولتتحلل من حياة التوحد، للعودة إلى حياة الإنقسام والفوضى والانفلات التي كانت تعيشها قبل الإسلام..

ولم يكن أبو بكر الرجل الذي يقيم حساباته على التخمينات

والافتراضات التي تبتعثها الأهواء والظنون بقدر ما كان يقيمها على حقائق الحوادث وثوابت الوقائع منطلقاً منها إلى استخلاص سليم لكل ما عساها تنضح به من نتائج وعقابيل. . فهو يحسن التقدير. وهو يحكم وزن الأمور، وهو في تلك الآونة كان يعرف من تلكم المستخلصات الكثير. . فلقد سمع وشهد - قبيل موت النبي - كيف أخذت العرب تنكص على الأعقاب وتعود سيرتها الأولى إلى ظلام الشرك بعد نور الإيمان. . كيف ارتد الكذاب: مسيلمة بن حبيب عن الإسلام، فانتقض باليمامة، وكتب إلى الرسول أنه رسول مثله، له حق مشاركته الأمر، ومقاسمته الأرض لولا أن قريشاً قوم لا يعلمون! . . كيف ادعى النبوة ذلك الكاهن المشعوذ: الأسود العنسي عهلة بن كعب ذي الخمار فخرج على الإسلام، وخرج منه، مستقطباً إلى الكفر أكثر أهل اليمن حتى غدت البلاد من نجران إلى صنعاء إلى حضرموت إلى البحرين في قبضة يمينه وقبضة الذين تابعوه على الإدعاء. . كيف وثب طليحة بن خويلد في بني أسد، متسربلاً سربال نبوة جديدة اختلقها شيطانه، فاتبعه أفاريق من بني إسرائيل، واستطار أمره، واجتمعت إليه هوازن وطيء وغطفان. .

كل هذه ومثيلاتها من قواصم الكوارث، قد امتحن بها المسلمون - والنبي ما زال بينهم حياً - أصعب امتحان كأنما سبر الأغوار نفوسهم إلى أي عمق تضرب فيها جذور الإيمان، وعجماً لأعواد عزائمهم إلى أي مدى تستطيع الثبات أمام ما يزلزل اليقين. . فإذا خرج أبو بكر يوم وفاة نبيه العظيم يحدث القوم الذين شهدوا موت نبيه، عليه الصلاة والسلام، فلا لشيء فعل إلا لتثبيتهم أن ينزلقوا إلى التهلكة الروحية انزلاق أولئك الذين لم يشهدوه. . ولا لشيء إلا لتحذيرهم أن يرجعوا القهقرى، نكوصاً على أعقابهم إلى ما كانوا فيه من ضلالة عمياء قبل أن يقودهم محمد إلى طريق الله. .

هذا هو مضمون مسلك الصديق حيال القوم، في تلك اللحظة الحازبة، وقد استوفى النبي في الدنيا أيامه، وأذن له ربه في الرحيل. .

كان موقفه هو الموقف الذي تحتم عليه الأوضاع القائمة اتخاذه ولا

تحتم اتخاذ غيره من المواقف. وكان حديثه هو التحذير الذي يجيء في أوانه اللازم وليس أنسب موعداً من أوانه الذي اختاره، ولا أوقع أثراً في النفوس من معانيه وعباراته.. أما أن يقال إنهما موقف وتحذير اقتضتهما بادرة «ذهول» فردي أخلت باتزان إنسان، فذلك ما لا يكون، وما يفتقر في مجال روية الفكر ودقة الملاحظة وإحكام التقدير - فضلاً عن حقائق الحال - إلى مكان، لأنها بادرة غير ذات خطر، أثرها جانبي تافه لا يمكن أن يبالي به عاقل رشيد أو يتناوله بأي قدر من الاهتمام ومن حوله أخطار وكوارث تهم أن تقضي على الدولة والدين، هي الأجدر، دون شك، باستنهاض يقظة كل مسلم، والأولى - من أي عارض آخر - بالاهتمام كل الاهتمام..

هذا هو منطق الأمور.

وما تؤكده شواهد الحال..

فما كان حديث أبي بكر ذاك للناس، حين مخرجه من غرفة الرسول لإعلامهم فحسب بنكبة الوفاة.. وقد علمها بلا ريب قبله الأكثرون، بل لإنذارهم بأبين نذير أن تنزع بهم الأنفس الأمارة بالسوء إلى مثل ما قارف العرب - إلا الأقل - من صبوء عن الدين قد يغطي بقية جوانب الجزيرة وتذهب به ريح الإسلام.

إن خطر استفحال الردة قد كان وحده المشكل الذي ينبغي، في تلك اللحظات، أن تشد إليه الأنظار، وتشحذ ضده كل الطاقات، وتعبأ لملاقاته بأقسى الضربات كل الجهود والاهتمامات وكل عناصر الكفاح والجهاد، بعد أن تزاحمت بالأفق العربي أشباحه، وهدرت عواصفه، وزأرت رياحه، إنه وحده الذي وجب أن يكون شغل أبي بكر الشاغل الذي يملك عليه كل لبه، وكل قلبه، ولا يدع لغيره من الأمور، جلت أو هانت، أية فرجة - ولو كمثل سم الخياط - تنفذ من خلاله إلى عقله وشعوره، فكره وتدبيره.. أم لم يكن آثر على نفس الشيخ، ونفس كل مؤمن يرعى حق ربه، ويفي بعهد نبيه، ويغار على عزة دينه أن ينشغل عن الدنيا ومن فيها وما فيها بدفع ذلك البلاء الداهم المتمثل في استشراء حركات الردة بين العرب كاندلاع نار عاتية في حطب

جاف منفوط، ذري الاشتعال، من تحته هشيم، ومن فوقه هشيم، بأرض صديانة الأديم، غائضة الماء، في يوم قائظ جهنمي الحرور؟..

بلى قد ساق أبو بكر حديثه ذاك إلى الناس نذيراً لهم أن ينكصوا بعد موت رسولهم على الأعقاب، عائدين إلى جاهليتهم، ناقضين إسلامهم.. ومصداق هذا أنه ذكرهم قول الله:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم..».

لقد كان عندئذ يعايش المحنة العاتية التي كانت تعيشها - حتى لحظته تلك - هذه البقية الماثلة أمامه من المسلمين الذين لم يتنكروا لرسالة السماء.. وكان يعايش، بكل كيانه، طغوى الخطر الماحق الزاحف لسحق الدين الحنيف.. لكأني به يستعيد إلى باله، وإلى خواطرهم، متنزل الآية الكريمة ليجسم لهم سوء المنقلب، ووخامة المآل.. وهل بينهم من نسي كيف حسب كثيرون يوم «أُحد»، أن الإسلام أوشك أن يتردى، عند سفح ذلك الجبل، بهاوية سحيقة القرار؟..

بل إنهم ليذكرون.. فلقد أوشكت الدائرة أن تدور في هذه المعركة على أهل الشرك، ويحرز جند الإسلام نصراً مؤزراً عزيزاً لولا أن رماتهم خالفوا عن أمر نبيهم وزايلوا مراكزهم التي ثبتهم فيها الرسول وحذرهم أن يبارحوها مهما دعت لتركها دواع وأسباب.. وعلى الأثر انكشفت لحركتهم هذه الحمقاء ظهور المسلمين للعدو الجريح المتنمر وسرح عليهم البوار.. وما أشد ما احتدمت حميا الصراع.. وما أسرع ما تفرق، بضغط المشركين، عن محمد أصحابه.. ثم ما أيسر ما وسع ابن قمئة الحارثي أن يرمي النبي بحجر يكسر رباعيته، ويدمي أنفه، ويشج وجهه شجة تثقله.. لكن مصعب بن عمير فطن لذلك العادي الزنيم وهو يخطو إلى رسول الله يروم قتله، فشحذ كثيراً كل يقظته وقدرته معترضاً الباغي، دارئاً ضربته القاتلة عن نبيه، متلقياً دونه، عليه الصلاة والسلام، الحمام..

ويصور الوهم الأجوف، أو الرغبة الخادعة المخدوعة لابن قمئة أن محمداً هو القتيل.. فهل ترى شبه له كما شبه عيسى بن مريم لأولئك الذين سعوا إلى صلبه منذ بضع مئات من السنين؟..

لكأنما هذا كان.. فالعتل الزنيم يستعلي به شركه. ثم تزدهيه فرحته، ثم يتخايل تيهاً وهو يتصايح بين المعسكرين بنصره المظنون، وتتجاوب الآفاق بأصداء هتافه..

عندئذ يزلزل المسلمين خبر الفجيعة المزعومة فيتقطع جمعهم شراذم وتتهاوى منهم العزائم.

بعضهم تشله الهزيمة..

بعضهم يفر من الميدان..

بعضهم يقول وقد انهار يقينه:

«لو كان نبياً ما قتل..».

بعضهم يلقى سمعه مستكيناً لجماعة المنافقين وهي تدعوهم إلى اللياذ بالسلامة:

«إلحقوا بدينكم الأول».

بعضهم يفقد روحه، فينكص على الأعقاب مرتداً عن إسلامه.

بعضهم يستمسك بثباته وهو يسمع أنس بن النضر يناديهم للهجرة إلى الله:

«وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟.. قاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه...».

تلك هي الصورة التي لا بد قد تراءت للعقول والذاكرات يوم الوفاة وأبو بكر يحدث الناس عندئذ محذراً أن يفتنهم موت محمد، ويجرهم إلى الصبوء عن الدين.. إنها الصورة التي ليس أنسب منها لاستعادة الخواطر في هذا المقام.. وهو النذير الذي لا شيء أقدر منه على كبح الأنفس، وتحصينها لتستطيع المصابرة وتجنب ذلك التخلخل الإيماني الذي دفع كثرة كاثرة من

العرب آنئذ إلى التردي في هوة التهلكة الروحية والتقحم في النار.، وهو الحديث الذي ليس أولى من معناه ومبناه بالتقديم والإزجاء كما هو أولى بالاستجابة والإصغاء، وكل ما عداه من أحاديث أحق في هذا الموطن بالإهمال، أو على الأقل بالإرجاء إلى ما وراء الوراء..

أم ترى كان الشيخ يدع هذه البقية من المسلمين تخالف عن أمر الله، فيحق عليها قوله سبحانه، ويحق وعيده: «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً؟..

بل إن موقفه عندئذ هو الموقف الأوجب عليه، الأليق به وبكل غيور على الدين، والأنسب بالظرف القائم وبالحوادث المحيطة التي تنذر بأوخم عاقبة وأوبل مصير. أما أن يرى راء أن قصارى أبو بكر من فعله وقوله، في تلك الآونة الخطيرة، هو ردع عمر، ومعالجة خطأ فردي قارفه رجل واحد، مهما تكن منزلته منه، أو قارفه عدة أفراد، فليست فطنته المشحوذة، وغيرته على الإسلام وحسن تبصرته بعواقب الأمور متهاوية كهذا التهاوي، قاصرة كل هذا القصور..

(٢)

حرص عمر على استخلاف أبي بكر، يتجلى لمن يتقصاه وليد رغبة قوية، عارمة التأثير، تحكمت في إرادة ابن الخطاب، وحددت له مسلكه حتى لتبدو تحت أضواء الظروف القائمة والملابسات المحيطة وإنها لصادقة جاهرة يعلمها جماعة المسلمين، وليست بحاجة إلى التستر والاستخفاء، ولا المواربة والادعاء..

فهي رغبة طبيعية ليس من الطبيعي تحقيقها بطريقة غير طبيعية. دفعه إليها التزامه الخضوع لدوافع عدة ينطق واقع الرجل بما يؤكد أنها تتمثل في سطوة ماضيه، وفحولة إحساسه، وحصافة حكمه، ودقة وزنه للرجال والأمور.

وهي رغبة لا يصعب إدراكها من تصرفاته، كما لا يمكن مؤاخذته عليها ما دمنا نضع في حسابنا ما تمتلئ به النفس البشرية - عادة - من مشاعر الحب والإعجاب والتقدير لشخص ما، أو لشيء ما، حباً وإعجاباً وتقديراً قد تدفعه دفعاً إلى تقديمه وإيثاره على كل من عداه من الأناسي، أو كل ما عداه من الأشياء.

فإذا كانت هناك شبهة افتراض بأن ابن الخطاب لجأ إلى المخادعة ليحقق هذا الإيثار - وهي شبهة كما تبين مرفوضة - فإن علينا الإقرار له بحقه المطلق في أن يعجب بمن شاء، ويؤثر من شاء متى شاء وكيف شاء..

ثم علينا، عدلاً ونصفة، الإعتراف بأن أبا بكر نموذج فذ في الرجال، جدير من عمر ومن غير عمر بالإكبار والإعجاب، وبما هو أكثر من الإكبار والإعجاب..

فلا قدرة من خارج النفس على الانتقاص الإرادي من صولة عاطفة أو الحد من جموحها، ما دامت قد عرفت طريقها إلى التحكم في شعور إنسان..

ولا سبيل إلى التهوين من جبروت الهيبة والإقتدار ما دام كلاهما قد وسعه أن يفرض نفسه ويهيمن على تفكير الآخرين..

وبين التفكير والشعور..

وبين العقل والعاطفة..

بين هذين الطرفين المتباعدين، لا يصعب أن نرى العملاق العمري الصلب العود، القوي الشكيمة، الخشن الطباع وكأنه أخف جسامة، وأقصر قامة، وأوهن بأساً، وأميل إلى الرخاوة حتى ليوشك أن يدخل في إهاب الصديق!..

بين هذين الطرفين أيضاً التقت إرادتان.. إرادة كلا الرجلين أن تكون الخلافة لأولهما الأسن المهزول، الناتئ الجبهة، المعروف الوجه، الشاحب اللون، الذي لم يجتمع له شيء من السمات البدنية المميزة للمردة والعماليق..

على اختيار أبي بكر حرص عمر، عن ثقة فيه، وتقدير له، وإعجاب به.. ثم عن هيبة كان يحسها نحوه، وتفعم قلبه، بقيت معه إلى آخر عمره.. بحسبنا دلالة على هذا الهيبة أن نراها - وقد آل إليه أمر المسلمين بعد موت الخليفة الأول - ما زالت تملك عليه جنانه ووجدانه، وتملأ كيانه، فإذا هو - مخلصاً وبدون مراءاة - يعبر عنها بالنزول درجة من سلالم المنبر لكي يكون، في حساب المراتب المظهرية، أدنى من مرتبة سلفه الكبير..

ولا جناح عليه، ولا انتقاص من قدره أن يفعل. بل إنها لمحمدة تحسب له، وقمة من المآثر المشكورة أن يفي هذا الوفاء لصاحبه في مماته كما في محياه..

ولا جناح أيضاً على الصاحب الأثير إن هو اتجهت نيته إلى موافقة نية رفيقه، واختار الإمرة لنفسه بعد رسول الله..

وهل كان الشيخ ليتأبى على الاستجابة لهذه الرغبة الموالية التي اختصه بها ابن الخطاب من دون الصحابة الأدنين؟..

ما كان، ولا من الطبيعي أن يرفض اليد الممدودة إليه بإمرة المؤمنين.. إنما نراه يخف إلى قبول البيعة المعروضة عليه، ويعلن القبول، لولا كلمات قلائل نطقها تساير الموافقة أكثر مما تساير الإباء..

قيل:

عندما ذهب أبو بكر إلى اجتماع السقيفة، وبلغ من نقاشه مع الأنصار مبلغه، أخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة وهو بينهما، وقال للقوم المجتمعين:

«.. قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم..».

لكن رجليه هذين سارعا وبايعاه.. وتوالت على بيعته بعدهما الأنصار.. ولم يقبض كفه دون أكف المبايعين.



(٣)

القول بأن أبا بكر وقف ساكتاً بلا حراك أمام تعاقب حوادث ذلك النهار، فلم يسمع ليسهم فيها، ولم يحاول الخروج منها إلا بصفقة المشاهد، قول فيه نظر، لا يطابق ما وقع وكان..

إنما الرأي أنه كان له دور كبير في دفع الأمور..

بل كان دوره أكبر الأدوار..

ولا ملامة عليه أن شارك في توجيه مسيرة الأحداث، وسعى جاهداً أو غير جاهد، إلى اقتعاد المركز الذي خلا بموت الرسول.

وقد تختلف النظرات فيما فعله الخليفة الأول، فيراه بعضها مقبولاً، ويراه الآخر غير مقبول حين توضع «الوصية» - بمفهومها المذهبي - في البال..

لكنه بالنظرة الدنيوية، أو البشرية الخالصة، عمل مشروع، ما دمنا - تضييقا لهوة الخلاف الجدلي - نفترض هنا إسقاط الأخذ بالأحاديث..

وهل من غبار على شيخ بني تيم أن يرنو بعين تخيله إلى سدة الدولة الإسلامية، ثم يطمح إلى تسنم ذروتها، ثم يجهد وسعه لتحقيق أربه هذا إن كنا لنضع في حسابنا ما تحسه النفس البشرية عادة من ميل غريزي - ولا نقول من ضعف - إلى الفوز بجاه السلطان إشباعاً لما جبلت عليه من الطموح وحب التفوق والإرتقاء؟..

وهل من ضير على الرفيق اللصيق ابن الخطاب أن يعجب به، ويثق فيه، فيسانده ويمهد أمامه الطريق؟..

إنها لطبيعة البشر..

وأبو بكر بشر..

وعمر أيضاً بشر..

وسبقهما إلى الإسلام، وتمرسهما بأحكامه، وعملهما المستمر بأصوله وفروعه، وصحبتهما المتصلة لرسوله، ما كانت جميعها لتمحو تماماً ما بالطبيعة البشرية في الصاحبين الكبيرين من ضعف إنساني فطري لا حيلة لهما في دفعه، ولا قدرة لديهما على مغالبة ما انطوى فيه من غرائز وعواطف وميول المغالبة التي تستطيع كسر حدته، ثم القضاء عليه، وإن كانت شوكة الدين قد وسعها بلا ريب، أن تتناول نفس الرجلين بالتنقية والصقل والتهذيب حتى لقد لاحتا - للعدو كما للصديق - وهما تشفان شفيفاً كشعاع النور، وترفان كرفيف الزهر في أنداء الفجر. .

إن أي إنسان، مهما كان شأنه، ليتبدى في مرآة الحق المحض، وهو مقيد إلى ميوله الغريزية بخيط قد يغلظ حتى يكون كرسن، وقد يرق حتى يكون كغزل عنكبوت. .

وإن أي سلوك، مهما سما وارتقى بصاحبه، لا يمكن أن يخلو من هنة هنا أو هنة هناك. .

على هذا لا يستعصي القول - وإن انتفى التهديد العمري - إن كتمان عمر خبر اجتماع السقيفة عن آل البيت، وإفضاءه به لأبي بكر وحده من دون كل من كانوا بحجرة الرسول، هو حركة بارعة أنجبتها بديهته اللماحة في اللحظة الحاسمة، أجدت الجدوى كلها عن ابن أبي قحافة، إذ وضعت قدميه على الطريق الوحيد المفتوح الذي ينتهي به إلى الخلافة وامتلاك مقاليد الناس والأمور، سواء أشاء لنفسه أن يتملك أم لم يكن يشاء الامتلاك. .

هذه الحركة العمرية الذكية، التي يرى الكثيرون أنها مفتاح قضية السقيفة، تكاد تؤكد أن عمر - إبان محنة وفاة النبي - لم يكن غافلاً عما يدور حوله، بقدر ما كان واعياً به. . مدركاً لتفاعل الأفكار والعواطف في الأخلاد والنفوس مع الظروف. . بعيد النظرة في عواقب الأمور إلى أبعد الآماد وأعمق الأغوار. . إيجابي السلوك يقابل الحوادث بالعمل الناجز السريع وليس بالمتابعة والانتظار. .

لكأني به، في تلك الأزمة الآزفة، قد نظر بعقله إلى صاحبه أبي بكر فرآه - بنظره العقلاني - أجدر القوم بالخلافة، لأنه الأقدر على الاضطلاع بشؤونها.. ثم نظر إليه بعاطفته فرآه - بنظره الوجداني - أقربهم إلى قلبه من كل الجديرين والقديرين..

في كلا نظرتيه هاتين.. نظرة العقل ونظرة الوجدان، ليس ما يعاب على ابن الخطاب.. ذلك لأنه في تقديمه صاحبه على غيره من أصحاب رسول الله، إنما كان يصدر إما عن رأي، وإما عن محبة.. وفي ميزان المعايرة يستوي هذان الأمران، أو يكادان.. لأنهما ينبثقان من نبع واحد، إن تكن خلاصته قطرات من ذوب الفكر، ففيه كذلك بضع أخريات من ذوب الشعور.. فالرأي تلونه الرغبة.. والرغبة تثيرها المحبة.. والمحبة نبضات قلبية كثيراً ما يعلو جرسها الرتيب المتوالي على صوت العقل، أو يشوش التفكير.. ومن ثم فإن أثر الرغبة في الرأي، وأثر المحبة في الرغبة، أمر ليس إلى إغفاله أو إنكاره سبيل، لأنها حلقات في سلسلة الميول الإنسانية يأخذ بعضها بطرف بعض، أو هي «عجلة» لا مناص من أن تدور..

ونظرة العقل التي يرى - أو حسب - راؤون أنها قد حملت عمر بن الخطاب على الوقوف، في تلك الساعة، إلى جوار أبي بكر، ومساندته أقوى مساندة ليظفر بالإمرة، هي أولى بأن ينظر إليها كرأي غلاب قاهر قد قر في ذهنه بعد أن دارت حبيباته طويلاً في مجال إدراكه الواعي، ثم تقاربت، ثم تجمعت، ثم التأمت كتجمع برادة الحديد والتئامها حول قطب مغنطيس.. فهي إذن التقدير الذي لا يغلبه تقدير، والاختيار الذي ليس بعده ودونه اختيار.. وهي النظرة التي تصبح رأياً ثابتاً عميق الجذور له في عقل عمر رسوخ الحقيقة التي لا تحتمل التأويل فضلاً عن التعديل.. ونصاعة الصدق الصافي الذي لا تغشيه ضبابة ارتياب.. وقداسة الفرض الواجب أو العهد الموثق بالإيمان وبالأيمان ولا فكاك من مقابلته بالوفاء والأداء..

أما نظرة الوجدان فإن تكن قادرة - بطبيعتها - على أن تميل بالبصر بعض الميل، وتكشف أو تخفف أمامه الألوان، فإنها في عمر أحرى بأن

تكون أدنى إلى الاعتدال المحكوم بضوابط القيم التي غرسها في الإسلام. . ومع هذا فلها في قلبه أساس وطيد ثابت الدعائم، قد اعتلته محبته الخالصة الصافية التي اجتبى بها أبا بكر. . تلك المحبة التي غرست بذورها أيام اعتزازهما القبلي. . ثم ترعرعت في صدر الإسلام، ثم بسقت كنخلة فارعة، تضرب بسعفها في جوف السحب، أثناء كفاحهما معاً لنشر ضياء دين الحق على أرض الشرك، وفي دخائل المفتونين آنذاك بأربابهم المصنوعة. . فإذا هي عندئذ محبة كانت وليدة إخاء ومودة وحسن صحبة ورفقة كفاح وسلاح. وإذا هي العاطفة الآسرة ذات الأيد، التي تملك القلب، وتملؤه إلى حافته، حتى ليرتشح بها شغافه، وينضح غلافه، فلا يلبث فيضها أن يتقاطر ثم يتدفق، ثم ينصب كالسيل، ثم لا يملك صاحبها أن يردها إلى دخيلته، أو يحبسها عن الناس، لأن جوارحه كلها تشي بها حتف رغبته فتظهر في لمحة عين، أو همسة شفتين، أو تلألؤ جبين. . ولأن مردها هو القلب بتلقائية خفوقة. ومشيئة القلوب ليست ملك يمين أصحابها، بل هي رهن مشيئة مقلب القلوب. .



(٤)

«العفوية» مع «الفورية» هما أظهر وصف وأقربه إلى صدق التعبير عن سلوك عمر حين أفضى إلى أبي بكر وحده بخبر اجتماع الأنصار، والشيخ مشغول، مع أهل البيت، بجثمان الرسول. . وحين صحبه ورفيقهما الثالث ابن الجراح إلى السقيفة. . وحين انتهى جدل الفريقين إلى البيعة للصاحب الكبير. .

فالعفوية نزوع واتجاه. .

والفورية فعل وتصرف. .

ولا موجب في وجودهما لمسايرة افتراض «عمدية» ذلك السلوك، وقيامه على أساس تصميم قديم سبق موت النبي بوقت قد يحسب بالأيام

وربما بما هو أطول من الأيام كأسابيع أو شهور. . ولا للأخذ بزعم اتفاق الرجلين، أو ثلاثتهم، على تداول الخلافة متعاقبين: الأكبر فالذي يليه، بمجرد ارتحال محمد إلى ربه، وبعد إعدادهم سراً لتنفيذ هذا الاتفاق المبرم في الخفاء بالتسلل لجني ثماره بغير جهد وإعلان، ومن وراء العيون والآذان. .

ولا موجب لهذه المسايرة التي لا بد ستعدو على هؤلاء الرفاق فلا يسلم معها تصرفهم من تشويهه بالشبه وتدنيسه بالارتياب، إذ هي المسايرة التي لا سند لها في الأسفار يدلنا على ثبوت العمد والتدبير. .

ومع ذلك نقول بأن افتراض العمدية فيهم ليس من قبيل «المحال» الذي ترفضه الأذهان بقدر ما هو من قبيل «المحتمل» الجائز الورود، الذي يخضع للمراجعة وإمعان الفكر، ما دمنا نرى أن أي خبر تاريخي مدون له بعده العقلي الذي يبيح تفحصه، ولا يمنع من وزنه منطقياً، ووضعه على نضد التشريح تحت مبضع الحوار. .

وإذن فلا ضير علينا لو أننا جارينا - ولو إلى حين - قول من يقولون بحدوث «العمدية» أو بتعبيرنا الدارج: «سبق الإصرار». .

فهل حقاً فعل الصحاب الثلاثة هذا الذي يقال؟. .

هل بيتوا النية على الانفراد بالفريسة، واقتسامها من وراء الظهور؟. .

هل خططوا، ورتبوا، واستعدوا لتلك اللحظة الحاسمة في تاريخ الإسلام، مستجيشين قدراتهم وحيلهم لاستقبالها - بل لاستغلالها - قبل أن تحين بوقت طويل أو قصير يسمح بإحكام التدبير؟. .

تقول طبائع النفوس البشرية: افتراض «يجوز».

وتقول حرية الرأي، وأصول الجدل المنطقي: «يجوز» حتى يثبت أنه لا يجوز. .

ذلك لأنه الافتراض الذي قد يضع طائفة من الألى يصوبونه أمام المستحيل، أو ما يشبه المستحيل، حين يحاولون الموازنة بين ما فيه من

احتمالات الخطأ والصواب.. الخسارة والرجحان.. الارتياب واليقين،.. إذ هو يدفع إلى التساؤل عن النفع الذي يحصله الرفاق من وراء ما ابتغوا بفعلهم إلا أن يكون كما ارتأوا، وكما قد تعلن شواهد عدة - هو نفع الأمة والصالح العام..

ثم لأنه الافتراض الذي قد ترافقه الدهشة ولا تفارقه، حين نرى كثيرين من المسلمين يرنون بعين الإنبهار إلى الرجلين الكبيرين: أبي بكر وابن الخطاب فإذا هما - أمس واليوم وغداً وإلى آخر الدهر الداهر - يتوسطان هالة نورانية من الإعجاب والإكبار قد رسمها المعروف من عزوف كليهما عن نشب الدنيا ومتع الحياة وسطوة الجاه.. ومن تحل بكرائم الخلال والخصال.. ومن توفر على أداء الجلائل العظائم من الأمور والأعمال.. ومن انتهال من خلق رسول الله ما وسعهما الانتهال.. وكلها يوافق هوى الأنفس التي تحس نحوهما بالإعزاز، ويحرك فيها مكامن الافتتان بشوامخ الرجال، ويمس أوتار الانسياق الغريزي إلى «عبادة» البطولة والأبطال..

على أن الجدير الآن هو تنحية رأي المؤيدين ورأي المعارضين، المعجبين والزارين، لنتفكر فيما عسى قد يوحي به دور الصاحبين - أو الثلاثة - في قضية السقيفة لو أننا أهدرنا «عفوية» التصرف الذي بدر يومئذ من عمر، وأخذنا دونه بالرأي القائل بتبييت النية وسبق الإصرار..

فما هو إذن هذا الإيحاء؟..

ما اتجاهاته، أو انحرافاته؟..

وما الغاية التي إليها يومئ ويقود؟..

لا جواب على كل ما قد يثار، إلا أن يتساءل المرء: أما من مناص من التسليم بأن «السقيفة» في ظل هذا السلوك المفترض توشك أن تلوح في خاطر عمر، وفي خاطر أبي بكر، ثم في خاطر كل من سايرهما على نهجهما إذ ذاك ممن عاصروهما، وممن يتابعونهما إلى الآن، وكأنها ليست، بحال من الأحوال، تلك القضية «العقائدية» التي يستند تنفيذها أو تأييدها إلى منقول من كتاب الله وسنة الرسول؟..

وفي إطار مفهوم هذا التساؤل الذي تشي به بعض بوادر الظروف ومظاهر التصرف، ألا يمكن القول بأن «الخلافة» إذا لم يكن قد نظر إليها كمسألة «دينية» ذات أصول ثابتة في النصوص الإسلامية المقدسة - التي لها جبروت الفرض والإملاء - إنما كانت، في نظرة فكر تلك الأيام، أو في نظرة الصاحبين على الأرجح، أدنى إلى أن تكون وظيفة «سياسية» تعتمد، كأمثالها من الوظائف والنظم الحاكمة، على نفوذ طبقي، أو كثرة حزبية، أو سطوة طائفية، تقوم على أساس الإنتصار لمبدأ أو رأي، لا بد - لكي يحقق ذاته كمثل ما يحدث لغيره من المبادئ والآراء - أن يفرض نفسه فرضاً على المجتمع الذي يعيش فيه، بانتهاج طريق الصراع، أو سبيل الإقناع من أجل كبت الخصوم واجتذاب الأتباع؟..



(٥)

إزاء شواهد الحال، وما قد ظهر لنا - تصرفاً أو قولاً - من سلوك أبي بكر وعمر وأبي عبيدة والذين تابعوهم يوم السقيفة، ألا يحق التساؤل عن مضمون هذا السلوك؟

الواقع أنه يكشف لنا عن النواة التي كانت - وما زالت إلى اليوم - في رأي فريق من المسلمين، هي الأصل الأول للخلافة الإسلامية.. ذلك الأصل الذي يريناها، كأسلوب حكم، مجرد مهمة سياسية، نشأتها بشرية وليست دينية.. ويرينا صاحبها، أو الخليفة كقائم على هذا الأسلوب، مجرد حاكم سياسي سلطانه بشري وليس بديني وإن لم يتجرد من الالتزام بتطبيق شريعة الله..

على أن هذا الرأي، لا ينبغي أن يحملنا على إهدار رأي الفريق الإسلامي الآخر القائل حتى الآن، بأن الخلافة، أو الإمامة، لا تجيء إلا عن «نص» نبوي موحى به، يرتفع بها عن الصفة الدنيوية، ويحصرها، بالقطع، في

أمرئ بذاته لا يجوز أن تعدوه، أو يزاحمه عليها سواه.. ومن ثم فإن الإنصاف يقضي بالموازنة - تاريخياً - بين كلا الرأيين، لنعلم أيهما أسبق نشأة وأحقهما بالترجيح..

فأما وفي الأسناد ما يذكر، صراحة، وصية النبي لعلي.. وفي الأحداث المعاصرة لمستهل عهد أبي بكر، والأحاديث المتبادلة حينذاك بين أصحاب الرأيين، ما يشير إلى هذه الوصية.. فإن التأمل في سلوك الرفاق الثلاثة والذين تابعوهم، خليق بأن يطرح أمامنا هذا السؤال:

أقد ظنوا ذلك «النص» النبوي لم يكن سوى «اقتراح» من النبي عرضه على المسلمين فهو إذن غير ملزم، لهم أن يعملوا به، كما أن لهم أن يعملوا الاجتهاد، ثم لا عليهم لو تركوه؟..

يجوز..

ومع حتمية الالتزام في مثل هذا المقام بالقاعدة المشهورة: «لا اجتهاد في وجود نص» إلا أن تصرف المسلمين كما شهدناه في السقيفة، ثم في البيعة، يضعنا في طريق مسدود لا يفضي إلى غير تصور واحد هو أخذهم تلك الوصية التي بلغتهم من الرسول، أو عنه، على وجه التخيير لا على وجه الإلزام.. ولعل مما قد يتلاءم وتصرفهم هذا بعض ملاءمة، فيسايره أو يفسره، أننا نسمع أبا بكر يخطب الناس، يوم تمت له البيعة، وآل حكمهم إليه، فيقول:

«. . . أما بعد، أيها الناس.. فإني قد وليت عليكم ولست (بخيركم) فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. . .».

ويقول:

«. . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم..».

وليس هذا، بداهة، بكلام امرئ يقوم بمهمة «فوق بشرية» له بها سلطة «فوق بشرية» فلا تخضع لمقاييس النقد والمراجعة البشرية التي - لقصورها -

قد تسند لفعله الخطأ، كما قد تسند له الصواب..

ومع ذلك، فقد ذهب بعض حكام الدولة الإسلامية إلى أن لأوضاعهم الحاكمية قداسة ترقى بأحكامهم فوق رأي المحكومين، وتحصنهم، تبعاً لهذا، أن تنقدهم الرعية، أو تحاول النزوع بهم إلى التغيير انصياعاً للرغبات العامة. ولو أن مثلاً في هذا المضمار، يصح أن يساق، فإن عثمان بن عفان هو الأولى بهذا المساق.. ذلك لأنه يرسم لنا بسيرته، في أخريات سنوات عهده، صورة واضحة للحاكم الذي لا يقبل من الناس التدخل في سلطة له يؤمن بأنها جاءته من فوقهم، وليس التدخل فيها من حقهم.. بل إنه ليأبى الإباء كله أن يراجعوه في شيء يبرمه ورأي يراه. ثم يمعن في الإباء حتى لنجده ينأى عن محاولة تفهم الاتجاهات الشعبية، فضلاً عن مسايرتها والأخذ بها، تمسكاً منه بحق له في الحكم كأنه إلهي إن لم يكن إلهياً، هو به صاحب الكلمة العليا، المنفرد وحده.. دون الكافة - بسياسة الناس والأمور..

وموقف عثمان من رعيته، ومن دفاعه عن حقه الذي لا ينازع، إبان الأزمة السياسية الطاحنة التي أدت إلى مصرعه، موقف معلوم مشهور، ما زال عالقاً بالأذهان إلى الآن..

فحين تفاقمت الأوضاع، وثارت عليه الأمصار، وحاصرته وفودها بالمدينة - بعد إخفاقها بالمفاوضة في حمله على الإصغاء لدعوات التغيير الإصلاحية، ثم إخفاق كل محاولات التهدئة والتوفيق - جاءته تلك الوفود غاضبة هادرة تكرر عليه مطالبتها إياه، بأن ينتصف لها من عماله الذين أساؤوا في ولاياتهم السيرة، ويستبدل بهم آخرين أرعى لحقوق الله ولحقوق عباد الله..

ولا يهمنا هنا أن نبين في أي الصفين كان الصواب: صف الخليفة أم صف الثوار.. ولكننا نقرر أن عثمان لم يقبل ما عرضوه، وقال:

«ما أراني إذن في شيء، إن كنت أستعمل من هويتم، وأعزل من كرهتم..».

وأول ما يفهم من هذا القول أن الخليفة لا يرى للناس، أو لأي فريق منهم، حقاً في دولته يبيحهم التدخل في سياسة الحكم والتعقيب على تصرفاته. . فهو يرفض رأي الوفود الرفض البات الذي لا يترك الباب موارباً للمراجعة أو النقاش، ولا يدع لغيره أي حق في تسيير هذه السياسة، أو تصويبها، أو تناولها بالتغيير. .

واشتد بين عثمان والثائرين الخلاف، ثم اشتعل، ثم تسعر حتى جمح بها غضبها جموحاً أفضى بها إلى التحدي والاستفزاز. فإذا هي تخيره بين أن يكون الخليفة المعزول أو الخليفة المقتول. .

ولم يبال الشيخ التهديد، بل أجاب:

«لأن أقدم فتضرب[1] عنقي، أحب إلي من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله. .».

فإذا لم يكن هذا الرأي لابن عفان يترجم عن نظرة تؤكد «قداسة» الحكم، فأي الآراء إذن يمكن أن يترجم عن هذه القداسة؟. . إنه ليرتفع بسلطته عن مستوى النقد «البشري». . ويمنعها أن يتعرض لها المحكومون بالمؤاخذة أو التعديل. . وإنه لرأي صدوره من عثمان غريب لأنه الرأي الذي لا يوافق بحال «نظرية الحكم» التي يقال إنها غلبت على الفكر الإسلامي السياسي منذ وفاة الرسول، وقام عليها نظام الدولة الإسلامية بوجه عام في مختلف العهود. ، تلك النظرية التي توفر الشرعية للسلطة الحاكمة، متمثلة في الخليفة، بمجرد عقد البيعة له، سواء أولى أمور المسلمين عن طريق «الشورى» أو عن طريق «الوراثة» من الأسلاف. .

إن «العرف السياسي» قد جرى، منذ بدء الخلافة الراشدة، على اعتبار البيعة صحيحة وشرعية ما أن تعقد وإن هي لم تجئ عن «نص» بل بالاختيار الذي ثبت بالإجماع أو بغير الإجماع أنه الطريق للخلافة، أو الإمامة. واستقر هذا العرف، وأصبح مبدأ راسخاً حصن تحصيناً كاملاً لكيلا يمتهنه النقض أو

(١) الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

يعتوره التغيير، فقضى باعتبار الباغين على الأئمة العدول، والخارجين عليهم بشبهة أو بغير شبهة فاسقين، من مات منهم على فسقه حكمه النار، تماماً كالخارجين على علي عليه السلام [١].

وظاهر موقف عثمان من وفود الأمصار حينئذ، ليس موقف من يتمسك بشرعية «بشرية» نتيجة بيعة أفضت إليه من الناس بإجماع أو بغير إجماع، بل هو موقف المؤمن بشرعية «إلهية» لخلافته فليس لأحد في الأمة حق عزله، لأن الذي أعطى هو الله فالذي يأخذ إذن هو الله.

فهلا يبدو الخليفة الثالث، بهذه النظرة، يقترب قرباً شديداً من رأي شيعة علي بن أبي طالب حتى ليوشك لسان الحال أن يجأر بصوت جهير بأن الإمامة - أو الخلافة - لا خيار للناس في منحها كما لا خيار لهم في منعها لأنها فوق ما يملكون؟. . وهل يمكن لنظرة كهذه أن تنشأ من فراغ؟. . أم ترى كانت تشكل جانباً من الفكر الإسلامي السياسي المتداول في تلك الأيام قد علمه ابن عفان، وتأثر به، أو أحب - على الأقل - الانتفاع في أزمته بما أورده ذلك الجانب من الفكر عن الإمامة والإمام؟. .

لكأنما هذا قد كان. . وكأنما كان يخالط الأذهان في تلك الأيام من بين الآراء السياسية رأي يرتفع بالإمامة إلى مهمة «قدسية» أسمى من أن تجيء من الناس عن شورى، أو انتخاب، أو اختيار، إذ هي - في اعتبار هذا الرأي - امتداد طبيعي للرسالة النبوية، يودعها الله من يشاء من عباده. . وإذ الإمام مكلف بها مأمور ممن يملك وحده، سبحانه وتعالى، التكليف والأمر عن طريق «وصية» - أو عهد نبوي - يبلغ بها الرسول التكليف إلى المكلف، ليصدع بما يؤمر، وينهض بما اختص به، ويتولى هذه الأمانة المقدسة فيكون وصي النبي على أمته، وخليفته على أمور دينها ودنياها، ووريثة الروحاني في تعاليمه. . ومن يسلم بأن مضمون وحي السماء، ظاهره وباطنه، لم يؤت علمه كاملاً سوى النبي، لا عليه لو سلم بأنه، عليه صلوات الله، ما كان - بداهة -

---

(١) ابن أبي الحديد فيما أورده عن رأي المعتزلة: «نهج البلاغة».

ليرحل عن هذه الدنيا إلا إن استودع هذا المضمون امرءاً تهيأ بطبيعته لاستقباله وحفظه واستيعابه، وبملكاته، لإدراكه وتفهمه وعقله - كما يقول علي - «عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية» ضماناً لاستمراره في الدنيا على نفس وضعه الأصيل الذي أنزل الله..

فإذن فلا ملامة على من يرى أن عثمان، بقوله ذاك الذي جابه به الثوار، إنما قد خرج بالخلافة من بشرية النشأة إلى قدسية النشأة، وبالخليفة من بشرية السلطان إلى قدسية السلطان.. وهو خروج على العرف القائل بشرعية الشورى أو على نظرية الحكم في الإسلام كما تناقلتها الأجيال.

ومن ثم فإنه يتيح لنا النقلة إلى رأي الفريق الإسلامي الآخر، الذي يقول بأن الخلافة، أو الإمامة، لا تجيء إلا عن «نص» نبوي موحى به، أو هي سفارة من النبي تسمو على الصفة الدنيوية.

ويقتضينا السياق، قبل عرضنا لهذا الرأي البديل، إطافة عجلى ببعض المبدئيات التي نحسها تلقي على ذلك الوجه الآخر من الأضواء والظلال ما قد يجسده أمام الأذهان..

فمن الحقائق الثابتة التي تعتبر من المسلمات، أن الإسلام دين ودنيا، ولا ترخص فيه للفصل بين جناحيه هذين عند التطبيق، ومن ثم فلا سبيل إلى تثنية السلطة الموكولة بالتطبيق، وإلا جاز فيها التثليث أو التربيع أو التخميس أو ما لا يحد من الاستكثار الذي قد يسوق إليه جموح الفكر متستراً بالاجتهاد.. وإلا انقسمت السلطة على نفسها بعدد الجمحات، وتفتتت وغدت عبثاً وملهاة..

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن «التوحد» ظاهرة عامة تتبدى في كل ما يقوم عليه الإسلام - كدين - من جزئيات وكليات..

والصلاة - كمثال - نمط واحد لكافة المسلمين وإن اختلفت بهم الأوضاع والأجناس.. وحركاتها واحدة: قيام كقيام، وركوع كركوع،

وسجود كسجود.. والقبلة واحدة، إليها يتجه جميع المصلين تقاربت مواضعهم، أو تفرقت بين شرق وغرب، وشمال وجنوب..

وبيت ربهم واحد، يسعى إليه الحجيج من كل أقطار العالم.. وزيهم عند الإحرام واحد، كأكفان الموتى، يستوي فيه الكبير والصغير، والغني والفقير..

وصومهم على نسق واحد، وفي ميقات معلوم، لا يتغير نسقه ولا ميقاته من شخص لشخص، ولا من بلد لبلد، ولا من عام لعام..

وكتابهم، قبل هذا كله وفوقه كله، واحد.. لا يختلفون عنه ولا يختلفون فيه، مهما تعددت بهم المذاهب، وكثرت الفرق، وتباينت طوائف الأشياع، وتنوعت ضروب الأتباع..

وإذا كانت ظاهرة «التوحد» تبين لنا بجلاء في جزئيات الإسلام وتفصيلاته، فإنها في أصوله وقواعده أجلى وأظهر.. فهذه الأصول والقواعد قد أرسيت إرساء على التوحيد بشمول معناه.. على وحدة الربوبية الإلهية، ووحدة العبودية البشرية، ووحدة الشريعة التي تنظم العلاقات السوية بين هاتين الوحدتين، وتحمي الإنسان أن يجور أو يزيغ..

فأما وحدة الربوبية فهي توحيد الله بتنزيه ذاته العلية عن التنظير والتشبيه[١]، وعن المشاركة في الخلق والقدرة والملك. وعن مخالطة أحياز الزمان والمكان والظنون، وعن كل ما يمس كيان التنزيه الكامل من أفعال وصفات وأقوال تنزيهاً خالصاً قاطعاً يجل عن الوصف ويعلو فوق تطاول العقول..

وأما وحدة العبودية البشرية، بغير تمييز بين إنسان وإنسان، فإنها تقوم على أساس من وحدة «الفطرة» التي فطر الله عليها الناس أجمعين قبل أن تفسدهم الانحرافات المتسربة إلى النفوس والأذهان من خلال المعتقدات والأفكار، أو العادات والتقاليد، أو تباين الأرومات، أو اختلاف الألوان،

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: «الإمام علي بن أبي طالب».

أو فوارق العنصريات، أو حدود الزمان والمكان. . لأن الفطرة هي العامل الوحيد المشترك بين البشر كافة الذي يتساوون فيه ولا وجه معها لتمييز بعضهم على بعض. . ولأن رسالة الإسلام إنما تنزلت للبشر كافة في كل العصور. . لا لأمة دون أمة، ولا لجيل دون جيل. .

وأما الوحدة الثالثة فتوحيد الشريعة. . فليس الإسلام عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين، أو يهذبها، أو يوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر وفرض من فروض. . لكنه عقيدة وتشريع وإن غلب ظاهره الديني أذهان الناس على حقيقته الكاملة فكادوا - توهماً - يجتزئون بشطر التأله فيه من دون ما عداه. . وكتاب الله يفصح عن وحدة الشريعة، أو الوحدة القانونية التي تربط أحكام الإسلام وتلائم بينها، وتؤكد أن لا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيداً عن «جو» بقية النصوص. . كما تؤكد أن لا سبيل إلى المغايرة قليلاً أو كثيراً في التطبيق بسبب تفاوت أقدار المحتكمين أو المختصين، وتباين عناصرهم، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق، لأن في هذا ما فيه من إجحاف بحق الله، وجور على صالح الجماعة، وإهدار لوحدة القانون. .

تلك هي - بمنطق القرآن - معالم من الوحدة التي أرسى عليها الدين. .

ولأن القرآن الكريم، كتاب الإسلام، واحد، فإنه هو الدستور الثابت للمجتمع الإسلامي دون مغايرة من مكان لمكان، ولا من زمان لزمان. . والشريعة - أو القانون الإلهي - كما احتوتها آياته البينات - هي شريعة متوحدة لا تعرف ازدواجية السيادة. فليس بها سلطة سياسية وأخرى دينية. . ليس بها نظام مدني وآخر روحي. . بل الإسلام دمج السيادة في السياسة والإدارة والإجتماع والإقتصاد في نظام ديني عالمي شامل، شريعته جزء من الوحي لا غريبة[١] عنه. . ومن ثم فالشريعة وحدة مكتملة، تتناول كل جوانب الحياة الإنسانية ومختلف ألوان النشاط البشري بالتنظيم والتقنين، وترسم

---

(١) د. سيد حسن نصر: «الإسلام: أهدافه وحقائقه».

الإطار الأمثل الذي يحدد الصلة بين الرب والمربوب، كما ترسم للإنسان، في نفس الآن، كيف يجب أن يعيش حياته الخاصة والعامة، العادية والروحية على السواء. .



(٦)

ولقد أخذت الجماعات البشرية، على امتداد عمر الدنيا، وحركة التيار الحضاري بأنواع من النظم السياسية. . كانت عقائد بعض الشعوب ترى أن أسلوب الحكم، الذي عليها الخضوع له، إن هو إلا من وضع «القوة الربانية» المالكة لمصاير البشر في المنظور والمستور والمسيرة لهذا العالم بكل من فيه وما فيه. . وكان بعضها الآخر يعتقد أن أسلوب الحكم حق مقدس لهيئة بذاتها تنوب وحدها في الأرض عن تلك القوة المسيطرة، وتستمد منها سلطاناً مطلقاً، لها بمقتضاه الأمر والنهي، وإدانة من تشاء من المحكومين، والغفران لمن تشاء. .

والتاريخ يحدثنا عن الكثير من أمثال هذه الأساليب من نظم الحكم، وما وراءها من معتقدات. .

ففي بعض الدول القديمة، كمصر الفرعونية، نشأت نظرية «الملك الإله» الذي له حق الربوبية على «عباده» أو رعاياه، وعاشت طويلاً في مجال التطبيق. . وواقع التاريخ يؤيد نشأتها ويؤيد أيضاً قيام نظام من نظم الحكم على أساسها تأييداً سندياً ملموساً ربما اختلفت فيه الآراء بعض اختلاف من الوجهة الزمنية التي استغرقتها حياته لا من الوجهة الكيفية التي ميزته عن غيره من النظم والأساليب. ولكن رأياً من الآراء الناقدة لم يستطع نفيه نفياً قاطعاً حتى الآن. . فتحت البصر والسمع ورقة من أوراق البردي، هي بريدة تورين التي عثر عليها في أوائل القرن التاسع عشر، تقدم لنا قوائم أسماء يتبين منها أن مصر، في عهود سحيقة، حكمها عدد غير قليل من «الآلهة» أو الملوك

السماويين، دام حكمهم حقباً طويلة، وكان من بينهم: رع وبتاح وجب وشو وأوزير وإيزه.. ثم حكمها من بعدهم فريق كبير من «أنصاف الآلهة» أتباع حور استمر عهدهم نحو اثنين وعشرين ألف عام[١]..

وما نحسب هذا النظام قد اندثر تماماً باندثار زمنه الموغل في القدم، ولا نتيجة لبلوغ الإنسان سن الرشد الذهني وازدهار تفكيره هذا الإزدهار المعجز في عصرنا الحديث. إنما بقيت لذلك النمط من الحكم حتى عصرنا هذا، مسحة يدلنا عليها أن شعب اليابان، الآخذ بكل أسباب التفوق العلمي، ظل يطلق، على امبراطوره لقب «ابن السماء»..

كذلك يحدثنا التاريخ كيف عاشت الدولة المسيحية في أوروبا خلال العصور الوسيطة في ظل نظام ثنائي تقاسمته سلطتان: سلطة زمنية في يد الملوك، وأخرى دينية في يد الكنيسة. فلما ضعفت أولى السلطتين طغت الأخرى حتى غدت لها وحدها اليد العليا في شؤون الدين والسياسة، وأصبح الأب المقدس: بابا روما، هو الآمر الناهي باسم الرب، تعنو له جباه الملوك والأباطرة والشعوب، يأتمرون بأوامره وينتهون عند نواهيه في أمور دينهم ودنياهم بغير مراجعة ولا تعقيب. يمنح من يرضي عنهم من بركاته وصكوك غفرانه ما يفتح لهم أبواب جنة النعيم، ويحرم من يغضب عليهم رضوانه فيغلق دونهم ملكوت الرب وينزلهم قرار السعير..

ثلاثة ألوان من نظم الحكم تمثل لنا سيادة «فوق - بشرية».. في أولها صاحب السلطة المطلقة هو الإله. وفي ثانيهما ابن الإله. وفي ثالثهما المفوض من الإله.. ولا يهمنا من إيرادها إلا أن تكون بمثابة «النور الأحمر» ونحن نذكر إلهية القوانين الإسلامية حتى لا يشطح بأحد فكره إلى حافة الظن بكهنوتية الحكم في الإسلام، أو الزعم بآلهية الحاكم وعبودية المحكوم..

فنظام الحكم الإسلامي له وجهه البشري حين ينظر إليه من خلال طبيعة الخليفة أو الإمام، وله وجهه الإلهي حين ينظر إليه من خلال طبيعة الشريعة أو

---

(١) د. نجيب ميخائيل إبراهيم: «مصر والشرق الأدنى القديم».

القانون الذي يسود العلاقات بين الله والناس، وبين الناس والناس. .

والخليفة، أي خليفة أو إمام من أئمة الإسلام - ما هو إلا آدمي من البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويعيش كما يعيش البشر، ويموت كما يموتون. . لأن النبي نفسه - على جلال قدره وسمو مكانته عند الله سمواً ليس مثله لأحد سواه - هو أيضاً بشر من الآدميين. . وما من حاجة للتدليل على بشرية الرسول والقرآن الكريم يقطع بهذه البشرية، ويؤكدها كل التأكيد. ويماثل بين محمد، من هذه الوجهة، وبين غيره من الناس. . والتاريخ أيضاً يؤيدها بما تنقله لنا أسفاره من مراجعة المسلمين له، عليه الصلاة والسلام، في بعض الأمور الدنيوية وتفصيلات الحياة اليومية التي لا تقع في نطاق حكم من أحكام الله. . وكم طالما تقبل منهم النبي من الآراء ما يخالف رأيه، أو يعدل فيه، فلم يضق منهم بالمخالفة ولا التعديل، إنما كان يصغي لما يعرضون، يستقبل منهم ويرد عليهم، ثم ينزل أحياناً عندما يشيرون به، عن طواعية منه واقتناع. . بلى إني لعلى يقين أنه عليه الصلاة والسلام، كان يعلم، وهو يبسط لهم بعض رأيه، أنهم لا بد معارضوه فلا يمنعه هذا من بسطه ليعودهم طلاقة المناقشة وحرية التفكير. .

وما دامت النبوة، كما هي حقيقتها، سفارة من الله، فلا غبار على قول من يقولون بأن الإمامة - أو الخلافة - سفارة من النبي لأنه القول الذي لا يوافق. فحسب رأي الرائين بأن محمداً لا بد قد أودع خفايا أسرار علمه امرءاً أهلته طبيعته لهذا الإيداع، بل لأنه القول الحيادي المقبول الذي كما يوافق نظرة الآخذين بمبدأ «الوصية» لعلي[1]، يوافق أيضاً نظرة مخالفيهم الذين

---

(١) وردت فيها أحاديث كثيرة، منها:

حديث العشيرة: عندما نزلت الآية الكريمة: «وأنذر عشيرتك الأقربين» جمع النبي أهله، وعرض عليهم الإسلام، وضمن لمن يؤازره منهم خلافته. فلم يستجب له غير علي. . فقال صلوات الله عليه: «هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي».

حديث المؤاخاة: اصطفاه رسول الله بمؤخاته وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي». =

يرون أن خلافة أبي بكر الصديق إنما جاءت نتيجة «إشارة»[١] من الرسول. .

هذه حقيقة لا شبهة فيها ولا مماراة. .

فلنر إذن في مرآة الأحداث، كيف تتطابق النظرتان، ويتفق المختلفان. .

في كثير من الروايات التي تنقل لنا ما جرى بالسقيفة، نشهد أبا بكر

= حديث الغدير: حين عودة النبي والمسلمين من حجة الوداع. . قام عليه الصلاة والسلام على مرأى ومسمع من عشرات الألوف، فقال: «أيها الناس. . من أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟. .».

قالوا: «الله ورسوله أعلم. .».

«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. . ومن كنت مولاه فعلي مولاه، الله وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيثما دار».

وما دمنا قد أخذنا بعدم الاستناد في هذا البحث إلى الأحاديث، فإننا لم نورد ما أوردناه منها هنا للتدليل، وإنما لمجرد استكمال الصورة التاريخية، وابتغاء انتظام السياق.

(١) هناك بضع إشارات، نوردها أيضاً ضماناً لاستقامة السياق، ودون محاولة لنقدها، أو الأخذ بها، أو المقارنة بينها وبين أحاديث الوصية لعلي. فهذا كله مخالف لطبيعة البحث. . من هذه الإشارات:

تقديمه للصلاة: ورد في «الطبري» عن عائشة أنها قالت: «لما مرض رسول الله المرض الذي مات فيه، أذن بالصلاة فقال: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس». . فقلت: إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق. . فقال: «مروا أبا بكر يصلي بالناس». . فقلت مثل ذلك. فغضب وقال: «إنكن صواحب يوسف. . مروا أبا بكر يصلي بالناس. .».

يقول د. محمد حسين هيكل في «حياة محمد»: «فلما كبر عمر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال: «فأين أبو بكر؟. . يأبى الله ذلك والمسلمون». . ومن هنا ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله.

حديث المخالة: قال الرسول: «إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه، وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده».

سد أبواب المسجد: وأمر - عليه الصلاة والسلام - أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر.

يخاطب الأنصار، فيقول:

«. . . بل منا الأمراء ومنكم الوزراء. . وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين. فبايعوا أيهما شئتم. . . .».

ويأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما . .

تقول الرواية:

هنالك كثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وخيف الاختلاف. . فنادى عمر بصوته الجهوري:

«ابسط يدك يا أبا بكر. .».

فبسط أبو بكر يده، فبايعه عمر وهو يقول:

«. . ألم يأمرك النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟. . فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً».

ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين «أن كانت معبرة حقاً عما ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه». . فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار[1]. .».

وجاء أيضاً في روايات:

«. . وعرض أبو بكر أن يبايع ومن بالسقيفة لأحد صاحبيه: ابن الخطاب وابن الجراح، فأبى الصاحبان. . :

وقال له عمر، وقال أبو عبيدة مثل مقالته:

«لا والله. . لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين الإسلام. فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك؟. .».

(١) د. محمد حسين هيكل: «حياة محمد».

. . . فكأن انتخاب أبي بكر للخلافة هو رأي قريش الذي لا محيد عنه. وهو «نية النبي» التي ظهرت من أعماله وإشاراته[1] . . . . ».

فعلام يدلنا هذا القول من الصاحبين الكبيرين؟ . .

وعلام يدلنا قبول أبي بكر البيعة منهما على أساس - أو في إثر - هذا القول؟ .

وعلام تدلنا بيعة الأنصار في السقيفة لأبي بكر، متابعة على القول، وتأميناً على القبول؟ . .

ثم علام يدلنا مضمون ما ورد من بعد على لسان عثمان احتجاجاً على ثوار الأمصار؟ . .

إنه لتسليم كامل، منهم جميعاً، بأن الخلافة «سفارة من النبي» فهي هكذا خليقة بأن ترى ذات طبيعة إلهية النشأة تسمو بها عن الإرادة البشرية وليس للأمة الحق في منحها من تشاء أو منعها عمن تشاء. .

في ضوء ما سلف، ليس مما يجافي الصواب في شيء الإقرار بأن «الوصية» تصريحاً أو إشارة، وعلى أية صورة من صور التعبير - هي المبدأ الذي كان له اعتباره ووزنه في أذهان المسلمين، وارتكزوا عليه، عند نظرهم في استخلاف من يتولى أمورهم بعد وفاة رسول الله، يستوي في هذا النظر من يعرفون باسم «السنة» ومن يعرفون باسم «الشيعة»، وإن اختلف الفريقان على شخص المستخلف وافترقا عند التطبيق. . وهي المبدأ الذي نهضت عليه - فعلاً - خلافة أبي بكر. . وهي المبدأ الذي قامت عليه أيضاً، خلافة عمر من خلال «وصية» سلفه الصديق. . وهي المبدأ الذي ارتأى الخليفة الثالث التحصن به ضد انتفاضة الثوار. . وما نحسب الذين نادوا بعلي أميراً للمؤمنين بعد مقتل عثمان، إلا قد فعلوا وفي بالهم وصية النبي بتأميره وإن تأخر بها عليهم الزمن، وإن تعلقت عندئذ بجبرية الضرورات التي أملتها الأحداث. .

---

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية الصديق».

من هنا يمكن القول بأن «الوصية» من النبي - على أية هيئة جاءت - إنما كانت منذ وفاته عليه الصلاة والسلام، فكرة مشتركة بين المسلمين. فهي إذن أول نظرية سياسية لنظام الحكم في الإسلام، والأصل الذي لا أصل قبله، ولا أصل غيره، لهذا النظام دون اختلاف على أصالته وسبقه ما عداه من المبادئ والنظريات، بدلالة ظهوره - واقعاً وتاريخاً - قبل الشروع في «انتخاب» أول الخلفاء.. وليس يطعن بطبيعة الحال - في هذا الرأي الذي نرتئيه أن قد اختلف على شخص المستخلف عند التطبيق. ولا أن قد غمي على الوصية، وألقي بذكرها - كمبدأ شرعي - وراء الظهور.. ولا أن ظلت حتى يومنا هذا مثار حجاج وجدال في مجالات البحث والدراسة يتأرجح بها بين النفي والإثبات.. أما «الشورى» التي قيل باستخلاف أبي بكر بمقتضاها، ونظر إليها على أنها الأساس المقرر لاختيار الخلفاء، فإنها مبدأ لاحق مسبوق، لم ينشأ ساعة بدأ الاستخلاف، بل طرأ من بعد على الأذهان. ونحسب القول به إنما شاع، لا من قبيل تقرير الواقع، بل من قبيل تبرير هذا الواقع التبرير الذي يحاول أن يوفر لاختيار الخليفة نوعاً من الشرعية الشعبية بإسناد هذا الاختيار إلى إجماع الأمة، أو - بالمعنى العصري إلى إرادة المحكومين.. وأما «الانتقاء قبل الانتخاب» الذي اختير عثمان عن طريقه، فعلى الرغم من أنه في مضمونه «وصية» فهو مبدأ استحدثه ابن الخطاب، ولم يكتب له في الدولة الإسلامية بعد ثالث الخلفاء بقاء..

لكن هذا كله لا يلبس الحكومة الإسلامية مسموح «الكهنوتية» التي تضع السلطة في أيدي رجال الدين. فليس في الإسلام طبقة كهنة أو إكليروس. وكل مسلم يستطيع أن يقوم هو نفسه بمهامه الدينية دون وصاية عليه من غيره.. والنظام الثيوقراطي الذي يدعي فيه الحاكمون صفة إلهية، لم يعش قط في التاريخ الإسلامي على امتداد رقعته الزمنية وتنوع دوله ودويلاته، لأن القرآن الكريم يمنع الكهانة[1]، ويبطل الوساطة بين الإنسان وربه على نحو

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية الصديق».

ذلك المفهوم الذي عرف قديماً في كثير من البلاد، وبخاصة الأوروبية في العصر الوسيط. .

فإذا قيل إن مرحلة العهد النبوي تمثل لوناً من ألوان الحكم الديني كان الرسول فيه الواسطة بين الخالق والمخلوقين، يتلقى من الله سبحانه، عن طريق الوحي، ما يصرف به أمور المسلمين لخير دينهم ودنياهم في العبادات كما في المعاملات، فذلك لون منفرد بغير نظير، لا في تاريخ الأمة الإسلامية وحدها بل في تاريخ العالم بأسره، لأنه كان مرحلة بناء تشريعي له كماله وشموله، اختزلت فيه كل الشرائع السماوية التي سبقته، جب منها ما جب، وأضاف إليها ما أضاف ليصلح شأن البشرية عامة، ويصلح لشتى الأزمنة والأجناس على خلاف ما كانت عليه الأديان السابقة من اختصاص هذه الأمة أو تلك بدين دون غيرها من الأمم، وهؤلاء الأناس أو أولئك بآخر دون غيرهم من الناس. .

إنما كان نظام الحكم الذي جاء به الإسلام «نوموقراطيا»[1] تطبق فيه أحكام الشريعة - أو الناموس الإلهي - من خلال القائم بالأمر وهو الخليفة، أو الإمام. . ومن ثم فمن الممكن اعتبار عهد علي بن أبي طالب، من الوجهتين النظرية والتطبيقية، هو العهد الذي يمثل، بصورة واضحة الإمتداد الطبيعي للعهد النبوي إن نحن أخذنا بحقيقة أن النبوة سفارة من الله، وبمقولة أن الخلافة سفارة من النبي. . ذلك لأنه العهد الذي توفرت لصاحب الحكم فيه الولاية الشرعية على المسلمين من خلال السفارة النبوية، أو النص، أو الوصية. .

ولا خلاف على ثبوت الوصية من حيث هي، في ذاتها، حقيقة تاريخية سواء أكانت بالعبارة السافرة التي - بنصها الصريح - تراها إحدى طائفتي المسلمين الكبيرتين ترفع علياً إلى مقام الولاية على المؤمنين وتختصه بالخلافة. . أم كانت بالإشارة المعبرة التي تقدم أبا بكر للصلاة وتراها الطائفة

(١) د. سيد حسين نصر: «الإسلام أهدافه وحقائقه».

الأخرى تعني - بمفهومها الضمني - أحقيته بالخلافة.. إنما الخلاف ينصب على المدى الذي يمكن أن يذهب إليه معنى وصية النبي لعلي.. فالكثيرون من مخالفيه يقرون بأنه، كرم الله وجهه، دعا بعد وفاة محمد بوصي الرسول لوصايته، عليه الصلاة والسلام، إليه بما أراده، ولا ينكرون عليه ذلك أو يطعنون فيه. غير أنهم يقولون إنها لم تكن وصية من النبي بالخلافة بل بكثير من المتجددات[١] بعده مما احتواه مكنون علمه، أفضى بها إليه صلوات الله عليه، واستودعه فيها خفايا تعاليمه..

أما الذين يناصرون ابن أبي طالب فيرونها وصية شاملة تحتوي العلم المكنون وتحتوي أيضاً الخلافة لأن النبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي.. فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فإنه يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص على الإمام ليقوم من بعده بالوظائف التي كان على النبي القيام بها سوى أن الإمام لا يوحى إليه..[٢] ذلك لأن انقطاع الوحي بموت المبعوث بالرسالة السماوية يقضي، لا محالة، بضرورة وجود من يستطيع تفسير المضمون الباطني للوحي الذي يخفى على من لم يؤت علمه. ومن ثم فلا بد من إمام يرث الإدراك الواعي لهذا المضمون تبدأ به دائرة الولاية بعد انتهاء دائرة النبوة..

ولقد يجوز في هذا المقام - على وجه من وجوه الإفتراض - أن يظن لعهد أبي بكر أنه كذلك امتداد لعهد الرسول، استناداً إلى تلك الوصية «الإشارية» التي أسلفناها، والمتمثلة في تقديمه للصلاة.. كما قد يظن هذا، أيضاً، لعهد عمر استناداً إلى وصية سلفه له، ما دامت العلاقة بين النبي والإمام، ثم بين الإمام والذي يليه، هي قبل أية خصيصة - علاقة روحية لا علاقة قرابة ورحم.. لكن هذا الإفتراض خليق بأن يوهنه ويخرج به عن خط الاحتمال، أن لم يعلم أن أحد الخليفتين الأولين: أبي بكر وعمر قد أثر عنه -

---

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

(٢) محمد الحسين كاشف الغطاء: «أصل الشيعة وأصولها».

أو عن مناصريه قديماً وللآن - أنه ورث عن النبي علمه الغيبي وتعاليمه المستسرة، وتفسيره الباطني للوحي، فلم يتح لهما تبعاً لهذا - إلا العلم بالجانب الظاهري للشريعة. . تماماً كغيرهما من مجموعة الخلفاء اللاحقين الذين قامت خلافتهم على تلكم النظرية المتمثلة في أن مهمة الخليفة تقتصر على حكم الأمة وتصريف شؤونها العامة، وأن سلطته الدينية تقتصر أيضاً على تنفيذ الشريعة - وهي الوجه الظاهر للوحي - وفقاً لمفهومه أو مفهوم العلماء(١).

على هذا الأساس يتبدى أن الرأي القائل بأن عهد علي - وقد أرسيت فيه مهمته على «نظرية» العلم بجانبي الوحي: الظاهري والباطني، وتطبيق كليهما - هو الرأي الأولى بالاعتبار، والأخلق بأن يصور هذا العهد امتداداً حقيقياً لحكم الرسول. . وهو أيضاً الرأي الذي يمكن أن ينسحب - قياساً - على عهود الخلفاء الآخرين الذين قام حكمهم على هذه النظرية. . ومن ثم فلا غضاضة على من يرى ولو بقليل أو كثير من التجاوز - أن الدولة الفاطمية، ودويلات غيرها كالأدارسة التي ظهرت في الشمال الأفريقي وكانت أول حكم شيعي في الإسلام(٢)، يمكن اعتبارها امتداداً لعهد أمير المؤمنين عليه السلام. . ذلك لأن خلفاءها، أو أئمتها، تولوا حكمها مستندين إلى نفس النظرية، ومستمدين سلطاتهم لحكمها وولايتهم على شعوبها من حق الشرعية الدينية - المتمثل في سفارة النبي أو الوصية - بانتمائهم إلى رسول الله انتماء ولاية روحية قبل انتماء القرابة وصلة الرحم. .

فهل بعد هذا يجوز الإدعاء بأن خلافة أبي بكر كانت خلافة «دينية» على نحو حرفية الوصف الذي أوردناه؟ . .

لا يجوز. .

ولا سبيل للجواز وبخاصة وغير معلوم - كما أسلفنا - أنه احتج، أو

---

(١) د. سيد حسين نصر: «الإسلام - أهدافه وحقائقه».

(٢) د. فيليب حتي: «تاريخ العرب».

احتج من تابعوه إلى اليوم، بالشرعية الدينية لخلافته، ولا بالاستناد إلى نص قرآني، أو إلى حديث صريح..

ولا سبيل أيضاً للجواز بانتسابه «أسرياً أو عائلياً أو عشرياً» إلى رسول الله. فليس الحكم في الإسلام قبلياً، ولا وراثياً يحق بوشيجة الدم، فضلاً عن أنه في هذا المضمار يتخلف عن كثيرين وكثيرين..

الأدنى إذن إلى القبول، والأليق بمنطق الأوضاع والحوادث، أن ينظر إلى خلافة أبي بكر - في ضوء سلوكه يوم السقيفة - على أنها قامت بمفهوم سياسي وعلى أسس سياسية، لا بمفهوم ديني أو على أسس دينية. وأن ينظر إلى سعيه، بمؤازرة صاحبيه حينذاك، إلى امتلاك مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية البازغة على أنه السعي الطبيعي المشروع الذي ينبعث من فهم وصية النبي لعلي على أنها وصية ترشيح تخيرية لا إلزامية.. وأن الخلافة مهمة مدنية لا ينكر السعي إلى الفوز بها على أيما امرئ من المسلمين يرى في نفسه القدرة على الاضطلاع بها ما وسعه اجتذاب المؤيدين والمؤازرين..

فمن هم المؤيدون والمؤازرون؟.. وما هو أساس المؤازرة والتأييد؟..

إلى أية هيئة أو طائفة، أو جماعة ذات «نهج»، أو مبدأ معلن أو مستور، قد استند الخليفة الأول ليحوز إمرة المسلمين؟..

في عصر كذاك لم تكن تعرف فيه «الأحزاب» ذات البرامج السياسية على نحو ما تعرف الأحزاب اليوم، كان لا بد لمن يتطلع إلى الحكم أن يستعين تأييد نوع من «التنظيمات» الشعبية، ويكتل مجموعات من الأحلاف والأتباع، ذوي اقتدار وتأثير، للعمل على تطويع المجتمع للولاء له، وللتحرك رهن إشارته وفي إثر خطاه حيثما يحتم تنفيذ خطته أن يسير. ثم كان لا بد لهؤلاء المناصرين المظاهرين أن يكونوا على بينة بأهداف وليهم ومراميه ليتحدوا، يداً ورأياً ووجهة، على نصرته وتأييده.. يقفون صفاً واحداً، ويشرعون كالسيوف في وجه مناوئيه ومعارضيه.. فإذا بلغ هذا كله مبلغه، فقد زكا الغرس وطاب الثمر، وآن لطالب السلطة القطاف..

فأي الجماعات، أو التنظيمات الشعبية، أو الأحلاف القبلية قد استعانها أبو بكر الصديق؟..

وكيف أعد العدة لتجنيد أفرادها، وتكتيلهم تحت لوائه قوة متماسكة، لتحقيق مبتغاه؟..

ومتى، وأين كان بدء هذا الإعداد، ومن قبله الدعوة إليه وترويج أمره بين الجمهور، إن كان ثمة حقاً إعداد سبقته لا محالة دعوة للإعداد؟.

لا جماعات..

ولا دعوة أيضاً إلى إعداد آحاد وطوائف، أو إلى تجنيد جهود وطاقات..

ولا غاية كانت حينذاك معلومة، وفي حاجة إلى دعوة أو إعداد أو تجنيد..

وليس في هذه النظرة تهويل..

وليس فيها، أيضاً، تهوين..

فاليقين يعلو الظن..

والحقيقة تغلب الإفتراض..

وعندما نجوس بالمراجعة والتقصي، خلال هذه الفترة المبكرة من حياة المسلمين والإسلام نوشك ألا نجد فيها ما لعله قد ينقل جواب أمثال هذه الاستفسارات من جانب النفي وإلى جانب الإثبات.

نوشك ألا نرى في الأسناد التاريخية شيئاً عنها، إلا أن يكون صفحة، أو بضع صفحات بيضاء.. فإن رأينا فبضعة أسطر لا تغني عن الحق أيما غناء..

ذلك أن كل ما يتردد في هذا المجال من روايات وأقاويل، يكاد لا يبيح غير القول بأن طوائف الجموع الوالهة التي شهدت بالمدينة ذلك اليوم الأسود العبوس - قل بعضها نفراً أو كثر - قد نثرها وطواها الهول ساعة أن علمت بوفاة الرسول، فتفرقت شوارد، أو تجمعت شراذم، هامت هنا أو هناك.. هذه منها تلوذ بمكان، وتلك بمكان.. بجانب هذا الصاحب من أصحاب رسول الله، أو بجانب ذاك.

فهل من العجيب أن يتشرذم المسلمون يومذاك مجموعات مجموعات بعضها يلوذ مع ابن الخطاب بمسجد الرسول. . وبعضها يلوذ بدار محمد أو بدار فاطمة مع علي بن أبي طالب وصفوة من آل البيت والصحابة المقربين. . وأبعاض عدة، غير أولئك وهؤلاء، ينتشرون كمثل الطير، سرباً سرباً، كأنما قد راحوا ينتجعون، على أديم المدينة الحزينة، أكناناً لأنفسهم ومجاناً بين الطوائف المبعثرة من الأنصار والمهاجرين؟.

وهل من وجه لتحميل التقاءات تلكم المجموعات أو الشراذم من المعاني فوق ما تطيق ظناً بأن كل التقاءة منها إنما جاءت وليدة تدبير عامد. . قامت به، ونسقته بدءاً ونهاية، قبل يومهم ذاك، دعوة حاثة محرضة أو أخرى لاوية مثبطة. . وسبقه نهج مرسوم معلوم، وإعداد محكم دقيق، شقاً أمام المجموعة طريق التطبيق؟. .

لا. .

فلا عجب ولا عجيب إن تمزقت كتلة الناس، كتمزق طمأنينة النفوس، فإذا هم قد تناثروا، إبان ذلك الهول مزقاً: بضعة بضعة، ورهطاً رهطاً، وزمرة زمرة، وفرقة فرقة. . لا يكاد يجمع بين بعضهم وبعض سوى جوى القلوب. .

ولا وجه أيضاً لتحميل تلك الالتقاءات العارضة غير ما يفيد معنى الالتقاء مجرداً كل التجرد من الأهواء. . لأنه لم يكن ثمة مجال لحدوث تدبير. .

إنما الذي يعلو فوق مرتبة الشك ليبلغ مستوى اليقين، هو أن التقاءات القوم، أو اجتماعاتهم هذه، قد جاءت بوحي من اللحظة المباغتة. . عفواً جاءت. بلا ترتيب، وبلا استعداد. .

فما التقى أفراد شرذمة منهم إلا على حيرة وأسى والتياع. .

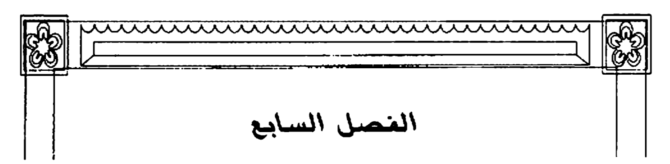
وما ضمت طائفة من طوائفهم في وفاضها غير أناس رجتهم الكارثة رجاً عنيفاً، فقوضت بنيتهم، وأطاحت بهم كصرح تهاوى فانهار، فإن انضم منه شيء إلى شيء فكومة من حجارة منقوضة. . إن آحادهم حقاً التأمت عندئذ

مجموعات، لكن كل مجموعة منها لم تكن، في حقيقتها، غير تكدس لا إرادي، هو أدنى إلى «التجمع» منه إلى «الإجتماع».

كلها تجمعات..

نعم، فيما هو أوفق بطبيعة الوضع إذ ذاك، كانت كلها تجمعات عشوائية، هام أفرادها على غير هدى. وسعوا إلى غير مأرب. والتقوا على غير موعد معلوم.. بلا قائد التقوا، فكلهم مقود. يحركهم، مغمضي الوعي، سلوك جمعي غامض، يتدفق في أوصالهم تياره الكاسح تدفق نهير هدار مأتاه مجهول، فيدفعهم قدماً إلى حيث شيء لأنقاضهم أن تتراكم على نحو ما تدفع الحركات العشوائية المئات والألوف في مثل هذه الظروف..





الفصل السابع

(١)

دافع مجهول هو الذي انتظم في سلكه أولئك الأفراد الذين ترنح بهم أساهم فإذا هم عندئذ جماعات أشتات، تفرقت هوى واتفقت حيرة، كأنهم أرتال نحل دهم خليتها داهم، فراحت تفر من هلع، وهي لا تدري إلى أين تضرب بأجنحتها الصغيرة، وإن كانت غريزتها تسوقها إلى ملاذ..

وما كل دافع بهاد..

ولا كل ملاذ بآمن..

ولا كل تجمع ببريء..

ومن ثم فإن من الروايات ما يشير إلى أن السلوك «العشوائي» الذي تمخض عن تلاقي آحاد أهل المدينة في مجموعات، ما لبث أن تحول إلى «تدبير» أو ما هو أقرب إلى التدبير..

ذلك أن نصوصاً تاريخية غير منكورة، تؤكد بالإيماء والتلميح - إن لم يكن بالمجاهرة والتصريح - أن من تلكم التجمعات العفوية الآلية، ما قد بدا كأنما وطد العزم، وعقد النية على الإنتظام في اجتماعات راشدة عامدة، ذوات خطط ومناهج، لها مآرب وأهداف.

والرأي الذي ترويه لنا هذه النصوص، أو توحي به، يكاد يغرس في الأذهان أن كثيراً من المسلمين ما أن ثابت منهم القلوب بعض ثوبان، وقرت النفوس بعض قرار - وقد خفت عنهم غواشي الذهول - حتى تفرقوا تفرق العارفين بوجهة الخطأ ونقلات الأقدام.. تماماً كتفرق كتائب الجيوش

وسراياها انتشاراً على ساحة المعركة، لتتخذ مواقعها للدفاع أو للهجوم. .

فلقد تآلف آحادهم طائفة طائفة، على امتداد بقاع المدينة ونواحيها، كل طائفة منها تفردت بما أشجاها. . تآلفوا ثلاث طوائف كبيرة رئيسية مختلفة الميول. . فإذا حي من الأنصار ينحازون إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. . وإذا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وآل رسول الله يعتزلون في بيت فاطمة. . وإذا المهاجرون ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، ينحازون إلى أبي بكر الصديق.

فإن يكن القول الذي تسوقه هذه الروايات يبدو كأنه ينافر عشوائية «التجمعات» فإنه لا يلغيها كل الإلغاء. . وإن يكن يبدو كأنه يؤازر تدبير «الإجتماعات» فإنه لا يؤكده كل التأكيد. لكنه على الحالين، يمثل العلاقة الزمنية التي تحكم وقوع العشوائية ووقوع التدبير سواء بسواء. . فهو يقدم لنا تلك العشوائية، ثم لا يلبث أن يلحق بها هذا التدبير بعد قليل، فإذا هما يلتقيان في نفس نهار ذلك الإثنين الأغبر الأسيف. . وهو هكذا يشهد أن موعد انتظام تلك التجمعات العفوية يوم وفاة الرسول العظيم في «اجتماعات» - ذوات قيادات قادرة، وخطط محكمة، ومآرب محسوبة مبرمة قر عليها القرار - إنما تم في أعقاب عودة أبي بكر إلى المدينة من عالية السنح ثم توليه نعي محمد إلى المسلمين، بعد أن سارع إلى ما ذكر عنه من زجره عمر بن الخطاب زجر زار مترفق لكي يرده عما زعمت الروايات عن اندفاعه الذي قيل أنه كان إبانه يرمي الناس بالنفاق ويتوعدهم بأوبة الرسول من عند ربه يمثل بهم، أو يقتلهم، فيبتر منهم الجوارح، ويقطع الأوصال، ويطيح بالأيدي والأقدام. .

في حدود هذا المدلول، يرى الانحياز البكري وهو ينسلخ من هيئة التجمع العفوي العشوائي ليلبس - في خلال سويعات لا تكاد تذكر - زي الاجتماع العامد المقصود. . ثم يتبدى الإجتماع في ثوبه الجديد وكأنه بمفهوم نظمنا المعاصرة أدنى إلى جلسة «حزبية!» غير عادية، أو استثنائية، يعقدها أحد الأحزاب على عجل، وفي غير الموعد الرتيب المعهود، بعد أن

دعته لتدبير أمره دواع آزفة وضرورات ملحفة لا تحتمل الإهمال، ولم تكن قبل أن تطرأ وتكون لتخطر في حسبان إنسان!..

ويطبيعة الحال لم تكن ثمة أحزاب في تلك الأيام، بمفهوم ما نعرف الآن.. ولم تكن ثمة نظم للأمها في اجتماعات..

لكنه تشبيه..

مجرد تصور أو تصوير..

فهل من عجب أو إغراق؟..

بل قد يكون من الغرابة والمغالاة أن يؤخذ انحياز المهاجرين، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، إلى أبي بكر على أنه «تجمع صدفة» ولا يؤخذ على أنه «اجتماع تدبير!».

أم لعله من قبيل المصادفة أن التقت هذه «الشاردة» بهذه «الواردة»!.. التقى بنو عبد الأشهل بالمهاجرين، بنفس الزمان، وفي نفس المكان: على غير اتفاق؟..

أم لعله من قبيل المصادفة أيضاً أن قد «هام» كل فريق منهما - من هول الصدمة - على غير هدى. فإذا أحدهما يجد أن طائفته انحازت، عفواً بلا سابق اعتزام، إلى أبي بكر.. ثم يجد أن طائفة ثانيهما قد انحازت أيضاً مثل انحياز فريقه دون دعوة سابقة هادية تحدد لأي منهما بدء تحركه، وخطة سيره، وموقع اللقاء، وموعد الاجتماع؟..

أم لعله من قبيل المصادفة كذلك أن يكون الصحابي الجليل قد رأى نفسه بعيد وفاة رسول الله بقليل، وهو قطب الرحى الذي يدور حوله «الحجران» أو رأس الزاوية الذي يلتقي عنده «الضلعان» ذانك الضدان المتنافران من مجتمع المدينة اللذان انحازا إليه حينذاك انحيازاً ظنيناً مجهول المقدمات لم يصارحنا امرؤ من رواة الأخبار بما يفيد أنه جاء نتيجة إعداد؟..

كل هذا قد يدنو من الترجيح..

قد يبدو مقبولاً أو كالمقبول..

قد لا يختلف مع «قانون» المصادفة كبير اختلاف أو قليل اختلاف. .

فرب صدفة - كما يقال - خير من ألف ميعاد، أو ألف إعداد! . .

لكن الذي يلوح كأنما يشي بالمغالاة، بل بالإسراف في المغالاة، هو ما ورد بتلكم الرواية من انحياز المهاجرين ساعتئذ إلى أبي بكر الصديق. . فذاك أدنى إلى أن يعني: «كل» المهاجرين أو «جل» المهاجرين على أهون تقدير ما دام اسمهم قد ذكره رواة الخبر «مطلقاً» غير مقيد. . وعلى هيئة «تعميم» لا تخصيص. . ودون أن يقرنوه بوصف أو تمييز يعني التبعيض أو التحديد. .

فإذا كانت لفظة «المهاجرين» إنما أريد بها التعبير عن سادة القوم لا الرعاع، وعن القادة لا الأتباع، فما هي إذن حقيقة موقف هؤلاء السادة القادة الذي كان له من بعد أبلغ الأثر في تاريخ الإسلام؟ . .

(٢)

في نطاق عبارة الرواية التي رأيناها تحدثنا عن انحياز المهاجرين إلى أبي بكر يوم وفاة الرسول، وفي حدود مضمونها ومعناها، أيمكن أن يكون زعماء هؤلاء القوم - دع العامة منهم - قد انحازوا كافة إلى الشيخ وفي صحبته عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح؟ . .

أبجملة فريقهم آزروه؟ . .

أم بكثرة غالبة منهم تقارب الإجماع؟ . .

أم بفئة ذات ثقل في حساب الأعداد؟ . .

أم بقلة هي آحاد؟ . .

ثم ما قيم أولئك المنحازين - قلوا أو كثروا - بميزان المكانات والأقدار؟ . . وما منازلهم، قبل هذا لدى المسلمين، وقبل هؤلاء لدى الرسول؟ . .

أسئلة تترى على الخواطر، تتأرجح حيالها الإجابات بالمستفسر وبالمجيب كإبرة مغنطيس تتذبذب بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب!.. فإذا الردود تتعدد أوفر تعدد بمقدار التفاوت، صعوداً وهبوطاً، بين الأرقام التي تحاول تحديد فريق المهاجرين المنحازين قبل السقيفة إلى الصديق كما كان!.. وإذا رأى رد بينها لا يستطيع الإجتراء على أن ينسب ذلك الفريق من المهاجرين المساند يومئذ للشيخ إلا إلى «الجزئية» دون الكلية، وإلى «البعضية» دون الإجماع..

ولا نزاع..

لا، ولا شبهة نزاع وإن نحن أخذنا في إحصائهم بأسخى الروايات أو بأوفى التقديرات!..

أما عن «النوعية» التي يشكلها وضعهم الإجتماعي ومكانتهم الروحية بين أهل الإسلام فقد يدلنا عليها التساؤل: من هم لا كم هم؟.. من هم معلمي الألقاب والأنساب؟.. من هم بين ذوي قدم الصدق في الإيمان، والسبق إلى الإسلام، والحق في الخلافة أو الإستخلاف؟..

بل يكفي - لكي يبدو أمام كل عين مبصرة، وفكر متفهم، ورأي منبثق من صدق الملاحظة وصحة المدارسة ودقة الإستقراء وإنهم لمرجوحو الكفة في ميزان القيم والأقدار - أن أحداً من آل محمد: تلك الصفوة المجتباة من الأطهار الأبرار، لم يلحق آنئذ بالشيخ التيمي حيث كان التقاؤه يوم الهول الأكبر بمن لاذ به من اللائذين.. ولا سعى معه من بينهم أحد إلى اجتماع السقيفة لقشر ابن عبادة عن حلمه بالخلافة التي ظنها خليقة بأن تسقط في حجره كالثمرة الناضجة التي لا تفتقر لقطاف.. ولا حاول أحد منهم، بعبارة أو بإشارة، أن يساند ابن أبي قحافة ويشد أزره لا قبل ولا في أثناء إجتماع «الغرماء!»..

لكأنما كتلة المهاجرين المؤيدة لأبي بكر - في ذلك المنحاز البكري، ثم من بعده في موقع البيعة - تتبدى ضامرة ضموراً يرى المرء معه جمعهم الحافل - دع الكامل! - عارياً من ضباب التعميم الذي غلفته به بعض

الروايات.. إنها لتنزل إلى بضعة نفر يوحي عددهم بأن صحيفة تاريخ اللقاء بالسقيفة لم تكن صحيفة بقدر ما كانت «غربالا» مهلهل الديباحة، واسع الخروق، لم يستطع أن يعي ما لعله احتوى يومذاك من أسماء!..

ثم كم بعد هذا من أصحاب رسول الله المقربين، وخيرة المؤمنين ذوي الفضل والرأي - فيما عدا هاتيكم الجماعة من الأنصار - قد غابوا عن البيعة، أو غابت عنهم، ولهم فيها، بدءاً وخاتمة، نظرة تخالف ما انتهت إليه من قرار!..

كم من أعلام ومن هام!..

أما عن «العددية» فالراجح الذي يقارب اليقين أن أغلب المهاجرين، ثم أكثر الكثيرين من رفاق محمد على طريق الإيمان منذ بدء الدعوة الهادية، كانوا بعيدين - كما سلفت الإشارة - عن مجال هذا الصراع السياسي بين فريقي المتنازعين يومئذ على السلطان.. بعضهم نفوراً منه وبعضهم غفلة عنه.. وعامتهم اطمئناناً يقينياً إلى أن خلافة صاحب الرسالة باقية في بيته لا محالة، إذ كانوا «لا يشكون لحظة واحدة في أن الولاية على المسلمين مفضية حتماً من بعد محمد إلى علي بن أبي طالب»[1]. بحق قدره وفضله وليس فقط بحق صهره وقرباه.. فهو من علم الناس موئل علمه، ولجأ أمره، وموضع سره، ونجي قلبه، ولصيق لبه، وأولاهم كافة - أمة وآلا - بإمرة المؤمنين بلا مجادلة ولا نزاع..

وليس هذا محض تصور للوضع القائم آنذاك.. ولكنه تصوير لحقيقة ما كان ثابتاً في الأخلاد قبل أن يلقى محمد وجه ربه، ويدع أمور المسلمين بين أيديهم وفي حسبان الأمة أنهم خليقون بأن يسيروا بها إلى غايتها على جادة سواء.. إنه التصوير الذي يحكم التقدير.. والتقدير الذي يحسن الحساب.. والحساب الذي لا يخطئ الحقيقة.. والحقيقة التي يدور في فلكها أي افتراض..

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة - الجزء السادس».

(٣)

كفى بياناً لما كانت عليه بيعة السقيفة من «قصور عددي» في المهاجرين فضلاً عن «القصور النوعي» أن تخلف عنها جمهورهم وفي مقدمته كرائم القبائل القرشية وقادة الرأي فيها من ذوي الصوت المسموع والنفوذ المهيمن بين العرب أجمعين من أقصى شمال شبه الجزيرة إلى أقصى الجنوب. .

تكشف لنا إحدى الروايات عن ذلك القصور من خلال حوار جرى مساء يوم الاستخلاف بين طائفة من مهاجرة قريش وبين طائفة من الأنصار. .

كان ذلك الحوار يحمل في طواياه عتاب رفاق لرفاق. .

وكانت الرواية تقول:

«. . . لما بويع أبو بكر[١]، أقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله. . فلما كان آخر النهار، افترقوا إلى منازلهم. . فاجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين، فتعاتبوا فيما بينهم. . فقال عبد الرحمن بن عوف:

«يا معشر الأنصار. . إنكم وإن كنتم أولي فضل ونصر وسابقة، فإنه ليس فيكم مثل أبي بكر، ولا عمر، ولا علي، ولا أبي عبيدة».

قال زيد بن أرقم:

«إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن. . وإن منا لسيد الأنصار: سعد بن عبادة. . ومنا من أمر الله رسوله أن يقرئه القرآن ويأخذ عنه السلام: أبي بن كعب. . ومنا من يجيء يوم القيامة أمام العلماء: معاذ بن جبل. . ومنا من أمضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت. . وإنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: «علي بن أبي طالب».

---

(١) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة.

وتصف لنا أيضاً رواية أخرى ما كان من الناس في عقب اجتماع السقيفة فإذ هي تصور أمام النواظر والخواطر نفس الوضع المرجوح. .

تقول:

«. . . وكثر الناس على أبي بكر، فبايعه «معظم» المسلمين في ذلك اليوم. واجتمعت بنو هاشم إلى بيت علي بن أبي طالب، ومعهم الزبير. .

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان. . واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن. . فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة، فقال:

«ما لي أراكم ملتاثين!. . قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايع له «الناس» وبايعه «الأنصار» فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما، فبايعوا أبو بكر».

وما ورد في سطور هاتين الروايتين لا يسلم نصه ولا مضمونه، وإن بغير عمد، من معالم نيل من أولئك المبايعين لأبي بكر في بني ساعدة، بعيد قليل من وفاة الرسول، في ذلك اليوم الذي لم يكن بعد قد ولى عمره أو بلغت شمسه المنكودة حافة الغروب!. . إنه لينال منهم حتى ليستطيع من يرسل عينه وفكره في إطار حروفه وكلماته وفي أغوار إشاراته ودلالاته، أن يراهم حين يقارنهم بمن عداهم الألى لم يبايعوه - لا يكادون، بمعايير المقابلة والتنظير، يثقلون وزناً أو يستطيرون بين ذوي العدد والمكانات. .

ولا إفراط، كما هو واضح، ولا تفريط في هذا التقدير. .

فإن لم يكن في قوام الرواية الأولى وهيكلها السافر المنظور ما يغني الغناء كله عن جهد البحث ومشقة التحري فيما لعله اختفى بين السطور وعما عسى يعنيه هذا المستور، فلا على المرء لو تساءل: أية كلمة ترى ترسم «الجزئية» أو القصور العددي في فريق مبايعي السقيفة إن لم تكن لفظة «الجماعة» تعنيه؟. . ثم لا عليه أيضاً لو تساءل، وهو يعرض للرواية الثانية: من هم أولئك الذين قد شهدناها تسميهم: «الناس» وإنها لتسمية «مرسلة» بغير تحديد. فيها من «الغموض» ما يستغلق على الفهم الذي يحاول تقصي

الأبعاد، ومن «التجهيل» ما ينأى بكتلة هؤلاء المبايعين عن دقة الوصف التي تضمن إحكام المعابرة وسلامة التنظير؟..

ولا سبيل إلى شك في أن لفظة «الجماعة» في أولى الروايتين ولفظة «الناس» في ثانيتهما لا تكادان تتوافقان إن لم ير المرء أنهما تؤلفان لوناً صارخاً من التناقض المكشوف!..

فلفظة «الجماعة» مقرونة بعبارة «التي بايعته» تفيد تحديد حجم المبايعين، لأنها تدل على أن الذين بايعوا الشيخ التيمي لم يكونوا «جميع» من كان من حقهم الإدلاء بالبيعة، وأن هناك «جماعة» غيرهم لم يبايعوه.. ثم لا خلاف أيضاً في أن الجماعة ليست «الإجماع»!..

ولفظة «الناس» إذ هي مرسلة أو مجهلة، تفيد «التعميم» حتى ليحسبها الرائي تفيد «الكلية» وليست كذلك!.. وكيف تفيد ومعناها هذا المطلق المرسل يناقض ما تكنه سطور كلتا الروايتين من مدلول؟.. فما بايع، بشهادة النص وروحه، وكما سلف القول «جميع الناس»، ولا بايع بجملتهم «كل» الذين كان يحتويهم ذلك اللقاء في بني ساعدة، ما دمنا موقنين أن سعد بن عبادة قد تأبى على البيعة، وأن «جماعة» من أهله - قلت أو كثرت - لا بد قد اعتزلت معه اعتزال تأب وغضب أو اعتزال تمرد وإنكار!..

ثم من هم «معظم المسلمين» هؤلاء الذين قد أخبرتنا رواية من الروايتين أنهم بايعوا أبا بكر ذلك اليوم وقد تكاثر عليه الناس وإن نفس الرواية لتقر أن بني هاشم وبني أمية وبني زهرة - وهم من هم في الأمة الإسلامية مكانة وكثرة - لم يكونوا من المبايعين؟.. ومن هم أيضاً أولئك «الناس» الذين سمعنا من ابن الخطاب أنهم بايعوا، وقد شهدناه، في ذات اللحظة، يحاول - بعنف الخطاب ولذع التثريب - حمل أعلام القبائل القرشية ذات الأيد على البيعة للصديق؟..

أليس يبدو جلياً أن ما تنضح به ألفاظ هاتين الروايتين من تضارب وتجهيل، خليق بأن ينزل بكلتا النوعية والعددية لمن بايعوا بالسقيفة وفي عقبها

حتى آخر النهار، إلى ما تحت خط الرجحان؟

غير مستبعد، بل هو طبيعي أن بعض المهاجرة بايعوا لأبي بكر وهو في طريقه من السقيفة إلى المسجد ما دام المعلوم أن عمر كان يأخذ بكف من يصادفه عندئذ فيمسح بها على كف صاحبه بالبيعة.. ومع ذلك فإن سياق الروايتين السابقتين ينضح بأن من قيل إنهم «الجماعة» ومن قيل إنهم «معظم المسلمين» ومن قيل إنهم «الناس» كانوا - أو كانت كتلتهم الكبرى على الأقل - من الأنصار لا من المهاجرين..

يدلنا على هذا أن «تكاثر» الناس على أبي بكر في ذلك اليوم، إنما تم مباشرة عقب حدوث واقعة البيعة في اجتماع السقيفة.. وربما في أثنائه قبل انفراط عقد المجتمعين أو وهم في طريقهم إلى الإنقضاض والتفرق عند مبارحتهم بني ساعدة: هذا الحي من المسلمين الذي شهد اللقاء التاريخي المشهور..

ويدلنا عليه ثانية أن عمر بن الخطاب ما كان لينحى بلائمته ويركب بعنف خطابه تلكم الطائفة القرشية الضخمة من المهاجرين لو أن من «تكاثروا» وقتئذ كانوا المهاجرين أو كانوا «معظم» المهاجرين..

ويدلنا عليه أيضاً ما هو معلوم من أن بيعة السقيفة لم يشهدها - أغلب الظن - من قريش عامة ومن مهاجرتها خاصة، غير نفر قليل أو أفراد لا يكاد يؤبه بهم في لغة الأعداد!..

فلماذا إذن نجد ابن الخطاب يذكر في عبارته اسم «الأنصار» صراحة ثم يغفل ذكر اسم «المهاجرين» مؤثراً أن يكنى عنهم بلفظة «الناس»؟..

أيكون ما دعاه إلى هذه التكنية أن موقفهم من أبي بكر كان إلى تلك اللحظة مجهولاً لدى عمر، لا يدري على وجه اليقين إن كانوا مع الشيخ أو عليه، ومن ثم آثر إبهام التعبير؟..

أم يقول قائل إنما التكنية هنا نوع من التعبير مألوف، ينحو إليه المتحدث - أي متحدث - وهو يعني أن ينقل لسامعيه لوناً من الإعتزاز بمكانة الذين

يتحدث عنهم - وبخاصة لو كانوا من قومه - اعتزازاً يوحي أنهم هم «الناس» ولا ناس غيرهم يؤبه بأقدارهم في العالمين؟. . لئن قيل هذا فإنه قول مردود يأباه مقتضى الحال، إذ التكنية ليست الأسلوب الذي يصلح في مقام كهذا كل سلاح فيه غير الكلمة الصريحة مفلول، وكل نعت سوى الوصف الدقيق لا يمكن أن يرجح ميزان التفضيل. . أما الكنايات والتوريات وما يذهب من الأساليب نفس مذهبها في التعمية والإبهام أو في التعميم والتجهيل، فإنها لا ريب أدعى إلى انكفاء رأي المتحدث واهتزاز حجته، لأنها أدنى إلى تبدد معاني عباراته في فيافي التأويل!. .



(٤)

وضع «الحزب» البكري - مع الترخص في هذه التسمية - قد يتراوح بين الضعف والتهافت، وبين القوة والشوكة، حسبما تقود استقامة البحث أو يقضي التواء الميول، فلا يصرفنا النظر في حقيقة بنائه المتداعي أو المشدود خلال الفترة من ظهيرة يوم الوفاة الحزين إلى مسائه عن الإقرار بأن اتجاه الرأي لدى عامة المسلمين، أنصاراً أو مهاجرين، كان حتى ذلك الوقت، يتجه إلى جانب علي بن أبي طالب اقتناعاً بحقه الذي لا ينازع في خلافة رسول الله. . ومن اليسير تبين هذا الاتجاه لو كر المرء إلى الحوار الذي جرى في إحدى الروايتين السالفتين بين ذينك الفريقين من المهاجرين والأنصار بعد انفضاض اجتماع السقيفة ببضع ساعات والليل عندئذ قد استرخت فيه الأعصاب، وهيأ بهدوئه مناخاً صالحاً للعتاب. .

وليس هذا الحوار وحده هو كل ما يؤيد الإتجاه المساند لاستخلاف الإمام، والذي تدور على محوره هذه السطور. . ولكنه مثال من الأمثلة وقرينة من القرائن التي لا يخلو من أشباهها تاريخ تلك الأيام. .

فالرواية إذ تظهر لنا في حديث المهاجرين ما هو أدنى لعتاب يقابله في

حديث الأنصار ما هو أدنى لاعتذار، إنما تدلنا أيضاً على أن كلا الحديثين يؤلفان معاً «نقطة التقاء» بين خطي الرأي لدى الفريقين هي: علي بن أبي طالب، وإن سار أول الخطين، في انطلاقه إلى تلكم النقطة، على ما يشبه التردد والاستحياء ومضي ثانيهما إليها صريحاً بغير التواء!..

يقول عبد الرحمن بن عوف للأنصار:

«... ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أبي عبيدة..».

فيرد عليه زيد ابن أرقم:

«... إن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: علي بن أبي طالب..».

وهكذا نرى أن حق الإمام في الحلول محل الرسول في الولاية على المسلمين واقتعاد سدة حكم دولتهم لم يكن غائباً عن بال الطائفتين المتنازعتين على السلطان حتى ذلك النهار.. الأنصار تقر له إقرار اقتناع وتسليم بأنه الجدير وحده بالأمر، ليس لامرئ غيره أن ينازعه فيه. والمهاجرون يقرون له نفس الإقرار فإذا هو، بنظرتهم، جدير بالأمر في نطاق «تحفظ» شاءت أن يسلك اسمه في خيط واحد مع أسماء الثلاثة الكبار»!.

والحوار إلى جوار هذا، لا يستعصي على أحد، حين يتخذه، معالم للتوقيت، أن يجده قد حدد بكل دقة ساعة وقوعه فإذا هي، بغير أدنى ريب، ساعة من ساعات ليل ذلك اليوم الأغبر العبوس الذي توفي في نهاره رسول الله، وتمت، وشمسه ما زالت بازغة، بيعة السقيفة للصديق..

ولا شبهة في صدق هذا التحديد..

فالرواية - نصاً - تؤكد لنا أن الجماعة التي بايعت أبا بكر وأقبلت به يومئذ إلى مسجد رسول الله تزفه زفاً - سواء أكان فعلها زفيفاً بمعنى السرعة أم كان زفافاً كجلوة العروس - إنما قد تفرقت وتفرق الذين شهدوا مسيرتها تلك، إلى منازلهم آخر النهار..

ثم يسهل أن نتبين من سياقها أن ذلك الحديث الذي سمعناه يدور عتاباً

كاعتذار، واعتذاراً كعتاب بين فريق من المهاجرين على لسان عبد الرحمن ابن عوف، وفريق من الأنصار على لسان زيد بن أرقم إنما قد وقع - لا بد - ليلاً بعد انتهاء «الزف» في الغروب، فبعد التفرق «إلى المنازل»، فبعد «الثوب» بها جماماً وراحة، وقتاً ربما قصر وربما طال. .

ثم لا يتعذر أن نستخلص من خلال فحوى الحوار كله، أن إدلاء بني أمية وبني زهرة بالبيعة لأبي بكر، انصياعاً لأمر عمر، أو خضوعاً لضغطه وعنف خطابه، إنما تم أيضاً ليلاً في موعد وسط بين «الثواب» للجمام، وبين «العتاب» الذي تبادله ابن عوف وابن أرقم ما دام المعلوم - واقعاً ومنطقاً - أن عمر قد حملهما وقومهما على البيعة حملاً وإنهم آنذاك بمنازلهم لم يخلفوها بعد إلى موضع الإلتقاء والحوار الذي وقع كلاهما مساءً بينهم وبين ذلك الفريق من الأنصار. .

ونكر عائدين إلى ما كان من موقف آل رسول الله من بيعة السقيفة، فإذا الذي يعلو إلى قمة اليقين، حسبما سبق البيان، أنهم مع نفر غير قليل من الصحابة الأجلاء - وهم جميعاً هامة العرب وفيهم من فيهم من صفوة المهاجرين - قد نصت الروايات كافة، أو كادت، على وقوفهم بعيداً عن مجال ذلك الصراع السياسي الذي نشب يومذاك. . أو على اعتزالهم إياه، بدءاً ونهاية. . أو على تعففهم عن الإنغماس فيه. . فلقد ظلوا - فضلاً عن احتجاب حقيقة اجتماع السقيفة أو حجبها عنهم - إلى جوار الجثمان الطاهر يلازمونه والهين خاشعين، عاكفين عليه عكوف ولاء ووفاء، إجلالاً وتكريماً لصاحبه: سيد المرسلين، وأولى الخلق أجمعين بالإجلال والتكريم. . كانوا مشغولين، بنبيهم المسجى على فراشه، عن الدنيا وكل ما فيها من نفع وزخرف ومتاع، وعن السعي إلى اقتناص الخلافة أو التناحر عليها مثل السعي الجاهد الجهيد الذي بادر إليه أولئكم المتطلعون إلى احتياز السلطان لأنفسهم أو لأيما رجل من المسلمين لبعضهم هوى في استخلافه، والرسول عندئذ ما زال في حجرة أم المؤمنين عائشة: جسداً ساكناً بلا حراك، لما يتم تجهيزه لرحلة الحياة الحقة والبقاء الموصول بعيداً عن عالم الضلال والزوال. .

فهل من وجه للمقابلة بين موقف أولئك وموقف هؤلاء؟..

بل لا!..

ذلك أن خواطر شتى لأصحاب علي، سجلتها الأسفار في نظيم ونثير، يسعها أن ترسم لنا حقيقة هذا الفارق في صور حية، جديرة بالتأمل والاعتبار..

وأن أقوالاً عديدة قد هدر بها، عليه رضوان الله، وتناقلها الرواة على إجماع، أو ما يشبه الإجماع، تبين لنا كيف تعارض الموقفان تعارضاً بعد به أحدهما على الآخر كمثل البعد بين الأرض والسماء..

ومن كلام الإمام في هذا الصدد قول معلوم مشهور، جرت به الروايات على اتفاق في المعنى وتباين في التعبير..

فلقد ورد في الأخبار أن الأنصار، حين راجعتهم فاطمة بعد السقيفة في الأمر، ثابوا إلى وعيهم بعض الثوب، فندمت طوائف منهم أبلغ الندم على ما فرط من بيعتهم لأبي بكر.. ولولا عمق إحساسهم بأنهم غدوا في ملاك ميثاقهم للخليفة، فلربما سارعوا إلى فصم ما انعقد، ونقض ما أبرم.. لكنهم، ولاء للكلمة، وبرأ بالعهد، استقبلوا السيدة الزهراء، اللائمة العاتبة، باعتذار الأسيف المحزون..

قالوا على استحياء:

«يا بنت رسول الله.. قد مضت بيعتنا للرجل. ولو أن زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لما عدلنا به...».

فكان جواب علي على هذا الإعتذار:

«أفكنت أدع رسول الله في بيته أم أدفنه، ثم أخرج أنازع الناس سلطانه!..».

وكان تعقيب الطاهرة أم الأطهار:

«ما صنع والله أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له.. ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه..».

(٥)

الجلي أن سلوك علي والذين اعتزلوا معه يوم وفاة رسول الله، في جانب وسلوك من عداهم الذين سارعوا في الجانب الآخر، للإنحياز إلى هؤلاء أو أولئك من جماعتي المتنافسين على السلطان، سلوكان يتنافران ولا يتلاقيان. التقريب بينهما محال. والفارق عسير إخفاؤه على النظرة المنصفة التي تثيب على العمل حين يحق له أن يثاب، وتعيب حين يحق عليه أن يعاب!.. بل النظرة المجحفة - التي تميل بعض الميل، انزلاقاً مع الهوى والطموح، أو انسياقاً أمام ضغط الظروف وخضوعاً للمؤشرات النفسية والمادية المنبعثة من البيئة المكانية والزمانية لبيعة السقيفة - لا تستطيع أن تغفل البون الشاسع بين الطرفين، ولا أن تتغافل عن تمييزه مهما وسعها أن تتمحل بتعلات وأعذار.. أما موقف علي بالذات فهو، على وجه القطع لا الإحتمال، الموقف الأخلق به، المنتظر منه، لأنه صدى طبعه السوي السليم، ومصداق خلقه القوي القويم. إذ كان، عليه رضوان الله، على درجة من النقاء والتجرد أسطورية، يتجلى بها وإنه للأنبل والأمثل، إن كان موقف أولئك الآخرين من المهاجرين والأنصار، هو المعلل أو المثال!..

ومع ذلك، أفلا يمكن أن يقال - بشهادة هذه الرواية وأشباهها عن انطلاقه للأنصار - أنه كان يهدف، وسعى، إلى استرداد إمرة المؤمنين وانتزاعها من وراء ظهر الصديق؟.. كما يمكن أن يقال أيضاً - بشهادة روايات عديدة أخرى - أنه كان يهدف وسعى مثل سعيه ذاك، إلى استعادة الأمر حين راح يحرك نفوس المهاجرين ليستفيئهم إلى جناحه وهو يحتج عليهم أن هضموا حقه في تراث رسولهم وغمطوه.. ومن ثم فإنه بفعله، في الحالين، يكون قد خرج على مقتضى العزوف والنقاء والتجرد التي نراها فيه؟..

بلى قد يقال!..

بل قد قيل!..

ولكنه القول الذي يبذر في غير أرضه، ويجنى في غير أوانه، ويبدو في منطق الأمور والأحداث وإنه لأدنى ما يكون إلى رأي ظني منه إلى حقيقة واقعة حتى لكأنه نوع من الاستنباط المغلوط!..

ذلك أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن سلوك علي - في هذه الآونة الحافلة بتضارب التيارات الفكرية والإجتماعية والسياسية، وبالميول الشخصية والرهطية والقبلية كان سلوك تعفف وتقية. ينم دائماً وإن طالما خالطه غضبه لحقه المضيع - عن حرصه الكامل وغيرته الصادقة على وحدة المسلمين أن يشقها تنازع في الأمة يقع بين مؤيدين ومعارضين أو بين أنصار ومهاجرين، لا يبعد أن يقود إلى فتنة مسلحة، أو حرب أهلية خليقة بأن تصيب الدين وأهله بما لا تؤمن مغبته، ولا تحمد عقباه..

ولا شك أن حرصه هذا، كما تتكشف عنه سلاسل مواقفه، كان يسير بين سلب وإيجاب وفقاً لمقتضيات الظروف والملابسات، ولاتجاهات الأفراد والجماعات..

فلقد يستثيره من قومه كبير ذو نفوذ وأيد، يملك من القدرة على نصره وتعزيزه ما يمكن أن يغير اتجاه التيار، فإذا هو لا يصغي لعرضه أو تحريضه إنما يملك عقله وحسه ويأبى الإباء كله أن يثور أو يثير...

ولقد تتهاتف باسمه جماهير من أحلافه ومريديه، دعوة إليه، وغيرة على حقه المسلوب، فإذا هو يكف سمعه كما يكف رضاه عن الدعوة وعن الدعاة. بل يحبس نفسه وراء جدران الصمت: ظله لا يظهر، ولسانه لا ينبس، ولبه لا يميل حتى تذوب جلبة الدعاء والهتاف وتنفض زمر المريدين والأحلاف..

ولقد يسمع عن نبأ خلاف ينشب بين فريقي الأنصار والمهاجرين تفاخراً من فريق أن لهم الحق بالسبق، وتباذخاً من الآخر بأن لهم الفضل بالنصر حتى لتوشك أن تتلظى بينهم النار، فإذا هو يكون أول من يخف، بداراً ومعالجة، إلى معترك الجمع المتلاحم فيعمل على إطفاء الفتنة، ويأمر بإخماد جمرها

قبل أن يتأور لها سعير ويتأجج لهيب وإن لم يكن هو محور ذلك الخلاف المشبوب. .

فأما ما علم من مؤاخذته المهاجرين غضباً لحقه، فلا عن رغبة لنزعهم من بيعة الصديق. . بل هو دفاع عن نفسه حين أراد بعضهم إكراهه على البيعة. وتثريب عليهم وزراية أن تقاعدوا عنه لم ينصروه. وتبصير لهم وتذكير بالذي أغفلوه من مقامه أو أنكروه ولم يكن يجب، ولا ينبغي لهم، أن يغفلوه أو ينكروه. .

وأما سعيه إلى الأنصار يوم السقيفة، فلقد حدث كما هو ثابت مساء اليوم فكان - بداهة - قبل البيعة الجامعة لأبي بكر والوضع وقتئذ ما زال قابلاً للمراجعة والتعديل. .

وأما أسفه من بعد لموقفهم منه، وانحيازهم عنه، فلم يكن إلا من قبيل العتاب والتأنيب لا الاستعداء والتأليب. .

لقد كان يرى الرأي الذي يؤاخذ ويدين، ولكنه كان يتنزه عن ركوب السلوك الذي يشد به البساط من تحت قدمي المؤاخذ المدين!. . لا عن خشية أو تحرج كان يفعل، وإنما عن حرص مكين حكيم على عروة المسلمين ووحدة الدين. .

وصدق ما تذهب إليه نظرتنا هذه - آناً التزاماً بحرفية النصوص، وآناً انسياقاً مع دقة استقراء الأنباء - ليس يؤيده انتظام السياق الحدثي وحده، بل تؤكده أيضاً بدائه العقول. .

ولا أدل من دليل!. .

ولا أصح من معقول!. .

فأسناد تاريخ الفترة، وإن اختلفت مصادرها وتنوعت بها نظرات المؤرخين، لا تضن علينا بتقديم صور شتى مجردة، بارزة المعالم، واضحة الألوان لمواقف جماعات وأفراد في تلك الأيام لا يصعب على المرء أن يتبين من خلالها تسلسل الحلقات الزمنية للأحداث والوقائع، ولا انتكاس النفوس

والظروف، ولا مسار مسلك الإمام وتصرفاته كيف بدأ، وأين مضى، ولماذا انطلق في غير طريقه المفترض المظنون..

(٦)

إن معالم السلوك الإمامي المتعفف كثيرة، تعبر عن نفسها بجلاء في ضوء فحوى هذا القول أو ذاك، وموقف هؤلاء الناس أو أولئك، ونثار هاته الواقعة أو هاتيك.. وما أحاديث أبي سفيان حينذاك، ولا تلاقي المهاجرين والأنصار، ولا الهتاف بحق علي، على مسمع ومشهد ممن أخذوه أو أسلموه لسواه، هي وحدها ما يكشف لنا عن نقاوة معدن هذا السلوك ويجلوه..

لكنها على أي حال، أمثلة بليغة الدلالات، تقدم لنا بعض الشهود العدول!..

فثمة من المصادر التاريخية روايات عديدة، تتناثر هنا وهناك، تفيض بأحاديث وآراء لشيخ قريش سيد بني أمية: أبي سفيان بن حرب، كاشفة عن موقفه في ذلك الوقت من قضية الخلافة، وفيمن يجب أن يكون الأمر بعد الرسول، فإذا هي تحدد لنا التعاقب الزمني للوقائع.. ثم ترسم تطور اتجاه نظرة الإمام.. ثم تصور الزعيم القرشي الأموي وهو الكاره أبلغ الكره أن تخرج الإمرة من بني عبد مناف إذ هم قومه، الحريص كل الحرص على بقائها فيهم وإن هي أفضت من بينهم إلى البيت الهاشمي الذي طالما نافسه بنو أمية على السيادة حتى دخلوا الإسلام من بعد وهم صاغرون أو وهم طائعون..

ولا حريجة على شيخ بني أمية أن يرى في «العصبية» مفتاح القضية!.. فلقد كانت النظرة القبلية هي التي تسيطر على تفكيره وتحدد سلوكه تجاه الأحداث، كما كانت تحدد سلوك غيره من زعماء القبائل والعشائر ورجالها في ذلك الحين.. بل قد ظلت هذه النظرة زماناً طويلاً أعقب هذه الآونة وهي

مترسبة في أعماق القوم كأنما تجري في عروقهم مع الدم، لا ينزعون عنها - وفاء لتقاليدهم - وإن جبها وأباها الدين . .

من نصوص تلكم الروايات نعلم أن أبا سفيان بن حرب أسرع إلى علي في أثر وفاة رسول الله ولما يلتئم عندئذ اجتماع أهل السقيفة يعرض ولاءه عليه . .

يقول الزعيم الكبير :

«يا أبا الحسن . . هذا محمد قد مضى إلى ربه . . وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أبايعك فإنك لها أهل . . ».

فيجيبه علي بهدوء :

«يا أبا حنظلة . . هذا أمر ليس يخشى مغبة الريث والتمهل».

فيستعين العباس بن عبد المطلب على ابن أخيه أن يحمله على قبول ذلك الولاء المعروض . .

ويتقدم الزعيمان الكبيران يعاودان دعوة علي إلى قبول البيعة وهما يؤكدان أنها بيعة شاملة لن يختلف عليها بعدهما أحد من الناس . فبيعتهما تجمع عليه بني عبد مناف . وعبد مناف تسير خلفها قريش . وقريش تدين برأيها العرب فلا يخرج من ولائه إذن نفر - بل رجل! - في الأمة على امتداد أرض الجزيرة، دنت بهم منه أو شطت الديار . واتصلت أو انفصمت الأنساب! . .

ويعرض الإمام عما يدعوانه إليه . .

يقول :

«لا والله يا عم . فإني أحب أن أصحر بها، وأكره أن أبايع من وراء رتاج! . . ».

ردان يضعانه أمامنا وهو الآمن الأمين! . .

الأول تبعثه الثقة أن ليس في الناس منافس قرين . وهي ثقة تنعكس صورتها الصادقة على مرآة الرأي العام الذي شاع إجماعه - أو ما يشبهه -

على اختيار علي الخلافة الرسول كما نقلت لنا النصوص.

والثاني تبعثه مثالية السلوك أنفة أن يختطف البيعة من وراء أظهر الجمهور..

وكان اجتماع السقيفة عندئذ جنيناً في بطن الغيب لم يشهد النور..

فهل كان واثقاً أن «غيره» سيأنف الاختطاف؟..

لكن الذي كان يخشاه أبو سفيان ما لبث أن تحقق، إذ نشهد أبا بكر يخرج من جوار علي - وكانا حينذاك مع الجثمان الزكي - مغادراً دار محمد وما من كلمة واحدة حاول أن يتكلفها يدعو بها آل رسول الله، ولو من قبيل المجاملة، لمصاحبته إلى الإجتماع الخطير، أو يشير بها، بمجرد إلماحة، إلى حيث قد اعتزم أن يسير..

فإن هي إلا سويعة أو نحوها تمضي على انطلاقه ذاك برفقة صاحبيه عمر وأبي عبيدة إلى حي الأنصار حتى يجيء الخبر - عجلاً عجيباً! من السقيفة بخلافة ابن أبي قحافة.. وعلي آنئذ، كما هو معلوم، ما زال مشغولاً بجهاز الرسول..

فما الذي كان منه، وقد بغته هذا النبأ، بل هذا الإنقلاب؟..

حدثتنا رواية:

«.. لما توفي النبي، وجرى في السقيفة ما جرى تمثل علي»:

«وأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا   ويطغون لما غال زيداً غوائله!..».

فكأني به وهو يتلفظ هذه الكلمات كان يتلفظ الصاب!..

ولا عجب في أن يكون.. لأن المتوقع والطبيعي أن ترتج النفس البشرية وتضطرب بفعل مثل هذه الصدمة العنيفة المفاجئة، ولأن العجيب والمستغرب أن تستعصي على الارتجاج والإضطراب!..



(٧)

لكننا لا نعلم أن طعم المر الذي أترع فمه، وقسوة الطعنة التي اخترقت ظهره، وثورة الغضب التي أحرقت أعصابه، قد حاد به أيها عن التزام استقامة الجادة ونظافة الأسلوب..

ومع أن ثمة من النصوص ما يبين لنا أنه امتلأ عجباً لموقف أبي بكر، وأسفاً لمسلك الأنصار، ثم غضباً لانحياز المهاجرين من بعد، فهل من أحد يحسب أن هذا كله - أولاً، وكما تنطق عباراته الزارية اللائمة - لم يكن أقرب إلى نتيجة منطقية لإحساسه الغامر بالمرارة.. أو إلى تعبير نفسي عادي يفرج عنه بعض ضغط الهم الذي أثقل به فؤاده تصرف أناس من أهل ثقته، فيهم طائفة عزيزة عليه من رفاق السلاح والكفاح لا نظنه كان يشك لحظة واحدة في توثق صلتهم به، وصدق وفائهم له؟

أم تراه - ثانياً - كان يحلم، ولو في أفظع الكوابيس، أن يتنكر كل أولئكم لحقه ويغمطوه وهم جميعاً، أو على الأقل كثرتهم الغالبة، كانوا يعرفون له هذا الحق ويقرون به قبيل انعقاد اجتماع السقيفة تمام المعرفة والإقرار، بحكم ما كان معلوماً وشائعاً آنذاك بين جمهور المسلمين، إذ تؤكد لنا أخبار الفترة أن «عامة المهاجرين وجل الأنصار» لم يكونوا يشكون في أنه صاحب الأمر بعد الرسول؟..

أم هناك، ثالثاً - وفي الإعتبار ما يدلنا عليه التواكب الزمني للأحداث - من يستطيع على وجه القطع، بل على وجه الترجيح، الإدعاء بأن الإمام مشى في القوم بلومه مشية المؤلب المحرض على أبي بكر الصديق بعد أن ثبتت البيعة له برأي جميع، أو شبه جميع، تبدو معه كل كلمة تناقض الوضع القائم وإنها لوسيلة للهدم والإنقسام وأداة للتفريق والتمزيق؟..

لا!..

إنا لنرى في كلمته عندئذ لأبي بكر مصداق سلوكه الكريم. .

كأنما لا يبالي ما وقع، يقول للشيخ بهدوء رزين لا يقارف الصخب، ولا يهدر بالغضب، وإن كان حشوه التقريع والتأنيب:

«أفسدت علينا أمرنا. ولم تستشر، ولم ترع لنا حقاً. .».

فيجيء رد أبي بكر كاعتذار هو الإقرار:

«بلى!. . ولكن خشيت الفتنة. .».

وإنا لنرى أن استكمال سلسلة مواقف أبي سفيان من الإمام، في هذه الآونة، كفيل بأن يظهر لنا عزوفه، عليه رضوان الله، بعد إبرام البيعة العامة، عن استنهاض أحد أو جماعة من القوم إلى مؤازرته لأخذ حقه السليب. . وبأن يبين تعففه عن الإصغاء - مجرد إصغاء - لحفز الحافزين وتحريض المحرضين. . وبأن يؤكد كل التأكيد كفه أيما امرئ من أنصاره حاول بالكلمة، فضلاً عن العمل، أن ينال من استقرار وضع الصديق. .

ويقدم التاريخ في هذا المقام بضع روايات تجيئنا بسيد بني أمية وإنه ليشعل في نفس علي من نيران التأليب على أبي بكر والغيرة منه ما هو حقيقة بأن يحمز حمية الحليم، ويحرق دعة الصابر، ويدفع إلى شحذ الغضب ليتفجر ثورة جامحة هوجاء لا تقف دون التدمير. .

في مرة نرى الزعيم الأموي الكبير يمر بالبيت الذي به علي بن أبي طالب، وينشد شعراً يقول فيه:

«بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن: علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم . ».

وفي أخرى يدخل على الإمام، يصيح:

«أغلبكم على هذا الأمر أذل بيت في قريش وأقلها!. . أما والله لئن شئت لأملأنها على أبي فصيل خيلاً ورجلاً، ولأسدنها عليه من أقطارها!. .».

فما هي كف الحزم التي أراد شيخ قريش أن يشد بها الإمام على الأمر إلا أن تكون كفاً ضاربة باطشة تستطيع أن تقوض البيعة التي وضع أهل السقيفة دعاماتها ورفع سقفها من تابعوهم عليها لتكون صرح سلطان الصديق؟ . .

وكيف كان موقف علي من هذا الإلحاح في التحريض والإصرار على الإثارة وإن المرارة عندئذ لملء قلبه وفيه من هذه البيعة الفاجئة المحجبة التي باغته بها القوم فجاءت مثل طعنة مصمية انقضت عليه في الظلام - وهو آمن لهم، ضامن وفاءهم، موقن بترفعهم عن التنكر له - لتستنزفه، مع دم جرحه النفسي الغائر، حقه المعلوم المشهور وما برح مكانه بعد بجوار جثمان الرسول؟ . .

وهل ترى كان حرياً به ولزاماً عليه أن يستجيب لدعوة أبي سفيان المثيرة فيلجأ إلى القوة الضاربة لينحي أبا بكر عن مكانه وإنها إذن للإستجابة الخليقة بأن تدلع فتنة نارية شعواء بين أبناء أمته تمزق وحدتهم، ولن يسلم من شرور خطرها عدو الدين وهو بعد غض رطيب؟ . .

حفاظاً على كيان الإسلام، وتوثيقاً لعروة المسلمين، وولاء لخلقه الأرفع الأمثل، نرى الإمام يسمو على غضبه العاصف لحقه المبتز المغصوب كأنه أخذ نفسه بسوغ ازدراد العلقم، ولعق الدم، والطفو فوق الألم. . فيستقبل في الأولى ذلك التحريض المثير بهدوء من لا يكاد يكترث بالأمر، أو يلقي إليه بالاً، بأن يجيب بلهجة العزوف العيوف:

«إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه. وقد عهد إلى رسول الله عهداً فإنّا عليه. . .».

ويستقبله في الثانية برد حاسم عنيف:

«إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة. وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً. . لا حاجة لنا في نصيحتك! . .».

وفي قول آخر كان رده عليه:

«يا أبا سفيان. . طالما كدت الإسلام وأهله فما ضرهم شيئاً. . أمسك عليك فإنا رأينا أبا بكر لها أهلاً. .».

وردود كهذه لا تقال والوضع السياسي العام قابل للمراجعة والتعديل، وإنما تقال وقد استقر هذا الوضع بتلك البيعة الجامعة التي تمت لأبي بكر صباح غد السقيفة وأصبح العبث به سبيلاً إلى شق وحدة المسلمين والنيل من سلامة الدين. .

لقد فطن علي لخافية التحريض السفياني فأباه. .

وفطن إلى خطر المناوأة فآثر القعود والسكون. .

ولا يطعن بحال في هذا الموقف الذي اختاره أن قد علم عهد محمد إليه ثم لم ينهض لإنفاذه، أو قد بدا كأنما شاء أيضاً أن يثبط من حاولوا النهوض فيه. . إنما موقف الناس منه عندئذ هو الحري بالطعن لأن المعول عليه في الوفاء بعهد رسول الله هو إقبالهم على المعهود إليه، وليس، كما حدث، تنكرهم له وانفضاضهم عنه.

ولا يطعن أيضاً في نفس الموقف، لو أننا افترضنا جدلاً الأخذ بظاهر العبارة - وإن كان ليناقض المعقول المقبول! - أن نتصور الإمام يجد أبا بكر «أهلاً» لهذا «الأمر» على النحو الذي يعنيه أبو سفيان ويحرض على انتزاعه. . ذلك لأنه الأمر الذي ينظر إليه سيد بني أمية من خلال النزعة القبلية لا من خلال «العهد» النبوي فيراه رهن عزة العصبية قبل أن يراه رهن القولة النبوية وعدالة الأحقية. . أو لأنه «الخلافة» على مقتضى التفكير الدنيوي الطموح لا على مقتضى الإيمان «العقيدي» السليم. . ومن ثم فإن «أهلية» الصديق هنا ليست سوى أهلية الأمر الواقع التي اكتسبها أخو تيم من بيعتي السقيفة والبيعة العامة. . . أو هي ليست سوى أهلية لإمرة قد تعني «الحكم» وقد تعني «السلطان». وقد تعني «الملك» وما إلى ذلك من مترادفات السطوة والسيادة والسلطة، ولكنها لا تعني قط «الإمامة» أو «الولاية» على المسلمين على الوجه الذي يرتئيه الإمام وينطوي عليه عهد الرسول. ولا أدل على حقيقة مفهوم «الأمر» عند الشيخ الأموي على الهيئة التي أسلفناها، من ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين العباس من بضع سنين، ومحمد يزحف بجيشه اللجب لفتح البلدة الحرام. .

يومئذٍ وقف الرجلان بخطم الوادي عند مدخل الجبل يشهدان من بعيد جنود الله وهي تنساب إلى مكة فرقة فرقة وقبيلة قبيلة. . فلما أن مرت إزاءهما الكتيبة الخضراء[١] لا يرى من رجالها إلا الحدق من الحديد، راع منظرها سيد بني أمية فسأل صاحبه وهو مبهور:

«من هؤلاء؟. .».

قال العباس:

«هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. .».

فازداد روعة وقال:

«ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة!. . يا أبا الفضل. . والله لقد أصبح «ملك» ابن أخيك الغداة عظيماً!. .».

فرد العباس:

«يا أبا سفيان. . إنها النبوة!. .».

فما لعاجب يعجب لو أننا رأينا الشيخ الأموي لا ينظر إلى الخلافة إلا على أساس أنها ملك وسلطان لا على أساس أنها «عهد» من الرسول ما دمنا رأيناه من قبل ينظر إلى «النبوة»، نفسها المنزلة من عند الله، على أساس أنها أيضاً ملك وسلطان!. .

أم من ذا الذي يحسب أن مفهوم الخلافة، كرياسة عليا، من حقها حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية نيابة عن النبي[٢]، كان يملك على أبي سفيان آفاق تفكيره أو يملأ خواطر الكثرة من المسلمين إلى قمة الإيمان، بل قاع الإيمان!. . لو كان، إذن لما رأيناهم يقرنونها بالعصبية القبلية، ويجعلونها لها تبعاً، تصح بها قبل غيرها، أو دون غيرها، من الأسناد والمقومات. . يستوي في هذا المهاجرون الذين أخذوها

(١) د. محمد حسين هيكل: «حياة محمد».

(٢) علي عبد الرازق: «الإسلام وأصول الحكم».

بانتسابهم لقريش، والأنصار الذين فقدوها لاختلافهم على أي فريقيهم: الخزرج والأوس أعز بالأحساب والأرومات!..

(٨)

وعلى شاكلة موقف الإمام من تحريض أبي سفيان، كان موقفه من تداعي بعض طوائف الأنصار إلى السعي إليه نادمين أن خذلوه، وعارضين نزوعهم عما فرط من بيعتهم للصديق..

قيل:

«لما بويع أبو بكر، واستقر أمره، ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته، ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب، وهتفوا باسمه... ».

لكن الإمام لزم داره، ولم يخرج إليهم.. وفيم خروجه إلا أن يكون هذا الخروج مؤذناً بالإنقضاض، مشعلاً للنار في الهشيم؟..

واعتزلت جموع الأنصار إذ أبى علي النداء..

غير أن «الحزب الآخر!» لم يهدأ له بال بعد هذا الإعتزال. إنما ناشتهم الوساوس وتخطفتهم الظنون.. بل استأسرهم خوف مكنون!..

قيل:

«... وجزع «المهاجرون».. وكثر الكلام، وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل.. وهم أشراف قريش الذين حاربوا النبي ثم دخلوا الإسلام وكلهم موتور قد وتره الأنصار..».

وغالى ذوو الغل هؤلاء في مهاتراتهم ما شاءت لهم الأحقاد حتى وقعت بين طائفتي المسلمين ملاحاة أوشكت أن تغدو فتنة تشرخ جدار الإسلام..

عندئذ خف الإمام لوأد الخطر..

لقد علم أن أبا سفيان، وهو يشارك رجال الحزب الموتور حملتهم على الأنصار، إنما كان يمالئه ويدعو إليه، بدافع العصبية لحظة قال:

«. . . إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقروا بفضلنا عليهم. . وأيم الله لئن بطروا المعيشة، وكفروا النعمة، لنضربنهم على الإسلام كما ضربونا عليه. . فأما علي بن أبي طالب فأهل والله أن يسود على قريش، وتطيعه الأنصار. .».

لكن الإمام لم يلتقم الطعم!. .

وعندما ذهب إلى المسجد، واجتمع إليه خلق كثير، أبى أن ينبس بكلمة واحدة يدعو بها إلى حقه في خلافة الرسول وإن الجو لمهيأ عندئذ للدعوة والبيان. . بل رصد كلامه كله على دفع عادية ذلك الحزب الموتور عنهم، وذكر فضلهم في نشر الإسلام، مختتماً حديثه بأن تلا قول الله:

«والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. .».

ثم قال:

«. . . إنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار. .».

بلى، قد أبى على أصحابه أن يتناولوا بيعة أبي بكر - بعد أن استقر أمره - بالكلمة اللائمة العاتبة فضلاً عن الحركة المثيرة المؤلبة. .

قيل:

أنشد بعض ولد عمه أبي لهب بن عبد المطلب شعراً يذكر فيه قدر علي، ويؤكد حقه، ويمس به مساهينا رفيقاً أولئك الذين أجحفوا به، وتخلوا عنه. . يقول فيه:

«ما كنت أحسب أن الأمر منصرف	عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلتكم	وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهداً بالنبي ومن	جبريل عون له في الغسل والكفن

ما فيه ما فيهم لا يمترون به   وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردهم عنه فنعمله   ها إن ذا غبننا من أعظم الغبن».

فلما علم علي، أسرع فبعث إليه فنهاه، وأمره ألا يعود وقال:

«سلامة الدين أحب إلينا من غيره..».

فيما تجيئنا مثل هذه الأخبار إن لم تجئنا بحرص الإمام أعظم الحرص على توفير السلام للأمة، والسلام لنظام الحكم البكري وإن كان نظاماً قد قام على أنقاض حقه المعلوم؟..

ذاك دائماً كان موقفه من الوضع السياسي القائم عقب البيعة «الجامعة» التي أبرمت لأبي بكر بعد ما تمخضت عنه السقيفة. وهو موقف لا نظنه تغير في حلبة الحياة العامة أو طلع منه على الجماهير بما يثير. بل قد ظل ثابتاً عليه، متمسكاً به كرأي شهادة الوقائع، ودلالة الأسناد..

مثالية سلوك!..

فإذا لج في هذه الحقيقة، بعد هذا كله، لجوج وتساءل: «وفيم إذن كان سعيه وفاطمة إلى منازل الأنصار يطلب منهم نصرة لا معنى لها إلا الاستعداء؟.. فإن الميسور كل اليسر أن يتكشف لبدائه العقول - استناداً إلى حرفية النصوص، واستنباطاً من مسيرة الأحداث - أن المعقول أن يكون ذلك السعي إنما حدث في مساء يوم السقيفة وليس بعده.. وغير المعقول ألا يكون!..

ولا شبهة..

ذلك لأن الرواية تقول إنه خرج ليلاً.. وليس من ليل أنسب بخروجه لاستنهاض الأنصار من مساء يوم بيعة السقيفة وهم بعد من ولائهم لهذه البيعة ما زالوا على حرف قد أسف بعضهم لما فرط من تنكرهم لرجلهم سعد بن عبادة، وقعد بعضهم إلى جواره عن الإقرار بجدارة الصديق..

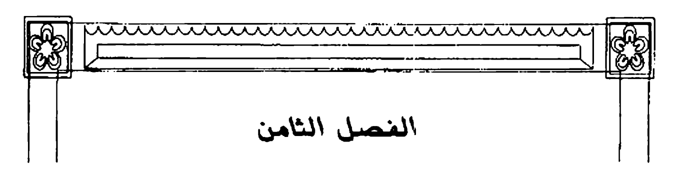
ولأن خروجه في هذا الليل له حافزه القوي، ما دمنا نعلم أن كثرة ضخمة من المهاجرين، على رأسها بنو هاشم وبنو أمية وبنو زهرة - كما سلف

القول - لم تكن عندئذ راضية عن بيعة السقيفة.. وربما لو رشدت عندئذ لأدارت فكرها في حق علي ثم لمالت إلى تأييده إن نحن نأينا عن القول بأنها - ربما - كانت أميل إلى هذا التأييد..

ولأن خروجه في ليل لاحق يصل بنا إلى اليوم التالي - وربما يجاوزه - وفي صبحه تمت البيعة الجامعة لأبي بكر.. وليس بالسائغ عقلاً أن يحاول الدعوة لنفسه بين أقوام قد اجتمعت كلمتهم - اختياراً أو قسراً - على التخلي عنه.. وليس بالسائغ أيضاً أن يسلك مسلكاً كهذا يناقض كل المناقضة مواقفه الرافضة إزاء تحريض أبي سفيان، وإزاء هتاف طوائف الأنصار..

والواقع أن الأمر في غد السقيفة بدا كأنما استقر لأبي بكر، ولم تعد ثمة فرصة لتعديله والمراجعة فيه، لأن أخا تيم فرغ في ضحاه من تسجيل آخر كلمة في قصة فوزه بالخلافة، وكسب - كما يقول التعبير الدارج - الجولة الأخيرة!.. فأي مناوئ إذن له يصبح كمن يحارب الأشباح.. وأي مغالبة لإمرته هي قبض الريح!..





الفصل الثامن

(١)

لم تسلم البيعة لأبي بكر من اختلاف عليها واختلاف عليه.. لكنه الإختلاف الذي لا خطر فيه.. فلا عبرة بذلك الموقف المضاد الذي وقفه نفر ذوو شأن من أجل صحابة رسول الله من أبي بكر، أمثال عمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وخالد بن سعيد، وآخرين غيرهم - من الألى عرفوا بين المسلمين بأن لا هوى لهم في نشب رغبة في منصب، ولا نزوة ولع بجاه - إيماناً منهم لا يتزعزع بحق علي بن أبي طالب في تراث محمد، وأخذاً بمبدأ الإنتصار للحق أينما دار..

ولا عبرة أيضاً بتلك الانتفاضات المنتقضة الغاضبة التي ولدها السخط في نفوس بعض الزمر، ودفع بها إلى حيث همت بإهدار بيعة رأتها عشوائية أو متعجلة، وجرى في خواطرها أنها قامت عن غير مشورة من جمهور المهاجرين فضلاً عن جماعة المسلمين.

لا عبرة بهذه ولا بتلك من الانتكاسات وردود الفعل العرضية الفردية، أو الشبيهة بالفردية.. وإنما حسبنا، في هذا المقام، أن ننظر إلى حركات العرب الجماعية الخارجة على النظام في تلك الأيام.. فإذا من بينها، حين نتقصاها، ما يظهر في صورة امتناع عن أداء الزكاة.. ومن بينها ما يبين في صورة إرتداد عن الإسلام أو ما يبدو كالإرتداد.. ومقتل[1] مالك بن نويرة

---

(١) «أمر خالد بن الوليد بقتلهم بتهمة الردة بينما شهد بإسلامهم أبو قتادة وعبد الله بن عمر - السيد أمير محمد الكاظمي القزويني: «نقض كتاب الصواعق المحرقة».

وأصحابه من بني ثعلبة يوشك أن يصور الردة ثوباً فضفاضاً اتسع لمن صبأوا حينئذ عن دين الله، ولمن لم يصبأوا أيضاً وتحروا مصلحته[١] على السواء.

ويجوز - بهذه النظرة - أن يقال إن الوجه الآخر لبعض هذه الحركات يكاد يطالعنا بأنها أبعد من أن تحسب من قبيل الخروج من حظيرة الإسلام، أو الإنشقاق من وحدة أهله منها إلى أن تحسب حركة سياسية تتمثل في هذا التمرد على سلطة الحاكم الجديد الذي فرضته عليهم ظروف استثنائية لم تكن في الحسبان، أو جاءتهم به «أهلية» للخلافة لم تجل بالأذهان.. يساند هذا ما نعلمه ظل عالقاً ببعض الأذهان من تلك السابقة التي وقعت في عهد الرسول..

فلقد جاء في سنن أبي داود، عن جابر بن عبدالله، قال:

«اشترطت ثقيف على النبي، ﷺ، إذا دخلت الإسلام أن لا صدقة عليها - أي زكاة - ولا جهاد. فقبل النبي إسلامهم على هذا، وقال: «سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا»».

وقد صدق رسول الله.. فإن ثقيفاً حين دخلت في دين الله، وخالطت بشاشة الإسلام قلبها، انقادت لشريعة هذا الدين ظاهراً وباطناً، حتى أنه حين ارتدت معظم قبائل العرب عن الإسلام، بعد وفاة النبي، لم ترتد ثقيف، بل كانت جنداً من جنود الله الذين حاربوا أهل الردة، وقضوا على هذه الفتنة العمياء..

ومع ذلك فمن الممكن اعتبار المعارضة التي استقبلت بها بيعة أبي بكر مجرد معارضة محدودة لا تعدو أن تكون ظلال اختلاف عليه، أو أطياف تعبير استنكاري أقرب إلى السلب منه إلى الإيجاب..

ونعود إلى ما نحن بصدده من حديث عن خلافة أبي بكر فنقول:

---

(١) مالك وادع سجاح. وليست الموادعة من الردة في شيء.. إنما كانت منه لمصلحة المسلمين ليرد سجاح عن غزوهم - محمد رضا المظفر: «السقيفة».

يروي التاريخ:

«. . . وإذا كان الغد من ذلك اليوم - يعني يوم السقيفة - جلس أبو بكر على المنبر. . وتقدم ابن الخطاب فتكلم قبل أبي بكر. .».

وكان كلامه، بطبيعة الحال، دعوة للناس صريحة لتأييد رفيقه الأثير:

«. . . إن الله قد جمع أمركم على خيركم. . صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار. . فقوموا فبايعوا. .».

وتنتهي قصة فوز الشيخ بالإمرة بأن تقول:

«. . . فبايع أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة».

ومع ما سلف من إقبال الناس بأكفهم على كف أبي بكر: بعضهم رضىً وطواعية. . وبعضهم كرهاً ورهبة. . وبعضهم حسداً وغيرة. . وبعضهم رضوخاً للأمر الواقع. . وبعضهم انسياقاً لغريزة القطيع، فإن ما لا يستطاع إغفاله، هو أن بيعة السقيفة قد تبدو على نحو من الأنحاء، وكأنها لم تكن بيعة مدركة واعية. . سافرة ظاهرة. . عامة تامة. بل كانت - حسبما يقود التدليل ويهدي التحليل - أميل إلى الظهور كبيعة متسرعة عجلى. . مجهولة متسترة. . منتقصة الأشهاد، قاصرة التأييد.

ولا غرو. .

فليس إغراقاً مسرفاً في الخيال، ولا انقياداً أعمى للخصومة أن يجدها هكذا كثيرون. .

بل السهل الهين أن تبين للرائي الفاحص قد افتقرت للروية، ونزعت إلى تخطف النصير المؤازر تخطفاً يبعد كثيراً عن نطاق الإقناع وكان الأولى بها الإتئاد الذي يتيح تقليب الآراء على شتى جوانبها وصولاً إلى القرار الأصوب الأحرى بالاتباع، ما دام الأمر يتعلق بمصير أمة لمدى جيل وربما أجيال، وليس بمصير حاكم أو أمير. .

وأن تبين وهي أشبه بأن تكون تنفست نسمة الحياة خلف رتاج مغلق أو ستار مصمت كثيف، يخفي ما وراءه عن أنظار الكثيرين وعن أفكار

الأكثرين.. فلم يتوفر لها ركن العلانية حق التوفر.. ولا تحققت فيها مشاركة جملة قادة الرأي في المسلمين لا بالمناقشة ولا بالحضور، لأنها لم تكن على ملأ الناس..

وأن تبين وما استقطب بها الشيخ التيمي إلى صفه غير «جماعة» من الأنصار، مهما كبرت كتلتهم، وثقل وزنهم، فإنهم لم يكونوا «كل» الأنصار.. وغير نفر من المهاجرين، مهما قيل في عددهم وفي أقدارهم، فإنهم لم يزيدوا على آحاد لا يبلغون ما بين الخنصر والإبهام في كف حسيب..

وأن تبين - كصورة واقعها المعلوم - وهي «بعضية» أو جزئية، لم يدل بها غير فريق من الأمة دون فريق يبرزه عدداً ومكانة قد حيل بينه وبين حقه المشروع في حرية الإدلاء بالبيعة لمن يريد، ما دمنا نأخذ بالرأي القائل بأن البيعة إنما تتم بإجماع أهل الحل والعقد أو عن مشورة المسلمين..

وأن تبين وهي «بدئية» أولية. فلم تكن - في اعتبار طائفة كبيرة - قطعية نهائية، لأنها لم تصل إلى غاية طريقها الطبيعي الذي يتوفر لها بوصولها إليه عنصر الإبرام نتيجة اتفاق ختامي عام..

فهلا يظن أنها، من هذه الناحية، تكاد تماثل ما تم لسيد الخزرج: سعد ابن عبادة، في نفس اليوم، بنفس المكان؟..

لتكاد..

فلقد ورد أن الأنصار، لما قبض رسول الله، اجتمعت في سقيفة بني ساعدة تتشاور، فتكلم فيهم سعد يذكرهم دورهم في حماية رسول الله، وإعزاز دين الله، وقهر أعداء الله..

يقول سعد:

«... فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم... حتى أنجز الله لنبيكم الوعد، ودانت لأسيافكم العرب.. ثم توفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير عين..».

ثم يقول:

«.. .. فشدوا بأيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به..».

فأجابوا جميعاً:

«وفقت في الرأي، وأصبت القول.. ولن نعدو ما أمرت.. «نوليك» هذا الأمر، فأنت لنا مقنع، ولصالح المؤمنين رضا..».

أو ليس في فحوى حديثه إليهم، وردهم عليه، ما يعني صراحة أنهم قد لبوا دعوته، وأيدوا نظرته، وارتضوا طاعته، ،أعلنوا - عن قناعة - قبولهم «ولايته» عليهم، وقلدوه - من أجل صالح المسلمين - من «الأمر» ما كان قبله بيد الرسول؟..

وما هي «البيعة» إذن إن لم يكن جوابهم هذا الذي أجمعت ألسنتهم عليه - طواعية ورضا - هو بيعة اختيار وإقرار؟..

وهلا يمكن القول بأن «الإمرة» قد انعقدت عندئذ لشيخ الخزرج: سيد الأنصار، ما دام العقد - أي عقد - هو تلاقي إرادتين في هيئة عرض من طرف وقبول من آخر، وقد تم هنا التلاقي وتوافر الشرطان؟..

كيف لا؟..

ثم يؤكد هذا ما بدر من بعد في السقيفة من بشير بن سعد، عندما احتدم الحوار بين عمر بن الخطاب والحباب بن المنذر خلافاً على أي فريقي المسلمين: المهاجرين والأنصار أولى بالأمر، إذ مال حينذاك حسد بشير لابن عمه سعد إلى تأييد جانب أبي بكر وتغليبه على كبير الخزرج الذي كان أصحاب السقيفة قد أجمعوا على تأميره منذ قليل..

تقول الرواية التي تقص علينا نبأ تلك النفس المغلولة، نفس بشير:

«.. .. فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما «اجتمعت[1]» عليه

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

الأنصار من «تأمير» سعد - وكان له حاسداً، وكان من سادة الخزرج قام فقال..».

ولا تعنينا حرفية ما قال. لكن يعنينا تأثيره في نفوس السامعين، الذي أنضج ثمرة سامة مرة أفسدت على ابن عمه الإمرة التي أولته إياها كتلة المجتمعين بالسقيفة من الأنصار بالإجماع أو بما يداني الإجماع..

ومع اتفاق أهل السقيفة على سعد، كما رأينا، وإدلائهم إليه بالأمر، فإن أبا بكر قد اقتحم على الزعيم الخزرجي بيعته غير متحرج، فأطاح بها من بين يديه، واجتباها لنفسه خالصة.. ولم نسمع قط أن أحداً - إلا الإمام في معرض دفاعه عن نفسه - قد أخذ على الشيخ التيمي هذا الإقتحام.. ولعل سر تجاوز الرواة والمؤرخين عن هذه الفعلة وإهمالها دون تحليل أو تعليق، إنما يرجع إلى ما غلب عندئذ - وإلى الآن - من أن البيعة لسعد بن عبادة على نحوها ذاك، قد كانت «بدئية» أولية، يجوز أن يعاد فيها النظر، وأن يعدل الخيار..

فإذا رؤى علي، في تلك الآونة المضطربة، يحاول تناول بيعة أبي بكر في السقيفة بالمراجعة، فلا لوم عليه، لأنه كان يسير حيالها في الحقيقة، على نفس المنهج الذي سبقه إليه الصديق..



(٢)

الجدير بالذكر، بل الأجدر الأولى - وعلى أساس نواقض بيعة أخي تيم الأولى - أنها بيعة قامت على حجة محجوجة ودليل مدحوض لا يتعذر اختصامها على أيما امرئ يعمل فكره في بيان صاحبها الذي استطاع في السقيفة التغلب على سعد، واحتلابه تأييد الأنصار..

ففي نص بيانه، وبمنطق لسانه، نجد أبا بكر يعلن احتجاجه على الأنصار أن مضوا في بيعة رجلهم شوطهم ذاك، فيقول:

«. . . نحن - المهاجرين - أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله. . وأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش».

فلا نجده، بإعلانه هذا، إلا قد احتج بالحجة التي لا يغيب عن النظرة العابرة - دع الفكر المتأمل - أنها لا تحسب له بل تحسب عليه. .

ولا نجد أقوى دلالة على يسر اختصام حجته هذه، وخفة وزنها، وتهافتها، من كلام الإمام الذي تفيض به الأسفار. .

تنقل رواية أن علياً رضوان الله عليه، استفسر القوم حجتهم على الأنصار يوم السقيفة. . سأل:

«. . . وماذا قالت قريش».

قالوا:

«احتجت بأنها شجرة الرسول».

فرد بإيجاز ساخر يغني عن كل إسهاب جاد:

«احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة. . . .».

وتنقل رواية أخرى أنه حين أرادوه على البيعة حتف رغبته لأبي بكر، رأى فيما أرادوا إكراهه عليه قلباً للوضع الطبيعي إلى وضع شاذ، فرد تجنيهم، دون أن يزحزحه تكاثرهم عليه من مكانه كالذي غرس قدميه في الأرض وقال:

«. . . لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي. . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله. . فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار».

أجل، قد جاءت بيعة السقيفة، كما تتبدى لمن يمعن النظر فيها، بدءاً ونهاية، وهي بدئية أولية. . فلم يفسح المجال فيها لتناول الآراء على وجه الحرية التي تضمن صدق المفاضلة ودقة الاختيار. ثم سارع القوم إلى عقدها دون تمحيص، فلم يقر القرار على مدارسة الأسباب والعقابيل. . ويحسب من شاء تبين هذه الحقيقة أن يستحضر قولة ابن الخطاب التي وصف بها هذه

البيعة، فإذا هي الوصف الذي لا يؤيدها بقدر ما ينقدها، ولا يساندها بقدر ما يدحضها أو يوشك أن يجمع لها من مواضع الخلاف والقصور ما يغني الغناء كله عن المعابة والتجريح..

يصفها عمر فيقول:

«كانت بيعته أبي بكر فلتة وقى الله شرها..».

وليس هذا ما يقال في وصف بيعة لزمت النهج الواضح السوي، واتفقت على صحتها النظرات، لأن الفلتة لا تكون إلا في النادر الشاذ الذي يخالف الطبيعي المعقول..

ثم لا مكان أيضاً للاختلاف على أن الأحق بالخلافة - فضلاً عن قرابته للرسول - يتبدى لنا من خلال التوصيف البكري متميزاً بملامح دينية واجتماعية وسياسية يحددها شيخ بني تيم في بيانه فلا يشير تحديده، بظاهر معناه وباطنه، إلا إلى الإمام من دون الناس أجمعين حتى لنحسب المتحدث يومئذ بهذه الملامح المميزة إنما كان - بتعبير يومنا هذا - هو العقل الباطن لأبي بكر لا عقله الواعي، أو النية المستسرة لا العبارة الملفوظة التي قد لا تسلم من عبث التأويل!..

ولعل هذا هو الذي كان..

فثمة رواية تشي بنية ابن أبي قحافة تقول:

«مر المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر وهما جالسان على باب النبي حين قبض.. فقال:

«ما يقعدكما؟..».

قالا:

«ننتظر هذا الرجل - يعنيان علياً[1] - يخرج فنبايعه..».

فيقول المغيرة، مكنياً عن حداثة سن الإمام، ومنكراً عليهما ما ينتويان:

---

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

«أتريدان أن تنظرا حبل الحبلة[١] من أهل البيت؟.. وسعاها في قريش تتسع».

في هذه الأضواء ليس بمستعص على من يريد تفهم الحقيقة أن تلوح له بيعة السقيفة وهي قابلة للمراجعة والتعديل.

فهي لم تكن ملزمة ما دام رأي وفرة من الأمة - أو أهل الحل والعقد - وفي مقدمتهم أجلة صحابة رسول الله، لم تشارك فيها بنصيب.. ومن هنا يأتي ذلك التأبي على قبولها وما تفتق عنه، فور حدوثها، من طعن سافر في صحتها ما لبث أن تمخض على الأثر، ومن بعد إلى مدى محدود، عن حركات مناوئة: خفية وعلنية، كانت ترمي إلى نقضها وإعادة الأمر للمسلمين يتناولونه من جديد..

غير أن البيعة الجامعة، في اليوم التالي، عاجلت بحسم الأمور قبل أن تستطير، فخمدت جذوة تلكم الحركات المناهضة المنتقضة، وهدأ الجو، وإن بقي بعد الخمود والهدوء أثر دخان ورماد عالقاً في الهواء..

والغالب على الظن أن أحداً من الناس، بالغاً ما بلغ رأيه من الإقرار بصحة بيعة السقيفة لا يستطيع - في مواجهة نواقضها - أن يدعي لها الصفاء من شوائب المؤاخذة والإرتقاء إلى مستوى وسط، لا عال، يناهز مشارفة حد المعقول في مدارج السلامة والإكتمال. ومع ذلك، فمن العسير إنكار أنها نجحت على خير ما يتوقع النجاح.. واكتسحت في طريقها المعارضة والمعارضين اكتساح إعصار مجتاح على الرغم من أنها كانت حرية بالوقوف من الظروف المحيطة بها وظهرها - كما يقال - إلى الجدار!.. فقلة نسبية كانت في صفوفها، وكثرة نسبية كانت في الصفوف المناوئة لها على الجانب الآخر من الميدان. وهل عقدها الأنصار بكلا جناحيهم: الخزرج والأوس؟.. أم هل عقدها الألى عقدوها منهم ومعهم «جميع» السادة والقادة المهاجرين؟..

---

(١) نتاج النتاج وولد الجنين: «الصحاح».

لكنها جاءت، بلا مراء، وليدة دهاء.. فلقد أنجبها «الإنحياز البكري» الذي أسلفنا خبره، واسفر عنها مخاض الأحداث منذ انحاز من قيل إنهم «المهاجرون» إلى أبي بكر ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، أولئك الجناح الثاني لطائفة الأنصار.. وكم ظهر ذلك الانحياز كأنه «لعبة» بارعة غاية البراعة، ألهم الموقف المتأزم أبا بكر المسارعة إلى أدائها، فإذا هو يتقن الأداء كل الإتقان.. وكم عرف الرجل - كما استجاش رفيقيه: ابن الخطاب وابن الجراح - كيف يستجيش أثناء اللعبة وقبل انطلاقه إلى السقيفة ذلك الشطر الكبير من الأنصار..

وضرب يومئذ ضربته..

باصطلاحنا المعاصر - كان ما قام به «مناورة سياسية» تملك بها القدرة على المبادرة والمبادأة قبل أن يبتدره بادر ويبدأه بادئ فغدا وفي وسعه أن يخف، غير مناوئ، إلى تفتيت كتلة خصومه وتثبيت وحدة أعوانه صوناً لخلافة المسلمين أن تتسرب من بين أصابع مهاجرة قريش الأوائل وتقع في أكف من هم دونهم شرفاً وسابقة من مواطئ الدولة الجديدة..

وحالف التوفيق..

فإن يكن هذا هو ما ألهمه الشيخ التيمي، وما هدف إليه، وما سعى له سعيه الخاطف، وما استطاع عندئذ إنجازه، فإنه إذن لضرب من البراعة السياسية تكشف عنه تصرف أريب داهية، فذ الإرب، وامض الذكاء، عبقري الدهاء..



(٣)

ولقد كان..

ولا عجب أن كان..

فأيسر ما ينعت به ذلك «الإنحياز البكري» أنه حركة عازمة حازمة، مدركة واعية، قد علمت في اللحظة المناسبة حقيقة الدور الذي ينبغي أن تقوم به.. وموقع القصد الذي ترنو إليه.. وطبيعة الطريق الذي تمضي فيه..

إن مبادرة أبي بكر إلى الإنتفاع بهذا الإنحياز أشبه شيء بإحدى المعارك الحربية الفاصلة التي غيرت وجه التاريخ.. إنها تمثل لنا صراعاً عنيفاً مع الزمن.. سباقاً حتمياً لا بد له من دخوله. حلبته ممدودة كأنها بلا نهاية، ومدته محدودة، كأنها لحظات، عليه أن يطوي مسافاته الفكرية والنفسية الشاسعة بمثل سرعة عصف الأعاصير، وانقضاض الصواعق، ولمح الأعين، وطرف الأهداب، لأنه لا مناص فيه من سابق يتسنم ذروة السحاب، ومسبوق يلفظه حظه العاثر إلى الضياع.

وكانت الغلبة في تلك اللحظات تبحث لنفسها عن معسكر من اثنين.. تطمئن إلى سلامة وضعه وانتظام خطوطه، تتدجج فيه بالسلاح وتتدرع بصلابة الكفاح..

كانت تتأرجح بين المهاجرين والأنصار، تأرجح كفة ميزان لما يستقر بها الرجحان..

وكانت المسألة التي تشغل، بلا ريب، خاطر قائد الإنحياز وقطب رحاه هي: «أتكون قريش أم لا تكون..».

وليس حدساً من الحدس أن يرى راء أبا بكر في هيئة من يداور ويناور ليخضد شوكة غرماء أو ليكسب تأييد أولياء.. ما هو بوهم واهم، ولا بادعاء مدع، ولا بظن ظان..

فالرجل الكبير لم يكن ذلك الذي يتخلى، غفلة أو اختياراً، عن لحظة

واحدة من الزمن، ويتركها خاوية، أو يدعها تتبدد كدخان في الهواء دون أن يشغلها بما يريد.. ولم يكن أيضاً ذلك الذي يتردد أي تردد في التحكم في الأحداث فتنقاد بغير قياد.. إنما كان يجهد، غير وان ولا مستهين، ليمسك ببنانه ونواجذه كل خيوط الأمور يمد منها ويرخي ما شاء، متى شاء، كيف شاء..

بصفاء ذهنه اللماح، وباستشفافه ما يدور حوله، كان يدرك تمام الإدراك كيف يعمل في نور توقعات سليمة تحيط كالسياج بكافة الاحتمالات المنظورة والمستورة لأي حادث أو سلوك. فإذا هو عندئذ لا يعسر عليه أن يفاضل بين مختلف الأوضاع والاتجاهات.. وإذا هو يسعه أن يحسن الإنتقاء من بينها والاختيار.. وإذا هو يستطيع، بالمفاضلة والإنتقاء، أن يفيد من توافهها إفادته من أعاظمها، فيسخرها جميعاً في تحقيق الأنفع والأرشد قبل النافع والرشيد.

على هذا الأساس كان أبو بكر قادراً على أن يسير فوق أرض صلبة لا تهتز تحت قدميه ولا تنهار. طريقه المشقوق بين حزونها وروابيها معلوم، ممهود بلا عقبات، مبسوط بلا عراقيل..

إنه، مما يلوح من تصرفاته، ليؤمن بالثبات ولكنه يكفر بالجمود. ويؤمن بالتروي ولكنه يكفر بالتردد.. إن اتأد وتمهل فعن غير اضطراب.. وإن أسرع أو هرول فدائماً إلى الأمام.. لا يعرف الإحجام. وقد يؤثر الاقتحام حين يكفي الإقدام..

والشاهد موجود..

ولا جرم..

والذين قد ينكرون على الشيخ التيمي الجليل قدراته الطبيعية - إذ يغفلون ذكاءه ودهاءه واستشفافه التوقعات السليمة لنتائج الأحداث - يغير نظرتهم هذه، لا محالة، ما كان من موقفه عقب البيعة العامة من بعثة أسامة ابن زيد إلى الشام..

حينذاك كانت قبائل العرب أخذت تدير ظهرها لما قادته إليها دعوة

الإيمان وتقترب من شفا الهاوية.. كانت على حافة انقلاب روحي مدمر.. لكأنما فتنها موت محمد، وأغراها اختفاؤه عن دنيا الناس فبدأت السير في رحلة الانتكاس.. لكأنما بهرها وأعشى بصيرتها نور الإسلام فراحت، اتقاء وهجه - تغمض القلوب والعقول.. لكأنما عاودها الحنين إلى حياتها الإنعزالية السابقة وضاقت برباط الوحدة الجديد، الذي وثقت به رسالة الهدى ما بينها، ورأت فيه قيداً على «حرية الفوضى!» - التي كانت تعيشها لاهية عابثة، في جاهليتها - يحول دونها ودون ذلك التشرذم القديم..

وكالنار في الحطب الجاف انتشرت حركات الانتفاض تغطي كل جوانب الجزيرة العربية، طولاً وعرضاً، من أقصاها إلى أقصاها.. بعضها امتناعاً عن أداء الزكاة المفروضة، وبعضها خروجاً على النظام القائم. وبعضها طمعاً في السلطان الذي غاب منشئه وراعيه وبعضها ردة عن دين الله بولغ في وصفها حتى قيل إن العرب قد ارتدت قبيلة قبيلة إما القبيلة مستوعبة، وإما بعض منها حتى لم يبق على الإسلام سوى قريش وثقيف[١]. وبات الثابتون على دين محمد - لقلتهم، وكثرة عدوهم، وإظلام الجو حولهم بفقد نبيهم - وهم كالغنم المبرودة المذعورة في الليلة القارة المطيرة..

ولم يكن جيش أسامة، الذي أعده رسول الله قبيل وفاته لغزو الشام، قد تحرك بعد من معسكره بالجرف قرب المدينة. فوجد المسلمون فيه ردءاً لهم، خليقاً بأن يحمي بلدتهم، ويرد عنهم غائلة أي هجوم عدواني قد تباغتهم به عصابات الخارجين والمرتدين.. ومن ثم فلم يكد أبو بكر يأمر القائد الشاب أن ينطلق بجنده إلى حيث أراد لهم النبي الإنطلاق، حتى هال الناس هذا الأمر الذي رأوه يعرض سلامتهم وأمنهم للخطر.. وانبرى من بينهم عديدون يفصحون لخليفة رسول الله عن اعتراضهم على رأيه، ولا يخفون عنه خشيتهم من تشتيت المسلمين وبعثرة قواهم في وقت عصيب كهذا هم فيه أحوج إلى التجمع والتكتل كحزمة من العصى منهم إلى التفرق والإنفراط..

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون: «تاريخ ابن خلدون - الجزء الثاني».

لكن الخليفة لم يقبل منهم..

بل قد أوشك ألا يصغي لهم ويصم عنهم أذنيه غير آبه لما يثيرون من مخاوف..

وأبرم مشيئته، وهو يقول بإصرار..:

«لا أترك أمر رسول الله حتى أخرج وأنفذه..».

فغارت ثائرة القوم في الصدور..

وسار هو مع الجيش يشيعه وقائده شوطاً من الطريق غير قصير..

وليس غريباً أن يكون ابن الخطاب بين أولئك المعترضين، إن لم نجده على رأسهم صاحب سفارتهم، الناقل عنهم رأيهم المخالف إلى خليفة المسلمين.

وليس غريباً أيضاً أن يحاول بمألوف صراحته الخشنة، وجرأته المتقحمة التي هي بعض طبعه - تصدر صفوف كثرة من المسلمين ودت لو وسعها إقناع أبي بكر بالإقلاع عن صلابته مع ما نعى الزكاة، وانتهاج طريق مهادنتهم وإمهالهم إلى حين، اكتفاء منهم بإقام الصلاة..

أما الخليفة فكان على غير ما اشتهى رفيقه.. إذ كان قراره قد قر على ركوب الوعر، بل الأوعر، من الأمور..

أبى إلا أن يكره ما نعى الزكاة على أدائها ولو بحد السيف..

وأبى إلا أن يسير المحاربين إلى جموع الخارجين على سلطانه وإلى قوات المرتدين من أشياع أدعياء النبوة كمسيلمة وطليحة وسجاح..

وأبى إلا أن ينفذ بعث أسامة بن زيد إلى الشام وإن كادت المدينة، بهذا البعث، تغدو عورة مكشوفة أمام عدوها المتربص بها هنا وهناك، لا يحميها منه ردء، ولا يسترها رداء..

وكان من الطبيعي أن يخشى عمر مغبة هذه «المغامرات» التي جازف بها صاحبه وبدت لفئة غير قليلة من المسلمين وهي رعناء وأكثر من رعناء.. وأن

يخشى، قبل هذا، خطر وقوعها كلها في نفس الآن، لأنها خليقة بأن تشتت القلة الباقية الثابتة على إسلامها من الأمة، وتبعثرها على الأديم المترامي للجزيرة العربية في كفاح متشعب مرجوح العقبى، متعدد الجبهات ضد أعداء يفوقونها عدداً وعدة، تموج بجموعهم الكثيفة قبائل العرب في مختلف الأرجاء من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. .

ومع هذا فلم يلتفت الخليفة لاعتراض المعترضين. . ولا ألقى بالا إلى مخاوف صاحبه المشفق الناصح. . وإنما أنكر عليه كل الإنكار لرأيه، وصاح به في استياء:

«. . . رجوت نصرتك[١] وجئتني بخذلانك. . أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟. . إنه قد انقطع الوحي وتم الدين. أو ينقص وأنا حي؟. .».

ومضى وما أبرم غير هياب. .

هنا قد تبدو الحكمة في اعتراض ابن الخطاب والذين تابعوه، كما قد يبدو الخرق في تصميم الصديق. . فإذا هو البدو الذي لا تجده يتأتى إلا من النظرة الفجة المتعجلة التي يخطفها بريق المظهر، فتعنى بمسح السطوح المكشوفة، وتغفل تعمق الأمور إلى الأغوار. .

وتلك مفارقة تنم عن مزية لأبي بكر تنطوي على حاسة للاستشفاف مرهفة، أو ملكة لإحكام التوقع ودقة التقدير لا يباريه في مضمارها من العباقرة والموهوبين - كثير. .

فالرجل ألمعي، صادق الحدس، لماح.

ولئن كان قد غاب يومئذ، كما لاح، عن ابن الخطاب ومن نهجوا نفس نهجه في الاعتراض أن يفطنوا إلى هذه المزايا في الشيخ، فلقد أنساهم الجزع أيضاً أنه كان حقاً امرؤا بعيد مهوى القاع. . .

كان نافذ النظرة إلى ما وراء الظاهر والمنظور. .

---

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية الصديق».

وكيف لا؟ . .

فأن يحتجز لديه قائده الشاب وجيشه عن الزحف على الشام، فإنه السلوك الذي كان ينبغي على كل حاكم بنفس موضعه، يستشعر الخوف أو الضعف، في مثل ذلك الوقت العصيب الذي انتكثت فيه الأمور أشد انتكاث على أثر وفاة رسول الله، لعل في احتجازهم دريئة لخطر معلوم أو مجهول . .

وأن يهادن المتأبين على أداء الزكاة، ولو إلى حين، حتى يفرغ لمناجزتهم أو تطويعهم بعد أن يقصف المرتدين، فإنه المتوقع المنتظر من كل حاكم متحوط حريص إن لم يكن هو الضرورة الملحة التي تقضي بها ظروف كتلك المنذرة بما قد يطوح بالأمة إلى البوار والدمار . .

لكن الخليفة لا يفعل . .

لا يأخذ بالإحتجاز ولا بالمهادنة كليهما، بل يهملهما جميعاً حتى ليبدو كأنما خفي عنه أنه هكذا يفتح الباب على مصراعيه أمام الأعداء، من أولئك وهؤلاء لاجتياح المدينة المكشوفة . . بل المسلمين . . بل الدين، إذ حرمهم درعهم الواقية، وتركهم عراياً مجردين أمام كل عاص وعابث وخارج على النظام والإسلام.

موقف عجيب يظهر وليس له من التحوط نصيب . .

فهل هو إهمال؟ . .

لمن يهوله الأمر يبدو ما فعله الخليفة وهو الإهمال كل الإهمال . .

لكنه، في الحقيقة «الفعل» المقصود العامد الذي أريد به الإيهام بوقوع إهمال . .

إنه الخطأ المحال! . .



(٤)

وأفصحت الأيام عما أكنت سريرة أبي بكر . .

فما لبث أن رأته أعين الغريم والحميم كمن لا يحفل بأعدائه . .

كمن يستهين بهم، من قرب منهم ومن بعد، ثم لا يخفي هذه الاستهانة عن العالمين . . لا بالقول الصارخ المتوعد، وإنما بالعمل العاجل المتدارك الذي يتكلم بلغة القوة والبطش والحديد بملء كفيه وملء فيه . .

فهو يضرب حيثما يريد . .

بردع القاصي يردع الداني . .

وبردع القوي . يردع الضعيف . .

وبردع القريب . يردع القريب . .

في الخارج والداخل يحارب، كأنما ذخيرته من الرجال والسلاح لا ينضب لها معين . .

وهلا يرهب العرب، داخل حدوده، أن يوطىء أسامة وجنوده أرض الشام وإنها عندئذ لفي حوزة سيدة دول العالم المتحكمة في مصيره: الامبراطورية الرومانية، فإذا القائد الشاب يوغل فيها إيغالاً يجاوز به المئات من الأميال، ويشارف مياه البحر المتوسط، بحر الروم، في الشمال.

وهلا يرهب أصحاب الردة الصابئين عن الإسلام ألا يترفق بالمتلكئين أو الممتنعين عن أداء الزكاة وهم مجرد عصاة لما يخلعوا رداء الدين . . بل يسرح إليهم الكتائب تغطي وجه الجزيرة بداهمة الحتوف وبريف الأسياف؟ . .

وهلا يرهب منافقي المدينة الذين يسرون في صدورهم المقت للإسلام والكراهية لأهله، أن يروه مستهيناً كل هذه الاستهانة بقوى الأعداء والمرتدين والخارجين ذوي الحول الشديد . . لا يعرف في لقائهم تراخياً، ولا يفكر في النكوص عن مجابهتهم وقمعهم وإن خطوة واحدة إلى الوراء؟ . .

كان يهاجم في كل مكان..
كان يفاجىء ويعاجل..
كان يقدم ويقتحم..

أوليس هذا تصرف القوي العزيز، وطيد الثقة، ثابت اليقين، عميق الإيمان بالانتصار قصر أمد الكفاح أم طال؟

أوليس الحري بأعدائه أن يرهبوه وإنهم لأحق بأن يحسبوه يخفي لهم في جعبته من صنوف الردع والتأديب ما لا يخطر لهم ببال؟..

فإذا لم تكن هذه هي «المناورة السياسية» البارعة.. فكيف تكون إذن براعة المناورات؟..

وإذا لم يكن الصديق، بصورته هذه، داهية.. فأين مثله إذن بين عباقرة الدهاة؟..

بمثل عتاد هذه المناورة التي أعدها أبو بكر - فيما نرى - من وراء الظنون، وعلى نفس الهيئة المفتقرة، ظاهراً، إلى الحرص والتحوط التي غرر بها بأعدائه، طالعنا الرجل يوم وفاة الرسول..

كان يعلم يومئذ أن المسلمين فريقان بارزان، لا يكاد يحسب لغيرهما من الناس حساب:

فريق الأنصار الذي انحاز في تلك الساعة إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة وقد أجمع رأيهم، أو كاد، على تأمير سيدهم الكبير..

وفريق «المهاجرين» الذي انحاز إليه هو، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، بمنحازهم الذي أشارت إليه الروايات.

ودع آل محمد من هذا التقسيم. فلقد غفلوا تماماً عن حركة أبي بكر، ثم تعففوا أيضاً عن المشاركة في معركة الاستخلاف، تسامياً بأنفسهم عن منازعة الناس سلطان محمد وهو بعد جسداً مسجى لم يجهزوه لمثواه..

على هذا غدت جماعة المسلمين، في تلكم الساعات السود، وهي من الوضع المنتظر حيال أحد أمرين: أن تساند هذا الفريق، أو تساند ذلك..

وكان نداء الدم، بطبيعة الحال هو الصوت المسموع. .

وكانت العصبية المترسبة في العروق هي التي ما برحت توجه السلوك. .

فإذا انطلق هذا الرجل من الأنصار إلى السقيفة لتأييد سعد بن عبادة في ادعائه الحق لقومه في خلافة الرسول، فإنه التصرف المتوقع المقبول. .

وإذا انطلق ذاك من المهاجرين فانحاز إلى أبي بكر انحياز غيره من أمثاله فلا حريجة عليه لو انحاز، لأنه المسلك الأليق به، والأليق له في نفس الآن. .

لكن الصديق - برهافة حسه، وقدرته الطبيعية على الاستشفاف - ما كان ليضع في حسبانه أن يأتيه «كل» المهاجرين طائعين، يساندونه لاحتياز الحكم وإنه ليعلم علم اليقين أن من بينهم من لهم هوى في «غيره» ولاء منهم لبيت النبوة وإبقاء على إمرة المؤمنين في الذي يرونه أحق بها من سواه. .

وما كان أيضاً ليضع في حسابه الاعتماد في مؤازرته لبلوغ سدة السلطان على قريش عامة وإنه ليعلم أن شيخها أبا سفيان بن حرب لم يكن - طائعاً مختاراً - ليدع له هذه السدة من دون بني عبد مناف. .

فعندما خطونا - فيما عرضنا له من قليل - بضع خطوات زمنية إلى ساعات تجهيز الرسول، وبضعاً أخريات مكانية إلى حيث كان الإمام حينذاك، رأينا سيد الأمويين، ومعه العباس بن عبد المطلب يعرض البيعة على علي، ضامناً له تأييد بني عبد مناف، فتأييد قريش، ومن ورائها تأييد العرب أجمعين. .

ثم لو أننا مضينا قليلاً بعد هذا الزمان، لما عدمنا أن نرى من له نفس النظرة ونفس الغيرة، على تراث محمد أن يفلت من أيدي آله. . وها نحن أولاء نشهد خالد بن سعد[١] أمير رسول الله على اليمن، ما أن يدخل المدينة

---

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

بعد البيعة لأبي بكر حتى يخف إلى عثمان بن عفان يلحاه أعنف اللحى أن قعد وأهله على الهضم وقبلوا الضيم وتركوا حقهم في الإمرة يتسرب منهم إلى من دونهم من الناس. .

يقول عاذلاً زارياً وهو ممرور:

«يا بني عبد مناف. . طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم. .».

كذلك ما كان أبو بكر ليضع في حسابه أن تجيئه النصرة التي تحقق له الفوز بخلافة المسلمين من آله: بني تيم. . فلم يكونوا، كما قد يبدو، بذوي الحول الذين يستطيعون حمله على أعناق الناس لو كان من المسلمين من يأبى عليه الخلافة أو يحاول منازعته إياها. . ومن اليسير أن نتبين مكانة تيم من وصف شيخ قريش لهم بأنهم أذل قريش. .

فإذا لاح أبو سفيان، برأيه هذا في جماعة أبي بكر، جانحاً إلى الصلف مائلاً إلى التجني، فما هو القول إذن لو جاءنا مثل هذا الذي نطق به لا في هيئة الإدعاء الذي يزوقه الواصم بل في هيئة الإعتراف الذي يسوقه الموصوم؟. .

ذاك ما حدث عقب موت الرسول. . وغب البيعة الجامعة. .

فقد اهتز أبو قحافة - وكان قد كف بصره - للنبأ الفاجع الذي فدح المسلمين، فقال وهو أسيف حزين:

«خطب جلل».

ثم سأل من كانوا حوله:

«فمن ولي الأمر بعده؟. .».

قالوا له:

«ابنك».

فاستفسر على ارتياب وتوجس:

«وهل رضيت بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟. .».

قالوا:

«نعم».

عندئذ قال كأنما اطمأن باله:

«لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع..».

وأشبه بهذا ما وقع من ذلك الأب ذات يوم بعد أن استتب لابنه الأمر.. فقد سمعه مرة رافع الصوت ثائراً، فسأل وهو لا يرى ما يدور:

«على من يصيح ابني؟..».

قيل:

«على أبي سفيان».

فعجب، وتحسس طريقه إلى أبي بكر، فلما قاربه، خاطبه منكراً عليه فعله:

«أعلى أبي سفيان[1] تصيح وترفع صوتك يا عتيق؟.. لقد عدوت طورك وجزت مقدارك..».

فرد الإبن ضاحكاً، يقول:

«يا أبت: إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل آخرين..».

ومع ما ينضح به هذا الجواب من شعور أبي بكر الصادق العميق باعتزازه بالإسلام الذي رفع شأنه إلى ما فوق هام أناس كان قبل إيمانه لا يحاذيهم بقدر، ولا يطولهم بفخر، فإن قوله يشي بأنه كان مفضولاً في حساب النسب والحسب في زمن كانت النعرة القبلية ما زالت تسيطر فيه على اتجاهات التفكير..

فهل كان الصديق، إزاء هذا كله، قادراً على أن يكتل المهاجرين كافة حوله؟ أو أن يجمع قريشاً على كلمته؟ أو أن يعتمد على قبيلته: تيم في دفعه إلى الأمام؟..

احتمال ربما يرد بالبال..

لكنه الاحتمال الذي قد يقرب من الإخفاق بقدر ما يبعد عن التحقيق..

---

(١) المسعودي: «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

فوزن قومه: تيم، ليس بالثقيل..

وميل قريش إلى رأي شيخها: أبي سفيان، منتظر ومعقول وأكثر من منتظر ومعقول..

وتكتيل المهاجرين الأولين حوله «أجمعين» متعذر أو محال..

أفكان يا ترى من الحكمة في هذه الظروف أن يدع سعد بن عبادة ينفرد في الميدان.. ينعم بالتفاف الأنصار كافتهم حوله: أوسهم وخزرجهم، كالسور أو كالسوار؟.

لئن فعل، فإنه إذن لمضطرب التقدير، قاصر الفكر، مرجوح الفطنة، أولى به أن يساس لا أن يسوس..

وما هو كذاك..

ومن هنا، فقد كان لا بد له، كخطوة أولى، أن يشدخ جدار الأنصار، أن يشق كتلتهم..

أن يخترق جبهتهم الحصينة..

أن يفتت وحدتهم «العصبية» التي يستطيع أن يرقى فيها صاحبهم: سعد إلى «إمرة المؤمنين..».

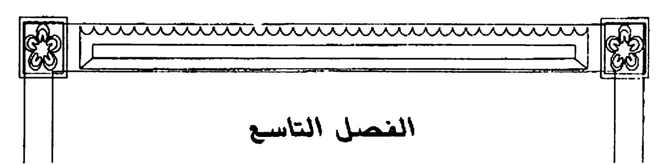
فهل فعل؟..

هل شطرها شطرين؟..

هل نقض إحدى دعامتها فمال بنيانها الشامخ الوطيد ثم انهار كومة من تراب وأنقاض؟..

بدهائه العبقري، الذي لا ينكره إنسان، كان يسع أبا بكر أن يشق ويخترق وينقض وإن كان التاريخ لم يسعفنا بصورة كاملة له على هذه الهيئة الساطية، بارزة المعالم، واضحة الجوانب، تامة الأبعاد، ريانة الضوء بغير خطف، عميقة الظل بغير إبهام..

إنما تقدمت إلينا من دهائه الفذ هذا، في ثنايا الروايات، سلخ متفرقة وفتات أشتات... يمكن حين تلتحم وتلتئم أن تدلنا على الكثير..



الفصل التاسع

(١)

ما أسهل ما يتبين المرء حقيقة دور أبي بكر في اجتماع السقيفة وهي سافرة حين يسلط عليها من نتائج الحوار ما هو أشبه بأقباس نور. .

فنحن نشهد الشيخ كيف راح هنالك يصغي إلى الأنصار وهو يمنون مناً على المهاجرين أن آووهم وقد أخرجوا من ديارهم هلوعين جزعين. . وقاسموهم عيشهم، وطائعين، حين لا معاش. . ومنعوهم من عدوان قومهم المشركين كما يمنعون النفس والزوج والذرية. . فلا نراه يضيق منهم بهذا المن الجارح الذي بطنوه بالتفاخر وغلفوه بالاستعلاء. ولا تضطرب منه جارحة أو يهتز عصب بغضب. بل نجده يسيل للقوم ترفقاً ولينا وسماحة. فيفرش لهم كياسته، ويخفض جناحه. ويقر دعواهم، ذاكراً جهدهم، مشيداً بفضلهم ما وسعت جعبة دهائه أن يقر ويذكر ويشيد كأنما شاء أن يصب من هدوئه برداً وسلاماً على جمر دعاواهم قبل أن يحمر وينقلب لحريق. ثم يتبدى، إلى جوار هذا، كمن يخشى عليهم مغبة الأمر الذي حدثتهم أنفسهم أنهم به حقيقيون. . فيومئ إليهم - بإلماحة بليغة دونها المصارحة المكشوفة - أن يتجنبوا ما لا تحمد عقباه. . أو ليس بالناصح الأمين الذي يحاول أن ينأى بهم عن مثل ما كان يقع عادة بين شطريهم من تنافس وتحاسد وغيرة طالما سلت السيوف من الأغماد؟. .

يقول لهم:

«إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج. . وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس. . . .».

ويقول:

«. . . ما ينكر حقكم مسلم. .».

ويقول:

«. . . إنكم أنصار الله. . إخواننا في كتاب الله، وشركاؤنا في الدين. .».

ويقول:

«. . . وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة، وأحق الناس ألا يكون انتقاض الدين وأختلاطه على أيديكم. .».

ويسرح بمكنون عزمه على هذه الهوادة كمثل رفق الماء المنساب، وعلى جناح لفظ ناعم وعبارة رقيقة، ومعنى سائغ طعمه للأفهام، حتى ليوشك أن يمس مكامن الرضا في نفوسهم وكأنما كان يسقيهم بكأس دهاق شراباً حلواً معسولاً، مزاجه سحر تسترخي به المشاعر وتدور العقول. .

فإذا رأى منهم بعض السكون، وشام شيئاً من الطمأنينة، سارع فأدلى إليهم بدور ذي خطر في الدولة الجديدة يراهم له أكفاء. . فيضيف:

«. . . فمنا الأمراء، ومنكم الوزراء. .».

ونحن نشهد أيضاً الحسد كيف يأكل قلب بشير بن سعد، فيفسد الأمر على ابن عمه الذي أوشكت أن تدين له الخلافة. . وبادر بتقديمه، على كف الطاعة والولاء، هدية للصديق.

يقول بشير، وحقده لا لسانه، هو الذي يقول:

«. . . ألا إن محمداً من قريش، وقومه أحق به وأولى. .».

فلما يراجعه بعض آله الخزرج في موقفه المستهجن الغريب الذي يبديه مكشوف السوأة، ناقماً من سيد قبيله، ينفس عليه بإمارة هو لها أهل بإجماع أصحابه ولا نعتم أن نسمعه يبرر خروجه على ذلك الإجماع بأن يجيب:

«. . . كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله فيهم. .».

ونحن نشهد الوهن كيف اقتحم طريقه على أنصار ابن عبادة عندما يعلن

الحباب بن المنذر أنهم الأحق بالأمر، الأقدر بعزة النفر، وشدة الأيد - على إحرازه والاضطلاع به.. حتى إذا رأى إصرار عمر على إبقائه في المهاجرين دون الناس أجمعين، لا نلبث أن نجده، قد مال للمهادنة وارتضى اقتسامه وهو يحسب أنه، بميله هذا، يمنع نشوب خلاف بين فريقي المسلمين هم في غنى عنه، وأنه يلازم الصواب ولا يجافيه..

يخاطب الأنصار، جانحاً بهم بعيداً عن تشدده، فيقول:

«... فأما وقد أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير[1]..».

فكان قوله عثرة اللسان التي لا تقال.. وهل ينبغي أن يتحدث هكذا متحدث أصحاب اليد العليا، ذوي الأيد والعدد، من لهم الحول الذي لا يحول؟..

ونحن نشهد أيضاً العصبية كيف تفصم عروة أهل السقيفة، وتشق كتلتهم حين تنقلب المسألة - في ذهن أسيد بن حضير - مفاضلة غيرى بين الأوس والخزرج، لا بين الأنصار والمهاجرين، فيحجب هذا السيد الأوسي تأييده عن السيد الخزرجي سعد بن عبادة استجابة لضغن جاهلي قديم، وكراهة أن تستطير غريمته الخزرج بالأمر على قبيلته الأوس، وتذهب دونها بفخر السيادة وعز السلطان.

فإن لاح، للوهلة الأولى، أن ما سلف هنا من نثار الحوار وسلخ

---

(١) الحجة البالغة التي لم تحضر المهاجرين في هذا المقام وردت على لسان الإمام.. فلقد سأل بعد السقيفة: (ما قالت الأنصار؟).
قالوا: (قالت منا أمير ومنكم أمير).
قال: (فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟..).
قالوا: (وما في هذا من الحجة عليهم؟).
قال: (لو كانت الإمارة فيهم، لم تكن الوصية بهم..).
عن نهج البلاغة شرح الإمام محمد عبده.

الأخبار يكاد ألا يؤيد - بوضوح - ما يدعى لأبي بكر من دهاء عبقري يحسب الحاسبون أن قد عرف أخو تيم كيف يجند كل نتفة منه، ويقنص به كل فرصة سانحة، ويحرص - في إطاره - على الإنتفاع بكل احتمال قريب أو بعيد.. إن لاح هذا، فإن واقع الحال أخلق بأن يشير - بكل أصابعه - إلى أن ظاهر الأمر ليس كباطنه الخفي، وسطحه ليس كغوره العميق..

والرأي: إن الخطأ قرين هذا الذي يلوح..

فإنما يجانب الصواب من يعتقد أن الإنقسام الذي دب في صفوف الأنصار لم يقع إلا بعد التئام جمعهم في السقيفة وهبوط أبي بكر عليهم بحجته التي أكد بها حق المهاجرين من قريش - دون غيرهم من المسلمين: أنصاراً وغير أنصار - في خلافة الرسول..

ويجانب الصواب من يعزو ضياع الأمر من أيدي ابن عبادة وقومه بطائفتيهم، إلى كلمة ابن عمه: بشير، التي أقر فيها بحق قريش الذي لا ينازع في تراث محمد إذ هم أولى به لأنهم ذووه..

ويجانب الصواب من يخال رباط أصحاب السقيفة الوثيق قد انحل، وبدأ الشرخ يظهر في جدارهم المرصوص، ثم يسرح ويتسع، منذ اللحظة التي حاول الحباب بن المنذر أن يدل فيها بقدر الأنصار، وعزة نفرهم، وشدة بأسهم، فإذا هو بإدلالة يضعهم والمهاجرين من قريش على مرتبة سواء، ثم ينزل بهم، من حيث لا يشعر أو لا يريد، درجة أو درجات دون منزلة الغرماء..

ويجانب الصواب بعد هذا من يرد فشل البيعة في السقيفة لشيخ الخزرج إلى تنكر الأوس له، وتناجيهم وكبيرهم أسيد بن حضير لحجبها عنه إصغاء - كما سبق القول - لتلك الخصومة التقليدية المضطرمة بين جناحي مجتمع المدينة منذ عهد قريب.. وكراهة أن تصبح الخزرج، بهذه البيعة، وهي الفاضلة، وتصبح الأوس وهي المفضولة..

ولا جناح ولا ملامة على من يأخذ بهذا الرأي المعروض لأن «الخلفية»

العامة لصورة بيعة أبي بكر في السقيفة تبين أن انقسام الأنصار على أنفسهم يومئذ ما كان - كما تدلنا الشواهد - ليحدث إبان اجتماعهم في الموعد التاريخي المعلوم، لا لسبب إلا لأنه إنما حدث قبله بساعة، أو بساعات.. وما كان - في الأغلب الأرجح - ليأتي عفواً، لا لسبب أيضاً إلا لأنه إنما جاء عن تقدير وتدبير..

وقع - لا ريب - قبل أن يتكلم سعد بن عبادة عن حق قومه الأنصار في خلافة الرسول لقاء المناصرة والتعزيز..

وقبل أن يزاحم الصديق سعداً فيأخذ منه الكلمة متحدثاً إلى الحاضرين بلسان المهاجرين.

وقبل أن يتنادى الحباب بن المنذر بفكرة المشاركة في السلطان بين طافتي المؤمنين..

وقبل انبراء بشير لتأييد رأي أبي بكر، قناعة به.. أو نفاسة بالإمرة على ابن عمه عن حسد وبغضاء..

وقبل تناجي أسيد بن حضير والذين اتبعوه، ليفسدوا الأمر على إخوانهم الخزرج ويحرموا شيخهم خلافة المسلمين..

بل ليمكن القول، دون مغالاة، بأن انشقاق صفوف الأنصار، قد وقع - حقاً وصدقاً - ولما تطأ أقدام «الثلاثة الكبار»: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، أرض سقيفة بني ساعدة أثناء الإجتماع الخطير المشهور..

بل لعله - على وجه اليقين قبل الرجحان - قد تم وما بارح ثلاثتهم مكانهم من منحازهم الذي أومأت روايات الرواة أنهم، ومن لاذوا بهم، تجمعوا فيه بعيد وفاة رسول الله..

وليس هذا بضربات تخمين..

أم فيم إذن كان انحياز أسيد بن حضير في قومه: بني عبد الأشهل إلى أبي بكر وكيف كان؟..

وما هو السر وراء انطلاق عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، على عجل،

يبادران بدعوة الصديق إلى «أخذ» الأمر أخذاً من الأنصار؟..

ومن ذلك الرجل الذي «تطوع» بنقل خبر اجتماع السقيفة إلى أصحاب «الإنحياز البكري» حيث كانوا في تلك اللحظة الحرجة التي أجمع فيها رأي الأنصار على تأمير سعد بن عبادة أو بايعوه؟..

وكيف خرج «بشير» على كلمة ذويه، فأفسد بخروجه الأمر على ابن عمه وإن له لمندوحة عن فعلته تلك في السكوت لو أنه رأى أن يبخل عليه بالتأييد؟..

أسئلة تلف وتدور ثم لا يعوزها العثور بين سطور التاريخ على ردود تضع النقط فوق الحروف.

يقال:

«... وإن أبا بكر وعمر لكذاك - في منحازهما المعلوم - إذ أتى آت ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عبادة....».

ثم يخاطبهما هذا الآتي المجهول:

«... فإن كان لكم بأمرالناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم....».

فينطلق أبو بكر، ومن معه، ملبياً داعي التحريض، إلى سقيفة بني ساعدة..

يقال:

«... وإنهم لفي طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان.. فذكرا للمهاجرين ما «تمالأ» عليه القوم....».

ثم نصحاهم بمعالجة غرمائهم بما لا يدع أمامهم مجالاً للاختيار:

«... لا عليكم ألا تقربوهم.. أقضوا أمركم..».

فرد عمر:

«والله لنأتينهم..».

ومضوا حتى نزلوا السقيفة. .

وغني عن البيان أن أسيد بن حضير وقومه: أوس. .

وذانك الرجلان الصالحان، وهما عويم ومعن: من الأوس. .

وهذا المجهول الذي مشى، خلسة بنبأ اجتماع أهل السقيفة إلى أبي بكر بمنحازه، هو - بطبيعة الحال - من الأوس، ما دمنا نعلم أن الإجتماع الذي كشف عن سره كان مقصوراً بداهة على الأنصار. وما دمنا أيضاً نعلم كيف كانت نظرة أسيد بن حضير وقومه إلى الإمرة وإلى الأمير. .

وتضافر الأوس عندئذ على إسقاط سعد بن عبادة، يسهل أن يفهم في نطاق النعرة القبلية التي تستجيب، عادة، لداعي الخصومات والحزازات وإن قدم بها العهد وعفى عليها الزمان. . والتي تقدم، دائماً، الأصول والأرومات على كل ما عداها من المزايا والاعتبارات. . ولكن هذا التضافر الجائر يصبح وهو أحرى بأن يثير ثائرة العجب حين نجده يمثل حلقة في سلسلة غير قصيرة من التصرفات والتحركات التي تمت يومذاك على نسق أقل ما يوصف به أنه مصنوع «موضوع» رتبته براعة الإعداد، وليس بعفوي طارئ تفتقت عنه عشوائية الظروف. .



(٢)

الخلفية العامة لصورة ما تم في ذلك النهار الحزين، تهم أن تشي بأن ابن أبي قحافة لم يكن قعيد منحازه، ولا رهن المسيرة العادية والمنتظرة للوقائع والأحداث، أو التحركات الطبيعية والتلقائية للأفراد والجماعات. . بل قد بدا الرجل الجليل، في تلك الآونة كمن كان يمسك بيديه زمام الأمور والرجال ويسوق سوقاً سوانح الصدف ومقدرات الاحتمالات حسبما يهديه دهاؤه وذكاؤه، وإلى حيث يبتغي ويريد. .

ولا ادعاء..

فها هي رواية تقول:

«... وقد كان «مالأ» أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد، وإفساد حاله رجلان من الأنصار.. هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي..».

فهل يمكن أن تكون هذه الممالأة قد «كانت» إلا قبل ذهاب أبي بكر ومن معه إلى السقيفة وهم بعد في ذلك المنحاز؟..

كيف لا؟..

إن المستيقن، قبل الأغلب، أن هذا قد كان..

يدلنا على ما في هذا الإفتراض، بل الحقيقة، من صدق لا يحتمل المماراة ولا التأويل رواية تقول:

«... وعويم بن ساعدة هو القائل لما نصب الأنصار سعداً:

«يا معشر الخزرج.. إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعرفونا ذلك وبرهنوا حتى نبايعكم عليه..».

وتستمر الرواية:

«... فشتمه الأنصار وأخرجوه. فانطلق مسرعاً حتى التحق بأبي بكر فشحذ عزمه على طلب الخلافة..».

وليس أصرح قولاً من هذا القول، ولا أبين دلالة منه لتأكيد سبق عويم بخبر الإجتماع إلى أبي بكر ولما يخط أخو تيم خطوة واحدة خارج المنحاز البكري في طريقه إلى الإجتماع الخطير..

وتقول رواية غير هاتين:

«... إن معن بن عدي اتفق هو وعويم بن ساعدة على تحريض أبي بكر وعمر على طلب الأمر وصرفه عن الأنصار..».

ثم توضح لنا صورة الممالأة والتحريض بهذه الكلمات:

«. . . وكان معن بن عدي يشخصهما إشخاصاً[1]، ويسوقهما سوقاً عنيفاً إلى السقيفة، مبادرة إلى الأمر قبل فواته. .».

ومضمون كل ما سلف في غير حاجة إلى تبيين. .

ولا يترك التاريخ فعلة هذين الرجلين بغير جزاء. .

يثمنهما «المهاجرون» عليها - إذ هي في رأيهم فضل ويد بيضاء - حمداً وعرفاناً بالجميل. .

قيل: . .

«لما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر، أكرمت قريش معن بن عدي وعويم بن ساعدة. .».

ولم تكشف لنا الأخبار عن كنه هذا التكريم ولا عن مداه. .

ويشبعهما «الأنصار» عليها تقريعاً وملامة إذ هي في رأيهم فرار من صفوفهم، وشدخ لإجماعهم، وتأليب عليهم كأنه خيانة. .

قيل:

«. . . فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما. فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين. .».

وقيل:

«. . . فوثبت عليهما الأنصار، فأغلظوا لهما، وفحشوا عليهما، وانبرى لهما منهم من قال:

«أنسيتما قولكما لقريش: «إنا قد خلفنا وراءنا قوماً قد حلت دماؤهم بفتنتهم؟ هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى. . قد تصرف الحية عن وجهها وسمها في نابها. . !».

فعلى أية هيئة تكون الصورة العامة لبيعة أبي بكر في السقيفة لو أحسن ضم هذه الأشتات من خلفياتها، المفرقة في الروايات، قطعة إلى قطعة في مكانها الصحيح؟ . .

---

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

أتتبدى عفوية، ورمية من غير رام؟..

أم تتبدى كأنما قد أريد لها أن تكون هكذا من قبل أن تكون؟..

الأقرب إلى الصواب أن تبين للمتأمل وهي تقدم أحداث ذلك اليوم وحدة متكاملة ذات تعاقب منطقي، يعسر أن ينكر المنكرون أو يدعي المدعون أن مسيرته تخالف شواهد الواقع، وتجافي أحكام المعقول..

ثم الأولى بها إذن أن تثير حولها من التساؤلات، وتحرك من الأحداس ما يشغل الإفكار..

فمن ذا الذي لا يراها تصرح بأن الإنحياز البكري - قبل انطلاق أصحابه إلى السقيفة - قد أثمر ثمرته، وبلغ غايته، فاستقطب الأوس، وعزلهم عن كتلة الأنصار، سواء أكان انحياز أسيد تم باتفاق مع الصديق أم تم عن صدفة بغير اتفاق؟..

وكيف يجترئ عويم بن ساعدة على إلقاء تحديه في وجه المجتمعين بالسقيفة - جنوحاً إلى المهاجرين - فلا يخص سوى «الخزرج» وحدهم بعبارة التحدي وفحواه؟ ألا يغلب هنا على الظن أنه ما كان ليفعل لولا أنه «مأمور» خول الترجمة عن رأي قومه الأوس.. أو لولا أنه - على الأقل - كان يعلم مسبقاً بانشقاقهم عن الأنصار؟..

وهلا يمكن القول بأنه كان، وصاحبه معن بن عدي، طليعة وعيناً بالسقيفة يتابعان ما يدور فيها، لينطلقا في اللحظة المناسبة بما يريان.. يكشفانه للاثنين بالمنحاز؟.

صورة لعلها تربط، في إطارها، النتائج بالأسباب..

ثم لعلها تضع بعض خفايا الأمور تحت شعاعة نور..

فإذا قيل بعد هذا إن المصادفة وحدها هي التي حققت هذه اللقاءات والتحركات وجمعت كل من شاركوا فيها بمكان واحد، وفي ساعة أو نحوها من نفس النهار، ثم سلكت آراءهم في خيط توحدت به على نصرة أبي بكر وخذلان ابن عبادة. إذا قيل هذا فإنها إذن لمصادفة أقدر على التدبير من التدبير، وعلى الإعداد من الإعداد..

(٣)

كان أبو بكر - كما وضح - ذا ملكة للاستشفاف خارقة، وحاسة للتوقع مرهفة إلى جوار نفاذ النظرة، وسعة الحيلة، وألمعية الذكاء. وكلها ميزات أحرى بأن تهبه القدرة على أن يضع دائماً أصبعه على موطن الداء، فيحدس عنف شرته، وطغوى حدته.. فيصيب حين يلمس. ويصيب حين يحدس. ثم يعرف كيف يجهز، لقمعه وحسمه، أنجع دواء.

وهكذا لم يكن الصحابي الكبير عاجزاً عن استبطان الأنصار كما لم يكن أيضاً عاجزاً عن تعمق المهاجرين..

بل كان هيناً عليه أن يلمح بعين فطنته ما تحت السطوح الهادئة لكلا الفريقين من فوارق.. فاقتداره هذا على الغوص في المستورات وليد إحاطة معرفة بأمس القوم وإلمام مشاهدة بيومهم، وإدراك توقع لغدهم ينتهي إليه من خلال الماضي مروراً بالحاضر مثل مرور ماء ترعة مشوب النقاوة بمصفاة إن هي ضاقت خروقها ودقت صفا الماء، وإن تهرأت واتسعت بقي على كدرته ولم يخل من أدران..

ولم يكن ليغيب عنه يومئذ أن جماعتي الأنصار كانتا، في ذلك الظرف الخطير، أدنى إلى التنافر منهما إلى التضافر، وأقمن أن تتحاسدا تحاسد الجاهلية الذي فرق بين فرقتيهم، وأطل دماء كل منهما للأخرى، على الرغم من تآخيهما في الإسلام لأن بقايا غير قليلة من أحقاد الماضي وأضغانه ظلت مترسبة في القاع..

والأقاويل كثيرة، والمشاهد عدة، والعبر ماثلة لمن أراد أن يلقى السمع والبصر والفؤاد..

فكم اندلعت بينهما الخلافات..

وكم التقى السلاح بالسلاح..

وكم مشت بينهما يهود بالدسيسة ليخلو لها وجه يثرب قبل أن تغدو

البلدة وبعد أن غدت، مدينة للرسول وقاعدة لدولة الإسلام..

وأقرب إلى صدق اليقين منه إلى المظنون أن يكون أبو بكر قد شهد بنفسه وفود أبي الحيسر أنس بن رافع إلى مكة ومعه رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون من قريش الحلف على الخزرج غرمائهم التقليديين..

ثم لا ريب قد عرف كيف اندلعت الحرب، بعد وقت قصير، بين الفريقين الغريمين في وقعة بعاث.. يقود الأوس فيها حضير الكتائب: أبو أسيد، ويقود الخزرج عمرو بن النعمان.. فيفر الأوس وقد نالت الوغى منهم ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى الحومة مستبسلين أعظم استبسال، فموقعين بأعدائهم أشنع الهزائم ومتعقبينهم بالقتل والحرق والتدمير حتى يمشي إليهم من يخشى على الخزرج الفناء، يشفع لديهم، ويكفهم عنهم وهو يذكرهم بتربص يهود وانفرادها بهم وإنهم لضعاف بعد إفناء رفاقهم هؤلاء..

يقول لهم ذلك الشفيع..

«لجوارهم والله خير من جوار الثعالب..».

والثعالب هم اليهود..

بل قد عايش أبو بكر في المدينة واحداً من تلكم الخلافات التي كانت تنشب بين الفئتين تنافساً ومفاخرة ومباهاة أوشكت أن تراق فيه الدماء..

فحين رأت يهود كيف التف الأوس والخزرج برسول الله، في وحدة إيمانية على صفاء، كرهت ذلك منهم، وخشيت أن تذهب باتفاقهم ريحها، فسلت عليهم سلاح الدسيسة.. دفعت من لدنها خلسة بفتى يهودي بين القبيلتين، راح يذكرهما يوم «بعاث» وما جرى لكليهما فيه، مؤرثاً من نار الثارات ما كمنت جمراته تحت رماد الأيام أو حسب الناس أن قد أخمده الإسلام.. فإذا هما تتفاخران. ثم تتنازعان ثم تمتد أكفهم لتشهر السلاح من الأغماد، وبعضهم يقول بحمية الجاهلية العمياء:

«إن شئتم عدنا لمثلها..».

أوشكوا أن يترجموا ألفاظ الوعيد والتهديد لقوة أجناد وبطش عتاد..

فلولا أن كفتهم عن حماقتهم هذه هيبة الرسول.. ولولا أن شهدوه، عليه صلوات الله ينبري مسرعاً يعاجل الفتنة فيطفئ النائرة، ويصب على أمواج غضبتهم الجاهلية الهادرة زيت السلام، فلربما أحاق بهم ما يكرهون، وتزلزل يومئذ تحت أقدامهم مجتمعهم الجديد نواة دولة الإسلام..



(٤)

أمثال هذه المرائي والمسامع كثيرة في ذلك العهد الذي لم تكن قد قرت فيه أوتاد الوحدة ورسخت دعائم الوفاق.. وكلها كان، بطبيعة الحال حقيقاً بألا يغيب عن بال أبي بكر منذ عاد من السنح وعلم وفاة رسول الله، وأخذت أرهاط المسلمين تلوذ به في ذلك المنحاز..

أجل قد كان أخو تيم يعلم، في تلك الآونة، مما يوغر صدور الأنصار بعضهم على بعض، ما يسعه به - إن شاء - أن يحرمهم القدرة على التماسك والإتحاد لاستلاب الخلافة من الأحقين بها من مهاجرة قريش الأولين.. وإذا كنا ننزهه عن النزوع لمثل هذا السلوك، فإن تنزيهه لا يعني أنه لم يفد من اهتزاز الوفاق بين الطائفتين وتفكك عراه.. ثم لا عليه أيضاً لو جهد ليحفظ إمرة المؤمنين في أول المسلمين سابقة إلى دين الله، وأدناهم قربى إلى الرسول، وأولاهم بتراثه عليه الصلاة والسلام قبل غيرهم من الناس..

ثم كان يعلم، لا شك، من توتر العلاقات وأسباب التحفز بين المهاجرين والأنصار، ما هو كفيل بأن يدفع هؤلاء الأخيرين، لو سنحت فرصة، إلى الإنقضاض على الخلافة انقضاض باشق على عصفور حماية لأنفسهم أن يغدوا في ملاك قريش التي وتروها بقتلهم من أشرافها وصناديدها من قتلوا وهم يدفعون أذاها عن محمد، وينتصفون منها لدين الله بقوة السلاح قبل أن تحمل حملاً على الإيمان أو على الإذعان..

وخشية الأنصار هذه على أنفسهم من قريش إن سيطرت على الحكم،

لم تكن معلقة بوفاة الرسول واختفائه عن دنيا مجتمعه بالمدينة الذي عرف دائماً، كزعيم مقتدر، كيف يعادل فيعدل بين مختلف قواه وطوائفه من عشائر وطبقات بأن ينفث القوة في روح المستضعفين من بنيه، ويكسر من حدة الأقوياء فيه، ويكبح جماح عتو عتاته وكل من قد تغريه عزة نفره، أو كثرة ماله، أو عراقة نسبه بالإستكبار والصلف والطغيان. . كلا. بل قد كانت هذه الخشية سابقة على الوفاة بوقت غير قصير، تخالج قلوبهم، وتخامر خواطرهم والنبي ما زال بين ظهرانيهم لم يغب شخصه عن الأذهان والعيون. .

فليس مما ينسى كيف لعب بهم القلق عقب فتح مكة خيفة أن يتخلف بها محمد فينتقل إليها وإلى أهلها السلطان، ويدعهم ومدينتهم هملاً من عرض الناس، بغير نفوذ، بعيدين عن المشاركة الفعالة في سياسة الأمور. . فلقد رأوا النبي يومئذ يحسن في البلدة الحرام إلى أولئك الذين آذوه وأخرجوه ويعفو عنهم عفواً شاملاً يعم منهم الكبير والصغير. . وكان حقاً لهم - كما ارتأوا - أن تنوشهم الهواجس والوساوس لهذا الذي بدر منه، عليه الصلاة والسلام، وأن تموج صدورهم بأحداس وظنون تذهب بهم إلى أبعد الحدود. .

لذلك لم يكن عجباً أن يملكهم التوجس مخافة عقبى يشيمون منها عزلة خليقة بأن تحرمهم الطمأنينة. . فمشى بعضهم إلى بعض يتهامسون:

«أترون رسول الله، إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟. .».

فما أن عرف النبي نجواهم حتى أسرع يطمئنهم:

«. . . المحيا محياكم والممات مماتكم. .».

نفس المشهد تكرر مرة أخرى بعد وقعة حنين. . مرة لم يغب ذكرها عن بال أحد منهم. . وهل كان ليغيب مثله عنهم وقد راجعهم الرسول إبان ذلك المشهد مراجعة تشف عما هو أحلى من الحب، وعاتبهم عتاباً هو أغلى من الإيثار؟.

حدث ذلك عندما أعطى النبي، بعد الوقعة، رجالاً من قريش، فأجزل

لهم العطاء من نصيب الخمس الذي فرضه له ربه، ليتألفهم بهذه الأجزال[١]، وليثبت أقدامهم في الإسلام وإنهم لقريبو العهد به.. لكن طائفة من الأنصار بدوا كأنما نفسوا بذلك العطاء الجزيل على من منحوه، ثم كأنما رأوا فيه تميزاً لقريش عليهم يومئ إلى ميل محمد عنهم إلى قومه هؤلاء.. فترجموا عن شعورهم هذا بقولهم في قلق تلاغطت به ألسن هنا وهناك:

«لقي والله رسول الله قومه..».

ومشى سعد بن عبادة بما سمعه إلى رسول الله، فأمر فجمعت له الأنصار وأنشأ يخاطبهم:

«يا معشر الأنصار.. ما قالة بلغتني عنكم. وجدة وجدتموها في أنفسكم؟. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله. وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟».

فلما أن أجابوه على استحياء بكلام لا يكاد يفصح التعبير، عاد يحثهم على أن يصارحوه..

قال:

«ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟..».

قالوا في حيرة:

«وبماذا نجيبك يا رسول الله؟..».

فكانت كلمته الخالدة فيهم، المخلدة لهم.. تلك التي رفعتهم إلى ما فوق السحاب:

«.. .. أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك..».

ثم أردف يعاتبهم وهو يمحو قلقهم بعتابه الودود:

---

(١) أعطى بعض أشراف قريش، وفيهم أبو سفيان وابنه معاوية وسهيل ابن عمرو من الإبل مائة مائة وأعطى آخرين ما دون ذلك.. ولم يكن للأنصار في العطايا نصيب (أنظر الطبري).

«أوجدتم يا معشر الأنصار في علالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟.. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟.. فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار.. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار..».

لكن خشيتهم لم تكن لتقشع عنهم غيومها الراعدة السوداء وإن داراها أحياناً صفو الأيام.. إنما ظلت لها في نفوسهم رواسب ما تنى تطفو من القاع فتعكر بكدرتها هدوء السطح بين آن وآن.. وإن الرجل منهم ليجلس وقد راق قلبه من كل أثارة نقمة وشائبة غضب على إخوانه المهاجرين فتبدر كلمة من يهودي شانئ يضعها قومه الإسرائيليون الفجار بين شفتيه، لا تلبث أن تنخر كالسوس في الصدر الهادئ المطمئن لتبتعث ما لعله يكمن من نفور أو ضيق.. وإنه ليخلص من وسوسة هذا الشيطان، فيقع فريسة لإبليس من المنافقين تعيد الزمان القهقري أمام عقله المسحر وشعوره المفتون.. فإذا ما اهتز فيه الأدراك، فقد ضاع الحلم، وتهاوت الحكمة، وتطاول وفريقه على الفريق الآخر، يستعلي كل منهما على أخيه. ويتصاولان بالمفاخرة والمباهاة تصاولاً يشفي بجمعهم كافة على حافة العداوة التي قد تنتضي عندها السيوف ويشهر السلاح..

وكم تعددت المطاولات تتبع المطاولات..

فما أحسب الذاكرات أمحى منها حادث وقوفهم، ذات مرة، كجيشين على أهبة النزال وقد صاح صائح أولئك: «يا للمهاجرين» وصاح صائح هؤلاء: «يا للأنصار». عندئذ أوشك الأمر بينهم ألا ينجلي إلا عن دم وأشلاء لولا أن سارع الرسول الكريم يهتف بهم في غضب وإنكار:

«ما بال دعوى الجاهلية!..».

فزلزلت صيحته صرح عصبيتهم العمياء..

وعلى مثل هذه الشاكلة كان ما وقع بعد غزوة بني المصطلق بين الفريقين. .

بدأ الموقف كجمرة هامدة تكفنت بالرماد ثم نفض عنها الأكفان رأس المنافقين: عبدالله بن أبي بن سلول. . ثم نفخ فيها من حقده ودسه ما وراها ناراً تتلظى كأنها الجحيم.

حينئذ انطلق مارد العصبية القبلية من عقاله يعربد ما شاء له كفرانه حتى لأوشك أن يسحق النصر الذي أصابه المسلمون في الوقعة، ويمد مخالبه وأنيابه التمزيق وحدة الأمة، ويلتهم القيم التي أرساها الدين. .

وكانت بداية الأمر كله حماقة غلام لعمر اصطدمت بحماقة رجل من الأنصار، فانبعثت من التصادم شرارة النار. .

تزاحم الغلام الأنصاري على الماء. فإذا هما يتغاضبان، فيتلاحيان فيقتتلان على أيهما تكون له الصدارة. وإذا هما يتصايحان ويستغيثان. هذا يستنجد بقومه الأنصار وذاك بالمهاجرين. .

وفي الحال يخف ابن أبي إلى التقاط هذه الجمرة الصغيرة ينمي أوارها ويبعثر شرارها، ويلهب نارها بين جماعتي الغريمين بغية أن ينال بها من قوة الإسلام والذين اتبعوه، حسداً منه لمحمد، ومقتاً للدين، وحقداً على المسلمين.

ينبري المنافق الكبير لمن حوله من الأنصار يضع بكأسهم من سموم الكراهية ما يترع، ويجرعهم منها ما يسعه أن يجرع، وقد راح - لكي يسيغوا مرارة فتنته القتالة - يذيبها في مزاج حلو المذاق من النصح الرفيق والعتاب الرقيق. .

يقول بأسف الحزين المكروب:

«. . . هذا ما فعلتم بأنفسكم. . أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم».

ويقول بثقة البصير بحقائق الأمور:

«. . . لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير دياركم. . . .».

ويقول بحكمة الداهية الأريب:

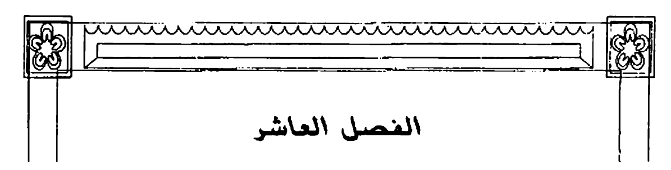
«. . . لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا. . ووالله ما عدنا وإياهم إلا كما قال الأولون:

«سمن كلبك يأكلك! . .».

وجوانب الصورة العامة للعلاقة «النفسية» بين المهاجرين والأنصار عديدة حاضرة لمن يريد الاستقصاء. منها ما لونه باهت حائل، وما لونه ثقيل كثيف، وفيها الجلي الواضح والمشوش المطموس. . ولكنها جوانب «مبعثرة» عاشت طويلاً، وهي تحت ركام الحوادث، مطمورة وقد خالطها الصدأ وغشاها غبار الزمان. . فإذا أتيح لها الفكر المتدبر، والنظرة النافذة، والوعي الوامض فقد أمكن جمع شتاتها، ونفض التراب عنها، وإعادة تنسيق وضع كل قطعة منها في مكانها الطبيعي من الإطار الكبير لاتجاه حركة التاريخ. .

ولقد أتيح، فيما نرى، لأبي بكر من القدرات ما يسر له جمع هذه الشتات. . فإذا وقف مواقفه تلك يوم وفاة الرسول، فلاح كمن عرف سر السقيفة قبل أن يذيع. . وكمن حالف الأوس أو حالفوه. . وكمن انتزع البيعة. للمهاجرين - مشخصين فيه - دون أن يسعى إليها إجماعهم أو أغلبهم وعلى حين غفلة من الأنصار. . إذا وقف الشيخ الجليل هذه المواقف، وهو يكاد يسبق إليها لمح الأفكار فضلاً عن خطا الأقدام فذلك لأنه عرف كيف يوافق بين أجزاء الصورة المتناثرة ويرى في خطوطها بعد الالتئام «غداً» لا بد من بزوغ شمسه، هو يوم من الأيام ولكنه ليس ككل الأيام. .





الفصل العاشر

(١)

ثم أسفر النهار شاحباً في العيون من أساها ومن أساه..

أصبح الثلاثاء وأبو بكر خليفة..

الشوط الطويل الذي قطعه إلى هذا المنصب الضخم لم يستغرق غير سويعات قلائل من أمسه المشحون بالمباغتات والمناورات..

أترى ما حدث كان حلم حالم..

أم ترى تم كل شيء بميقات، وفقاً لنسق منظوم محكم لن تعتوره شية من خلل تتعثر بمسيرة الموكب الحدثي العظيم مثل خطوة فما دونها، أو تعوق بلوغه غايته لحظة من زمان؟..

حتى عمر بن الخطاب، الذي شارك صاحبه طوال هذه المسافة، وكان له عوناً وعيناً، لم يكن ليظن أن تنتهي هذه الرحلة إلى السلطة سريعاً هكذا على أرض سهلة.. فالعقبات كانت كثيرة. والمعوقون كانوا أكثر.. واحتمالات الخلاف والنزاع بدت، من بدء الانطلاق، كلبد ضباب، حشوها تراب، يلفها سحاب مركوم، وغيوم من فوق غيوم كأنما الشمس هوت في بحر الظلمة، والنهار انطفأ، والنجم غار..

غير أن هذا كله تبدل نقيضاً بنقيض.. فقد أذعن الأنصار. وتمت البيعة، ودخل أبو بكر السقيفة وكأنه مسود مأمور ليخرج منها بعد قليل وإنه لسيد أمير..

وانزاح عن صدر عمر عبء ثقيل ثقل أحد الرابض من المدينة على

مبعدة أميال. . وتبدد توجسه الذي ألح به عليه خوفه أن تنشق وحدة الناس لو أنهم اختلفوا على من يخلف رسول الله وعبروا عن هذا الاختلاف - كمألوف عادتهم القبلية - بلغة الأسياف. . ومن ثم فإنه ما كاد يطمئن إلى ما ظهر له من فيء القوم إلى الهدوء بعض اطمئنان. . وتقلع من سماء مشاعره سحائب من قلقه الذي لازمه منذ لحظة البيعة أصيل الأمس إلى انبلاج صبح اليوم، حتى أطلق عبارته التي قالها وهو يتنفس الصعداء:

«كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها. .».

وملأ رئتيه بهواء جديد. .

وكانت حقاً فلتة. .

كانت محنة تؤذن بكارثة. .

فكيف لو لم يقبلها الخزرج؟. .

كيف لو أباها جمهور المهاجرين وما حضر منهم السقيفة غير نفر قليل؟

كيف لو خرج بنو عبد مناف، وعلى رأسهم آل محمد، من معتزلهم، وناضلوا عن تراث نبيهم إذ احتازه غريب؟

أحرى بهذا، أو ببعضه، لو حدث، أن يوقع بين المسلمين فتنة تفرق الجمع وتمزق الشمل، وتثير حرباً أهلية ما كان امرؤ يدري إلى أي مدى تخرب وتدمر وتبيد. .

لكن الله شاء لهم السلامة. . وشاء لعمر أن يتخفف من إصره هوناً ما وإن ظل فيما نحسب، يحس بفداحة ذلك الأمر وشدة وقعه على نفسه كلما عادت به الذكرى إلى تلك الساعات. . وكلما لاك في ضميره ذلك الدور الذي لعبه خلالها وكانت له يد في ابتزاز آل النبي الكريم حقهم في سلطانه. . وكلما تبين أن جنوحه الجارف إلى صاحبه التيمي منع الإمرة عن أولي المؤمنين بها، وكاد يشعل في المدينة، ففي الجزيرة العربية النار. .

والواقع أن ابن الخطاب كان يبدو وهو أحرص على اتمام البيعة لأبي بكر من أبي بكر. . ولا ملامة عليه بمعيار شعوره الشخصي ولا بمعيار تقديره

الخاص للناس والأمور. . فهو يميل أعظم الميل لرفيقه الأثير. وهو يؤمن تمام الإيمان بقدرته على قيادة الأمة. وهو يثق فيه ويطمئن إليه أكمل الثقة والاطمئنان. وهو يرى حقاً على كل مؤمن وكل مؤمنة أن يوالوه ويسيروا في ظله. . وله فيه نظرات ترفعه مكاناً علياً فوق كل من عداه من صحابة رسول الله.

وإذا كان من المعلوم المشهور أن ميل عمر لأبي بكر ميل قديم، يقاس عمره بالسنوات، فإن هذا لا يعني أن حرصه على البيعة له، وتسويده إياه قديم يمتد خلفاً إلى ما قبل وفاة الرسول بأيام عدة أو بشهور. . بل الأرجح، أو الغالب على الظن، أنه انتبه يومئذ فإذا محمد قد رحل، وإذا مكانه قد شغر. وإذا الأمة الإسلامية بعده في حاجة عاجلة إلى هاد يرشد أو قائد يسوس. . فما أن خطر لابن الخطاب هذا الخاطر حتى سارع يمد كفه إلى أبي عبيدة ابن الجراح عارضاً عليه أن يبايعه بالخلافة. وما أن رده أبو عبيدة عن عرضه ذلك ملوحاً له باسم أبي بكر، حتى ذكر من مكانه رفيقه الكبير واقتداره وفضله ما كان نسيه أو أنساه إياه الموقف العصيب، فخف إليه على الأثر يوليه ثقته، ويسانده بجهده ويروج له في السقيفة، وقبلها وبعدها، مناضلاً عنه نضال ولي حميم، راسخ اليقين، ثابت العزم، صادق الولاء. .

ومن المبالغة أن يقال إن امرؤاً من الناس - بلغ ما بلغ قربه من الرسول، واتصاله بالوقائع الجارية، وإلمامه بحقائق الأمور - كان ينتظر أن تكون البيعة لهذا أو لذاك من أصحاب محمد، بمثل السرعة التي تمت بها في ذلك النهار من صيف عام النبي الأخير، فلقد مضت الحوادث دراكاً تعدو كأنها لمع برق تسبق خطاها الوثابة الواسعات جريان الأفكار في الأذهان. فما جاوز الأمر يومئذ في بدئه وفي ظاهره، اجتماع الأنصار بالسقيفة: يتشاورون في منزلتهم بعد وفاة الرسول الكريم. . وفي مكانة بلدتهم الطيبة بين البلدان. . وفي دورهم في الدولة الناشئة التي تهم أن تفرض كلمتها على العالم ثم يتساءلون:

«يا ترى سيخرج سلطان الإسلام من مدينتهم: دار هجرة النبي إلى مكة البلدة الحرام مستقر قومه من قريش الذين قد ينتهي إليهم سلطانه؟. . ثم

يحدسون ما عسى أن يفعل بهم المهاجرون بعد هذا . . أيشركونهم في الأمر ويمحضونهم الخير؟ أم يختصون أنفسهم دونهم باليد العليا، ويقاسمونهم - إن قاسموهم - قسمة غرماء وغرباء؟.

بل الصديق نفسه على ما كان من رهافة حسه، وصدق فراسته، وعمق نظرته، وقدرته الفائقة على الاستشفاف - لم يكن ليظن أن تؤول الإمرة إليه، أو كان أليق به أن يرتهبها كل الرهب، وينأى بباله عن التفكير في اقتعاد مقعد الرئيس المسؤول عن الأمة في مكان قد أشغره غياب محمد فإذا هو أوسع من أن يملأه إنسان، وأن مسؤوليته أفدح وأثقل حتى لتنوء بالعصبة أولي العزم من الرجال . . . وما أحسب إلا أن قد وهم من اعتقد أن الشيخ الجليل مشى إلى الخلافة مشية منهوم، بقدر ما سبق - عفو لحظته، حرصاً على صالح قومه - إلى ارتداء طيلسان لا يناسب قوامه، ولم تكن عينه عليه، ولا فكره من قبل فيه . .



(٢)

وليس ضرباً من الخيال أو الإدعاء أن يقال إن المصادفة لعبت دوراً لا سبيل إلى إغفاله كانت به صاحبة الأثر الكبير، إن لم تكن صاحبة الشأن كله، في تنصيب أبي بكر، فلولا أن قد عاد الرجل من السنح في اللحظة المناسبة فلربما كانت البيعة قد أفضت إلى سعد بن عبادة من خلال الأنصار . . ولولا أن جرى ذكره على لسان أبي عبيدة وصدى لرأيه دون غيره، فلربما ظل أمراً من جمهور المحكومين ولم يكن حاكماً على رأس كل الحكام . . ولولا أن ابن الجراح أبى قبول البيعة لنفسه - ودونها ما لا يزيد عن بسطه كفه - لما عدا الشيخ أن يغدو وزيراً من وزرائه، أو مشيراً له أو لسواه ممن عسى أن يكون له الأمر وولاية الناس . .

هذه وأمثالها افتراضات جدلية ازدواجية الامتناع - لو صح هذا التعبير -

وإن كانت في حقيقة جواهرها السلبية خليقة بأن تكمل الصورة لأنها أشبه بالسواد الذي لا بد من وجوده، لنعرض البياض، وبالمساء الذي لا يكون بغيره صباح..

والصدفة في اختيار أبي بكر يقدمها لنا ما جرى في ذلك النهار، بين ابن الخطاب وابن الجراح:

فلقد قيل إن خبر اجتماع الأنصار بالسقيفة، ووشك إجماعهم على ابن عبادة جاء عمر على غير توقع. فإذا هو يغضب أي غضب أن كاد الأنصار يبرمون الأمر في غياب المهاجرين.. وإذا هو يضطرب أي اضطراب أن أوشك الأنصار أن يذهبوا دون قريش بسلطان العرب.. وإذا هو يبادر فيشاور ذهنه، فيسعفه أن يفوت غرضهم عليهم بأن يسبقهم إلى الغرض الذي يرومونه.. وعلى الأثر يلتفت كما ألمعنا، إلى أبي عبيدة الواقف إلى جواره يقول له:

«ابسط كفك يا أبا عبيدة أبايعك.. فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله...».

فيقبض الرجل دونه يده، ويجيبه متعجباً:

«ما رأيت لك فهة مثلها منذ أسلمت يا ابن الخطاب.. أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار؟..».

ومن هذه اللحظة - أغلب الظن - قر اسم أبي بكر في روع عمر وحفر حفراً في لبه وقلبه قبل ذاكرته: خليفة للرسول الكريم..

ولم يكن الصديق ليرى، ولا غيره من المسلمين، أن أحداً من الناس - مهما فرع واستطال وشب على أصابع قدميه - بالغ مبلغ محمد عظمة ومقدرة.. ولم يكن ليغفل عن انفساح رقعة المقعد الذي اقتعده، ولا فضفضة الطيلسان الذي ارتداه..

أما عمر فيقف صباح البيعة العامة، يذكر أخبار أمس، ثم يقدم للناس صاحبه الذي فاتهم بالسقيفة الاشتراك في بيعته، فإذا هو يكرر نفس عبارة أبي

عبيدة بن الجراح كلمة كلمة، وإن رأيناه يضيف إليها بضعة ألفاظ يرفع بها قدر الشيخ فوق أقدار غيره من المؤمنين وإن فيهم بطبيعة الحال جميع صحابة الرسول. .

يقول للناس من بين ما قال:

«. . . إن الله قد جمع أمركم على خيركم: صاحب رسول الله، ثاني اثنين إذ هما في الغار. . فقوموا فبايعوه. .».

لكن أبا بكر يخالف نظرة صاحبه فيه. فلا يستأثر لنفسه بالفضل الذي أضفاه عمر عليه. ولا يحاول أن يحجبه عمن لعله يكون أولى به في القوم منه ومن سواه. .

يقول معقباً:

«. . . أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم. . ولست بخيركم. . فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. .».

وليس هذا بكلام من يرتضي الوصف العمري له، ويزهو به. . أو الذي يعتز ويغتر بالسلطان الذي انتهى إليه. .

فإن كانت هذه العبارات عن لباقة من الشيخ وكياسة فهي اللباقة الأشبه بالموقف، والأليق بأريب. . وهي الكياسة الأولى بأن تعين صاحبها وتقدمه في معترك السياسة وفي مجال الرياسة على السواء. .

وإن تكن عباراته عن تواضع وتحكم في النفس أن تستعلي وتختال، فإنه التواضع الذي يحمد عليه. . والتحكم الذي يذكر له، ويرضى به عنه. . ولكنه أيضاً التواضع الذي ينبعث، كما يخال كل من يرجع بخطا الزمن إلى الوراء، من امرئ يسوس ولا يتسلط، ويحكم ولا يتحكم، لا يستمرئ الظهور. ولا يزدهيه جاه المنصب. ولا يذهب مذهب الكبر والصلف والخيلاء، بل يرجو به أن يكون الاستعلاء بما في يده من سلطان بعيداً دائماً عن نطاق أمانيه وأفكاره، والاستبداد بمن في ولايته من رعية أنأى عن مرمى عينيه ومتناول يديه.

(٣)

فلماذا إذن قبول أبي بكر السلطان؟..

لماذا ارتضاؤه الخلافة؟..

أعن طموح شخصي ورغبة، أم عن التزام قومي وضرورة؟..

بل كأنها عن التزام وشعور بالواجب. وعن ضرورة تقضي عليه أن يسود قريشاً على مجتمعه.. ثم على أرض العرب.. ثم على دنيا الإسلام كلها من خلال المهاجرين الأولين..

ولا نناقش هنا صدق هذا الشعور لأنه حركة وجدانية داخلية لا سبيل إلى إدراك كنهها الخفي بالمعايير المادية المنظورة.

ولا نقول إن هذا الرأي في سلوكه ذاك هو الرأي الفصل، بل الرأي الذي يميل ميلاً قوياً إلى الترجيح. أو هو الاحتمال المقبول الذي قد يداني الحقيقة وإن كان لا يعلو فوق مستوى الجدال.. أو الرأي الذي له من القرائن دعائم، ومن الشواهد أسناد..

وتاريخ أبي بكر ينضح بتأييده ولا ينفيه..

ففيما بدا، مما سلف من سني حياته، لم يكن حب السلطة من تركيبة طباع هذا الصاحب الجليل حتى ليوشك المرء أن يوقن أنه لم يحفل بالرياسة ولم يسع إليها. ولم يحاول بلوغها وإن تيسرت له الأسباب.. بل قد أحب أيضاً للناس لو كانوا على شاكلته يزهدون الإمارة - على أية صورة من صورها - ولا يشتهون تملك عصاها السحرية التي تفتح مغاليق الأبواب وتأتي بالخوارق والأعاجيب.. ولعل فلسفته هذه هي التي أدنته إلى الحكم وهو يود لو باعده وأدار ظهره له. تماماً كالذي استهان بالحياة فأقبلت عليه كأنما لتصدق القولة المشهورة: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

وسيرة الشيخ التيمي في إسلامه وجاهليته لا تخلو من معالم على هذا

الطريق الذي لا يفضي إلى السلطة وإحراز السيادة.. وما بدر منه حين استنصحه صاحبه الطائي ذات يوم، يرسم لنا خطاً واضحاً في سلوك من يعزف عن سلطان الإمارة ويزهد فيه..

كان هذا بعد بضعة أسابيع من موقعة مؤتة - تلك المعركة الحربية التي لم يحقق فيها المسلمون من النصر ما كانوا يشتهون، وانسحبوا منها وقد استشهد على اثرها ثلاثة من خيرة قادتهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة وهم يتداولون اللواء، واحداً بعد الآخر، مناضلين عنه وإن مزقتهم السيوف واخترمتهم الحراب. ومنزهين ديباجته الطاهرة أن تسقط متعفرة بالتراب.. فلقد أراد رسول الله أن يرتق من هيئة المسلمين في شمال شبه الجزيرة ما لعله انفتق في مؤتة، ويوقع خشيتهم في قلوب الروم، فسير عمرو بن العاص على رأس جيش استنفره من عرب تلك النواحي ومعه مدد من المهاجرين الأولين فيهم أبو عبيد وأبو بكر وابن الخطاب.. وكانت غزوة «ذات السلاسل» التي انتصر فيها المسلمون..

يقول رافع بن أبي رافع الطائي، لنفسه:

«والله لأختارن في هذه الغزاة لنفسي رجلاً من أصحاب رسول الله أستهديه. فاخترت أبا بكر...».

ثم يقول:

«... فلما قضينا غزاتنا، قلت له:

«يا أبا بكر.. إني قد صحبتك، وإن لي عليك حقاً، فعلمني شيئاً أنتفع به...».

فقال:

«... تعبد الله لا تشرك به شيئاً. وتقيم الصلاة المكتوبة. وتؤدي الزكاة المفروضة. وتحج البيت. وتصوم شهر رمضان. ولا تتأمر على رجلين».

ويمضي الطائي في روايته:

«. . . فلم نلبث إلا قليلاً حتى أتتنا وفاة رسول الله. فسألت: من استخلف بعده؟. . قيل: أبو بكر. قلت: أصاحبي الذي كان ينهاني عن الإمارة؟. . فشددت على راحتي فأتيت المدينة. فجعلت أطلب خلوته حتى قدرت عليها فقلت له:

«أتعرفني؟. . . أتعرف وصية أوصيتني بها؟. .».

قال:

«نعم. . إن رسول الله قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية، فخشيت أن يفتتنوا. . وإن أصحابي حملونيها. . .».

هكذا أوصى أبو بكر وفاق تركيبة طباعه وصدى لاجتهاد رأيه. . ثم هكذا لم يستوص بنفس وصيته لرفيق سلاحه، عندما ارتأى - كما يلوح - أن دواعي الضرورات تفرض عليه سلوك مسلك جديد. .

والثابت أيضاً أن رفيق الغار كان قبيل البعثة أقرب إلى رياسة قومه وأحقهم بالزعامة حتى لأوشك أن يسود لولا أن خالف إجماعهم، وخرج على دينهم ودين آبائه، مؤثراً أن ينزل من علياء السلطة وأبهتها إلى وهدة التبعية وخشونتها كرجل من عرض الناس وإن هو أهدر من أجل هذه التبعية نفوذه في عشيرته، وأضاع ثروته، واسترخص دمه معرضاً نفسه للهلاك في سبيل دعوة لم يكن أحد ليعرف إلى أين تقوده ولا ما هي فاعلة به، في دنيا الناس. .

حتى حين أوشكت الخلافة أن تدق عليه بابه، بان كمن يميل عنها وينأى بجانبه. ربما إشفاقاً، وربما زهادة. . ولعله استجاب عندئذ لوحي طبعه الذي لا يكلف باستجماع أسباب السلطان، ولا يستخفه بريق مظهره وما يبطن من العزة والجاه. . فما هو أن «كسب» وقعة السقيفة، ورأى الأنصار في غالبيتهم يجنحون إلى رأيه دون رأي رفاقهم أشياع سعد بن عبادة، حتى مد كلتا يديه فأمسك بهذه كف ابن الخطاب، وأمسك بتلك كف ابن الجراح، وهو يقول للجموع:

«أيها الناس. . هذا عمر. وهذا أبو عبيدة. . فأيهما شئتم فبايعوا. .».

فيكون جواب أبي عبيدة:

«إنك لأفضل المهاجرين. وثاني اثنين إذ هما في الغار. وخليفة رسول الله على الصلاة..».

ويبادر عمر:

«بل ابسط يدك يا أبا بكر».

يقول الشيخ لصاحبه:

«أنت يا عمر أقوى لها مني..».

فلا يتردد ابن الخطاب لحظة عن حسم الموقف:

«إن لك قوتي مع فضلك».

وتتم البيعة على نحو ما شهدت سقيفة بني ساعدة في ذلك اليوم المليء بالأحداث والمجادلات..

بل قد ورد، فضلاً عن هذا في بعض الروايات، ما هو أقوى دلالة على زهد الصديق في هذه الإمرة التي أفاءت عليه من مقومات النفوذ ما عسى أن يغبطه عليه غابطون أو يحسده حاسدون. فلقد كشف لنا بعض الرواة عن الشيخ وهو أدنى إلى التفريط في السلطة التي احتازها منه إلى التشبث بها، أن تفلت من بين فكي الليث.. فإذا هو، ذات يوم، يهم أن يخلع طيلسانها ويتخلى عن جاهها وسطوتها وإنه لراض قرير، توقياً لنفسه أن يسوقه السلطان الذي يمتلكه إلى إتيان ما قد يزيد عليه غضب حبيبة رسول الله الزهراء...

كان ذلك بعد اختلافه معها على فدك.. فلقد أبى أن يترك لها هذه الأرض التي كانت تحتها نحلة من أبيها قبل وفاته وإن هي جاءته ببرهان بيِّن.. ومنعها عنها وهو يقول:

«... والله ما أحد أعز علي منك فقراً، ولا أحب إلي منك غنى، ولكني سمعت رسول الله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه فهو صدقة»...».

وأغضبها رده. فما فدك إلا هبة وهبها محمد إياها في حياته تنفق من غلتها ويشهد بهذا علي وأم أيمن.. وحتى لو كانت ميراثاً، فأين في كتاب الله ما يمنعها أن ترث الرسول؟..

وتقول له:

«أفي كتاب الله أن ترثك ابنتك ولا أرث أبي..».

وهل منا من يعلم في القرآن الكريم ما يمنع التوريث وإن كان المورث من الأنبياء والوارث أيضاً من الأنبياء؟..

بل الآية تقول:

«وورث سليمان داوود».

وتغاضبه. وتذهب إلى مغاضبته إلى غاية المدى. فإذا رأى حقاً لها عليه أن يترضاها لعلها أن ترضى، لقي منها أشد الجفاء والنفور.

يقول لها مبدياً أسفه على ما سلف منه:

«يا حبيبة رسول الله.. والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده.. أفترينني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟».

فتمسك نفسها عن الإنسياق لجدل لا جدوى منه.. وتقول له ولرفيقه ابن الخطاب الذي اصطحبه وإنها لتشيح عنهما بوجهها إلى الجدار:

«أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعقلانه؟..».

قالا:

«نعم.. سمعنا من رسول الله».

قالت:

«فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني.. ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه..».

وحزن الصديق كما لعله لم يحزن مثلها قبل يومه هذا مرتين. .

وخرج من لدنها باكياً يترنح، وإن صوتها يطارده:

«لأدعون الله عليك في كل صلاة. .».

وما أحسبها وهي تدعو عليه إلا قد أحنقها أنه اتهمها في صدقها اتهاماً أشد على نفسها من حرمانها من النحلة أو من الميراث. . وما أحسبه وهو يبارحها إلا كان يتعوذ بالله من سخطها ومن عقبى شكواها لأبيها. . لكنه تمالك، ومضى وقدماه توشكان ألا تستقيما على الأرض ومن ورائه صاحبه عمر، بجسمه الفارع كجبل يهم أن ينقض أو كنخلة لا تكاد تضرب في السحاب بذؤابتها حتى تتقوس أمام العاصفة ويمسح سعفها التراب. . وعندما اجتمع بالرفيقين الكبيرين جمهور الناس، وغاض من عيني خليفة رسول الله بعض دمعه، وطاوعه لسانه على النبس بكلام، قال بنبرات المضيع الأسيف حديثاً لعله كان يتعثر بين شفتيه ليأخذ طريقه إلى أسماعهم من سويداء قلبه الحزين خلال فمه الممرور:

«. . . يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتتركوني وما أنا فيه؟. . لا حاجة لي في بيعتكم. . أقيلوني. .».

وليس أقل من هذه المشاهد دلالة على عزوف أبي بكر عن السلطان، ولا أبين أيضاً لتصوره أن غيره قد يكون أجدر منه بهذا السلطان، من ذلك المشهد الذي ينقله إلى النواظر والخواطر عندما حضرته الوفاة، وراح يستعيد في باله ما فات من أعوام عمره، وما قد اكتنفها من أحداث. .

حينذاك نشهده بين بضعة من صحابة رسول الله جاؤوا يعودونه في مرضه عسى أن يهونوا عليه. . فلا يكادون، حتى يصارحهم بما لعله قد حبسه في صدره الشهور بل السنين. .

يقول لهم:

«. . . والله ما آسى إلا على ثلاث فعلتهن ليتني تركتهن. وثلاث تركتهن ليتني كنت فعلتهن، وثلاث ليتني سألت رسول الله عنهم. . .».

فأما الثلاث الأولى فكان من بينهن:

«. . . ليتني يوم سقيفة بني ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين: أبي عبيدة أو عمر، فكان هو الأمير، وكنت أنا الوزير. . . .».

وأما الثلاث الأخرى فكان من بينهن:

«. . . ليتني سألت رسول الله لمن هذا الأمر من بعده فلا ينازعه فيه أحد. . . .».

وبين هذه من الأولى وهذه من الأخرى شوط طويل من الجدال ما زال يتجدد عبر القرون. .



(٤)

هنا لا بد من أسئلة تترى:

لماذا أبو عبيدة وعمر دون سواهما من الناس؟

وفيم كان امتناعه عن سؤال الرسول وقد سنحت له فرص عديدة لإلقاء هذا السؤال؟

وهلا التمس جواب ما أراد عند الذي في آل محمد هو أدنى - لهذا السبب أو لذاك - إلى أن يعرف من حقائق الأمور وخباياها ما قد يخفى على غيره من خيرة الآل ثم من صفوة الصحاب؟.

هنا لا تنضب الاحتمالات. .

فهل «الصدفة» بعض الجواب؟. .

من يدري. .

فلربما جرى ذكر ابن الخطاب وابن الجراح على لسان الشيخ في لحظة وداعه الحياة لأن صاحبيه هذين كانا - على المشهور - اللذين رافقاه من صفوة المهاجرين إلى سقيفة بني ساعدة، فهما إذن أقرب إلى باله ممن عداهما من صحابة رسول الله. .

أم «الهيبة» بعض الجواب؟..

وهل من أحد في كبار المسلمين وزعمائهم كان لا يتهيب، بل لا يرهب أن يسأل النبي لمن الأمر من بعده يكون؟..

لئن سأل منهم سائل هذا السؤال، ونبست بلفظه أو بمعناه شفتاه فلربما رؤى وإنه لجلف إلى حد الحمق، ومنزوع الروية والحياء، ومسرف في التهجم والتقحم إلى ما يجاوز كل مثالب التوقع فضلاً عن الإجتراء.. ثم هو بعد هذا ومعه خليق بأن يظهر في نظرات أبناء الأمة الإسلامية، الذين يشفقون على نبيهم أن يناله أي مكروه وإن هان، كمن يتعجل حينه، عليه صلوات الله، ويستبطئ ساعة رحيله عن دنياهم التي ملأها بالضياء أي امتلاء، ولو كان رحيله هذا من البديهيات..

أم العجلة «بعض الجواب»..؟

أو لم تكن للخليفة فسحة من الوقت، يوم الوفاة، يسعه خلالها أن يتقصى من هذا وسواه من آل رسول الله، اسم من عسى أن يكون محمد، عليه الصلاة والسلام، قد رآه أقدر على قيادة أمته فأوصى له بالأمر من بعده، وثمة الأنصار يتربصون بالإمرة لاقتناصها قبل أن ينتبه أحد من غرمائهم المهاجرين لهذا التربص وهذا الإقتناص؟.

على أن الصديق لم يضرب على يد أحد الرجلين: أبي عبيدة وابن الخطاب لأنهما هما اللذان سبقاه وأدليا إليه بالبيعة، وكأنما أعجلاه عما شاء وعاجلاه بما لم يكن يشاء.

وهو لم يسأل لمن يؤول الأمر بعد الرسول.. ربما لأن الظروف - لضيق الرقعة الزمنية، وتبلبل الأفكار، وحدة المناقشة بين المهاجرين والأنصار - قد أعجلته عن السؤال..

ومع هذا، فقد كان الشيخ، من بضعة أيام، أقرب إلى الجواب الذي كان يرتجيه.. ولو أنه، في اللحظة المناسبة، استشار ذاكرته لأعلمته خبر ما جرى يوم الخميس السابق لوفاة رسول الله، ولاستطاع - ومحمد بعد بين

الأحياء - أن يصل ما انقطع من هذا الخبر المبتور..

يومئذ كان نفر من الصحابة قد التفوا حول فراش رسول الله.. هو يشكو ما يلقى من مرضه، وهم يحاولون أن يهونوا عليه. فلما انقضى بعض الوقت في مثل هذه الشكاية وهذا التهوين التفت إليهم الرسول يقول:

«إيتوني بدواة وصحيفة[١] أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده..».

قال عمر[٢]:

«إن رسول الله قد غلبه الوجع[٣].. حسبنا كتاب الله..».

وقال سواه:

«بل قربوا يكتب رسول الله..».

ثم اختلف الباقون بين موافقة وإباء الإختلاف الذي أثار بينهم النقاش، وحرك الجدال، وأوشك أن يشعل الشحناء.. فأما وقد بلغ بهم الأمر هذا المبلغ من اللغط الذي لا يحمد من أمثالهم في حضرة نبيهم رداً منهم غير كريم على دعوة منه كريمة فضلاً عن أمر عليهم أن يطيعوه، فقد ضاق بفعلتهم، عليه صلوات الله، ونهرهم أن تمادوا في ذلك اللجاج..

«قوموا.. ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف..».

ونفضتهم عبارته هذه عن مجلسه نفضاً، فغادروه..

وإذا كان رواة هذا الخبر لم يسلكوا أبا بكر مع من شهدوا ذلك اللقاء فهل ثمة شك في أنه سمع نبأه ممن شهدوه وعلى رأسهم ابن الخطاب؟.. وما له - إذ سمع - لم يخف يومئذ إلى محمد يسأله عما أرادهم أن يدونوه؟..

لو فعل لكان الفعل هو الأليق بمن هو مثل الصديق حرصاً على أمته أن

---

(١) في قول «آتوني بكتف ودواة» -.. وفي قول آخر: «هلموا أكتب لكم كتاباً».. ولم تذكر بعض الروايات اسم عمر.

(٢) محمد رضا المظفر: «السقيفة».

(٣) وقيل: يهجر.

تنوشها الغواية، أو يستخفها الضلال. ولكان أثرى عقول المسلمين، وصقل ضمائرهم، وطهر أنفسهم أن تطغى أو تستكين. ثم لكان في الأغلب - كما يرى راؤون - قد قبس من نور النبوة اللألاء شعاعاً هادياً يلقي بضوئه الكاشف على بعض ما يجهلون، وعلى من عساه يكون أولى بإمرة المؤمنين بعد رحيل الرسول.

لكنه لم يفعل.

لم يسأل..

الروايات التي انتهت إلينا، مصورة جوانب حياة الشيخ وما بها من مواقف ذات أثر في الحياة الإسلامية العامة، لم تشر، فيما نعلم، إلى أنه حاول أن يعود إلى نبيه الكريم بعد يوم الخميس ذاك، مستفسراً منه عن كتابه الذي أراد أن يمليه، وإن كان ذلك السر الذي طواه في صدره، عليه الصلاة والسلام، لحقيقاً بالاستفسار..

تلكم الروايات نفسها لم تشر أيضاً إلى أنه حاول أن يعود إلى صاحبه عمر مراجعاً إياه في ذلك السلوك الذي بدر منه نحو النبي وإن كان سلوكاً حقيقاً بالإستنكار..

أم لم يعرف، وما يحسب امرؤ أن تخفى عليه خافية من شؤون عمر بن الخطاب وإنهما الرفيقان اللذان لا يفترقان، ولا يداري أحدهما عن أخيه كما لا يفشي عليه سراً من الأسرار؟..

فإذا هو سكت عن سؤال الرسول عن الصحيفة، ثم سكت عن مراجعة عمر في مسلكه، فإنه السكوت الذي يقع في مجال العجب إن لم يكن يقع في مجال الاستنكار.. فلقد عهدناه ينحى بلومه على ابن الخطاب، ذات يوم من بضع سنين وما أتى إلا بخشونة صادفت ميقاتها وموقعها، هي أحرى، لا مراء، بأن تغفر لعمر حين يستعصي على سلوكه يوم الصحيفة والدواة أي غفران..

فإبان مفاوضات «الحديبية» بين رسول الله وسهيل بن عمر مندوب

قريش، كان محمد عليه الصلاة والسلام يملي وثيقة الإتفاق، وعلي بن أبي طالب يكتب، على مسمع ومرأى من كثيرين . .

يقول محمد[1] لابن عمه، مملياً عليه:

«أكتب بسم الله الرحمن الرحيم . .».

فيقطع عليه إملاءه سهيل بعناد جاهليته الخرقاء:

«أمسك . . لا أعرف الرحمن الرحيم . . بل اكتب باسمك اللهم . .».

فيوافق النبي ويملي:

«اكتب: باسمك اللهم . . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . .».

لكن رجل قريش يعترض ثانية:

«أمسك . . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . . بل اسمك واسم أبيك . .».

ومرة أخرى يوافقه الرسول ويملي على علي:

«اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . .».

وكثر تشدد سهيل في هذه المفاوضات . وكثر تساهل محمد حيال هذا التشدد حتى لضاق بعض المسلمين بشروط الاتفاق صبراً وإن كظموا الغيظ وعضوا على الشفاه أن تنبس، ثقة منهم في نبيهم، وإيماناً عميقاً بحكمته . .

أما عمر فلم يستطع أن يمسك نفسه . . حمله العنف الذي ينطوي عليه طبعه، وتلك الدفعة التي تسبق أحياناً رويته، أن يبدي من غضبه ما لعله ود لو أخفاه لولا أن انفعل غيرة وحمية، فانبرى يقول:

«أولسنا بالمسلمين . . أو ليس برسول الله . . فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ . .».

---

(١) محمد بن جرير الطبري: «تاريخ الأمم والملوك».

فثار به أبو بكر . .

«إلزم حدك يا عمر، فإني أشهد أنه لرسول الله . .».

أما الرسول الكريم فقد قال له، ولمن حوله، بيقين العارف ورفق المطمئن:

«أنا عبد الله ورسوله. لن أخالف أمره ولن يخذلني . .».

أفلم يكن اعتراض عمر بن الخطاب - أو أيما رجل آخر - يوم الصحيفة والدواة أحق بالمراجعة من موقفه بالحديبية؟

لا ريب.

ذلك أنه الاعتراض الذي كان يحجب عن الناس ما كان أولى لهم ثم أولى أن يعلموه ضناً بذخر ثمين من ذخائر حكمة الرسول أن يغيب تحت ركام المجهول . .

غير أننا لم نر أبا بكر يراجع رفيقه فيما خالف به اللائق ممن هو مثله في حق نبيه العظيم . . ثم لم نره أيضاً يصل ما قطعه عمر من ذلك الحديث الذي لم يتح له أن يصافح الآذان بينما كانت للشيخ التيمي فسحة من الوقت ممدودة إلى خمسة أيام ليسأل خلالها فيعلم، ويعلم المسلمون بعده، ما لو عرفوه ما ضلوا أبداً ولا حادوا عن سواء السبيل . .

(٥)

لكن ذلك العاصم من الضلال . . ضيعوه . .

ذلك الكتاب الذي ود محمد أن يمليه، أبوا عليه أن يخرج إلى النور . .

حجبوه . .

لكأنما مزقوه . .

فعلى من تقع تبعة هذه الخسارة التي تكبدتها منذ تلك اللحظة أمة

الإسلام، وما زالت إلى اليوم تتكبدها، وتدفع ثمنها من دمها وعرقها ونصيبها في الحياتين، جيلاً وراء جيل..

من المسؤول؟..

وهل عمر وحده الملوم؟..

ولأي غاية كان هذا السلوك؟..

كيفما كانت احتمالات الخطأ أو احتمالات الصواب في أي سلوك، فهذا السلوك الذي يبرز لنا من وراء قصة الدواة والصحيفة، كفة الخطأ هي الراجحة فيه كل الرجحان وإن ظن ظان أنه الخطأ المغفور الذي يثاب عليه صاحبه بأجر حين يكون لصاحب الصواب أجران..

فربما تبدى سكوت أبي بكر، من بعد على هذا الرأي - وقد انتهى إليه لا محالة من هنا أو من هناك - وهو أشبه بتسليم المغلوب منه بإقرار الراضي، بعد أن حملته تلاحق الأحداث حتى وفاة الرسول على السكوت، أو لم يدع له في الأرجح، سوى منفذ لا يفضي لغير السكوت..

والقضية هنا ظنية..

احتمالات في هذا الجانب، واحتمالات مضادة في ذاك..

ولا معيار لتحديد حقيقة المواقف التاريخية في استقامتها أو انحرافها سوى الترجيح..

والترجيح ليس مفلوت العنان يعربد ويضرب في الأرض والهواء حيثما شاء.. لكنه محكوم باعتبارات شتى من المقومات النفسية، والأسس الخلقية وروافد التفكير، ودوافع السلوك..

أما الوقائع وحدها فعاجزة بذاتها عن بيان حقيقة الموقف وعن تقديره لأنها جامدة.. وكالجوامد قد تكون صماء وقد تكون جوفاء، ومن ثم فإنها لا تستطيع اكتساب حيوية الحركة، وعمق الصدق، والقدرة على صياغة الحياة أو في اكتساب إذا ندت عن هذا دون غيره من الناس..

فالذي يبدو صواباً وقد وقع من هذا قد يبدو خطأ لو وقع من سواه. وما يظهر كالخطأ من شخص، لا يبعد أن يظهر من آخر كصواب. ذلك لأننا في تقديرنا لحقيقة الموقف لا ينبغي أن نحتكم إليه إلا وهو منسوب إلى من وقع منه:

وإذن فلا تجريد ولا إطلاق..

وبحسبنا أن نذكر، من قبيل سوق الأمثال، أن محمداً، عليه الصلاة والسلام - وهو الذي لا يخطئ - قد حسب عليه موقفه العظيم في الحديبية يومها ولم يحسب له، لأن أولئك الذين قوموا ذلك الموقف عندئذ قوموه على وجه الإطلاق والتجريد غير منسوب إلى صاحبه الذي اختاره أو ابتناه وبهذا جانبهم التوفيق. أما أبو بكر فقد أصاب الحقيقة في نفس ذلك اليوم عند التقدير لأنه لم يفصل الموقف عن الرسول..

على هذا الأساس لا يصعب أن تغتفر لابن الخطاب وقفته يوم الحديبية معارضاً أو مناقضاً، لأنها الوقفة التي ترى - وهي منسوبة إليه - غيرة على الإسلام لا تطاولاً على مقام النبي الكريم..

فهل يمكن أن تقاس وقفته يوم الدواة والصحيفة بنفس المقياس؟..

عسير الجواب..

وأعسر منه أن تتلمس للرجل الأعذار.

لقد يقال إنه أشفق على محمد وقد غلبه الوجع أن ينهكه في وعكته الشديدة تلك - أن يتحدث ويملي، أوجز أو أطال في الحديث والإملاء..

ولقد يقال إنه خشي عليه أن يرهقه جدال أولئك الذين أكبوا عليه، والتفوا بفراشه، وزاحموا هواء حجرته بأنفاس حرى، ولفظ صخاب لا يحتملها مريض..

ولقد يقال إنه، بقولته تلك، أراد أن يضيق على الزائرين فسحة المكث فينفض جمعهم لكي لا يتضاعف ألم النبي، ولا تشتد عليه وطأة المعاناة إن

هو، صلوات الله عليه، انتبه في وجوههم الباسرة إلى دمعة باك، وعبسة مخزون وحسرة ملهوف. .

افتراضات. .

افتراضات قد تساندها بعض المساندة كلمات عمر التي لا يستطيع منصف أن يجردها كل التجريد من معنى الإشفاق. .

ومع هذا كله. . ومع غيره من ألوان التبرير - لو حق تبرير - لا يعدم المرء أن يرى وجهاً آخر لهذا الموقف العمري يتعذر العثور على دواعيه.

أم من ذا الذي يسعه أن يغتفر لابن الخطاب تصديه لمعارضة رسول الله معارضة أدت إلى منعه، عليه الصلاة والسلام، قبيل احتضاره ببضعة أيام، أن يمارس حقه الشرعي في الإيصاء بما يشاء لمن يشاء؟.

إن الله سبحانه وتعالى قد كفل للمسلم حق الوصية في المال، بقوله عز من قائل في محكم التنزيل:

«كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف - حقاً على المتقين».

فهلا يحق لرسول الإسلام - وقد حضرته الوفاة - أن يوصي لأمته من بعده بما هو خير لها في الدنيا والدين؟

ولماذا إذن كان ذلك الموقف الغريب الذي وقفه ابن الخطاب وأدى إلى حرمان محمد حقه في الإيصاء؟

ثم ما هو التفسير المقبول لهذا الموقف، ولسكوت أبي بكر عن عمر لم يراجعه فيه وإنه للموقف الأولى من موقفه في الحديبية بالمراجعة والتصحيح؟

ونعود إلى ما أسلفناه فنقول:

إن كثيرين كانوا يرون، ولا يزالون إلى الآن، أن هذا الذي كان إنما جاء نتيجة تدبير سابق أبرمه الصاحبان قبل وفاة الرسول الكريم. .

بل قد جاء قبل يوم صحيفة الوصية التي طواها عن أعين المسلمين وعن

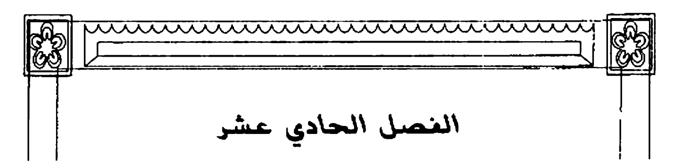
سمع الزمان كنص مكتوب ومقروء ذلك الصاحب منهما المحسوب بين صفوة أصحاب محمد، وخيرة رجال الإسلام. .

بل قد جاء قبل هذا وذاك من الأيام بوقت لم يتكشف لنا مداه، ربما يقصر وربما يطول. .

الشيخان، كما يقال، عقدا اتفاقاً وضعاه في الخفاء، وغلفاه بالإسرار. . ثم مضيا إلى غايته على طريق رسماه. . ورافقهما في هذه الرحلة «السلطانية» قدماً بقدم، وكتفاً إلى كتف، وساعة بساعة ثالث ثلاثتهم: أبو عبيدة بن الجراح. .

فهل هو حق الذي يقال؟. .





الفصل الحادي عشر

(١)

ما قد نسب إلى الشيخين: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من اتفاق في قضية الخلافة.. يكاد يبديهما كأنما استحوذا على إمرة المؤمنين غصباً بعد تدبير محكم دقيق ومن وراء الظهور والأبواب..

وهذا التدبير، في رأي من يقولون بحدوثه، يرجع إلى ما قبل موعد اجتماع السقيفة بوقت لا يذكرون مداه، لأنه لا يعرف على وجه التحقيق والتحديد..

لكنه يسبق وفاة رسول الله، بطبيعة الحال.

ويجمع أبا عبيدة بن الجراح إلى صاحبيه الكبيرين في رباط واحد، جمع قرين إلى قرين..

ويرسم الرجال الثلاثة كطلاب سيادة، ما أن تسنح لهم الفرصة التي ترقبوها حتى يلقفوا الإمرة المنتظرة، ليتداولوها من بعد تباعاً، كل واحد بميقات..

والتدبير المنسوب إلى هذا النفر من خيرة صحابة رسول الله المشهود لهم بالجنة، ليس مجرد كلمات نبس بها هذا أو ذاك من المؤرخين أو المعلقين لتمر عن طريق آذان إلى شفاه.. ثم من وراء شفاه إلى آذان.. ثم تظل هكذا تنتقل، في حركة دائبة لا تفتر ولا تكف، بين أفواه وأسماع، وأسماع وأفواه. تماماً كتنقل الأحياء وتجددهم في أجيال تتتابع أبد العصور والدهور من خلال دورة الحياة..

كلا.. ليس كله مجرد كلمات قيلت وتقال.. أو مجرد ادعاء..

إنه، في رأي القائلين به، أفعال صورتها أقوال، وأقوال جسدتها أفعال..

والنماذج بادية بلا خفاء..

فلقد يوشك من يتفحص منطوق روايات الرواة الذين يقصون علينا من أنباء هذه الفترة القصيرة من تاريخ الإسلام.. ثم يتعمق بعض دلالاتها.. ثم يطفو بها أمام الأنظار، أن يجعلنا نرى فيها معالم بارزة على طريق التدبير..

وليس من قبيل التكرار، بل للتذكار، استعادة بعض تلكم الصور أمام الانتباه..

فهناك صورة تهديد عمر للقائلين بالوفاة..

وهناك صورة ما كان يوم الدواة والصحيفة..

وهناك صورة اختلاس الخلافة في غفلة من آل البيت..

فأما في الأولى وهي التهديد فقد رام ابن الخطاب - كما يقال - شغل المسلمين عن موت محمد نأياً بهم عن الحقيقة بالخلافة بعده - عليه الصلاة والسلام - أن يذكروه.. وهل ثمة مجال لذكره والنبي حي، قد ذهب إلى ربه، كذهاب موسى، ولن يلبث إلا قليلاً ويعود؟..

والصورة، كما سلف البيان، أبعد عن احتسابها من دلالات التدبير أو مرجحاته على السواء..

فهي واجبة الإسقاط إن لم تكن محتومة الإنتفاء..

ذلك لأنها مرتابة الرواية، لا تساير حركة الحوادث، ولا توافق منطق الأمور وبداثة العقول..

ولأنها تناقض الأحرى بعمر أن يستيقنه، لا كانسان عادي فحسب، بل كمؤمن وثيق الإيمان، وقارئ عالم بالقرآن..

ولأنها تخالف مخالفة صريحة ظروف الواقع الذي عايشته وعاشت فيه، أو سبقها بأيام بل بساعات معدودات..

ولأنها تنافي تمام المنافاة ما هو راسخ في روع الناس منذ بدء الخليقة عن تلازم الموت والحياة: سنة الخالق في جميع المخلوقات..

ولأنها تنم عن مكنون المعنى بما تحاول بظاهر اللفظ أن تستره.. فتزعم أن محمداً ذهب لربه كذهاب موسى ابن عمران، وهو صلوات الله عليه مسجى أمامهم في فراشه بقي البدن وذهب الروح.. بينما موسى قد ذهب، روحاً وبدناً، إلى موعده مع الله..

وإذن فلا محل في إطار تلك الآونة لصورة التهديد.. ولا لاعتبارها خطوة جادة على طريق تضييع الإمرة من يد الإمام، ما دامت تفرزها تناقضات تؤدي إلى السير ضد تيار الأحداث فضلاً عن مجافاتها لنواميس الطبيعة وواقع الأديان، وأعراف الناس..

وأما في الثانية، وهي الصحيفة والدواة، فإنها تقد عمر، على المشهور - وتقد آخر غيره مجهول الاسم في روايات - وهو «يصد» النبي عن إملاء كتاب يجنب أمته عاديات الضلال..

والصورة حقيقة بأن تميل بالمرء إلى رفضها حين يسبق إلى الذهن أن عمر أو أياً من الناس لا يمكن أن يصد الرسول عن قول ما يريد أن يقول.. لكن إمعان التأمل فيما بها من أضواء وظلال، مع مضاهاتها بما قد يشابهها - كما كان منه في الحديبية - لا يمنع من حملها على محمل الجد، أو يرى، في القليل، أن وقوعها غير مستحيل..

وما وقع من ابن الخطاب يوم الصحيفة ورسمته العبارة المنسوبة إليه غريب، يضع صاحبه في حرج من أمره، كما يضع من يحاول تفسيره أو تبريره في حيرة أي حيرة.. لكن تقويمه التقويم السليم، أو وزنه بالقسطاس المستقيم قد يسهل حين ينظر إليه من خلال مقومات الشخصية العمرية.. ومن ثم فليس بمستبعد بحال ألا يرى فيه كثيرون رأياً لعمر أرتآه لا أثر فيه لمجافاة أدب الحديث أو للتطاول على رسول الله..

على أن صحة الحكم على هذا الموقف تدعو المتأمل فيه إلى ضرورة

ربطه بغيره من المواقف التي لعلها تتصل به من قريب أو من بعيد لكيلا نضل عن سلامة التقدير، أو ننتهي إلى حكم مبتور. . فماذا من مواقف عمر الأخرى تستطيع وضعه في إطار الصورة العامة لتضييع الإمرة من يد الذي هو أولى بها من غيره بين الصفوة المجتباة من خيرة المؤمنين؟. .

هنا نصل إلى حلقة أخرى من حلقات التبييت أو التدبير. .

نصل إلى صورة «اختلاس» الخلافة في غفلة من آل بيت الرسول. .

والمشهد الذي يطفر إلى الأذهان في هذا المقام، هو مشهد عمر بن الخطاب حين نمى إلى سمعه نبأ اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون في عقد الخلافة لصاحبهم سعد بن عبادة. .

فعندئذ خف عمر على الفور، فبعث رجلاً إلى أبي بكر الصديق حيث كان بدار محمد مشغولاً - كما قيل - مع آل النبي بتجهيز الجثمان الكريم. .

وطرق الرجل الباب. فلما فتح، أسر لأبي بكر:

«إن ابن الخطاب يدعوك. .».

فرده الشيخ:

«إني مشتغل. .».

لكن عمر يعاود الكرة، فيأبى أبو بكر ثانية، ويقول:

«أفي هذه الساعة. . إني مشتغل بجهاز الرسول. .».

فيساره رسول عمر:

«إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره. . وقد جئتك أبلغ. .».

وعلى الأثر يسرع الصديق بالخروج. .

وعلى الأثر ينطلق ورفيقه ابن الخطاب إلى السقيفة يهرولان، يفسحان الخطا ويزويان في نفسيهما ما ينبغي أن يقال في ذلك الجمع الذي شاؤوا نقل تراث محمد من عشيرته الأقربين، ومن ورائهما ثالث ثلاثتهما: أبو عبيدة بن الجراح. .

(٢)

بدا كأنما اللهفة أنست أبا بكر، ثم من بعده رفيقيه، أن يبلغوا أحداً من آل محمد خبر ما خرجوا له، أو أن يبعثوا إلى واحد منهم ليلحق بهم على الطريق.. وبدوا وقد أعجلهم أمرهم كأنما كتموا الخبر عن الأحقين بأن يعلموه وهم لا يكادون يدركون أنهم كتموه..

أم قد شاؤوا أن يتداركوا صولة الأنصار قبل استفحالها وأنهم - ثلاثتهم أغلب الظن - ليعلمون بأن الأقدر منهم على تدارك هذا الموقف الخطير قد ضل عنه تقديرهم، وخلفوه وراءهم في عماية ما يقال فيه إنهم قد غفلوا عنه أو تغافلوه..

لأمر ما غلف الرفاق الثلاثة انطلاقهم إلى السقيفة بالكتمان..

لأمر ما لم يشركوا في سرهم هذا أحداً من كبار المهاجرين الأولين، الذين انطلق أبو بكر يتحدث باسمهم في اجتماع الأنصار، وكان أقوى لشأنه في السقيفة لو صحب طائفة منهم تساند رأيه، وتؤمن على ما يقول..

لأمر ما، قيل هذا كله، لم يطلعوا على الأمر أحداً من آل محمد، وفي مقدمتهم بطبيعة الحال، علي بن أبي طالب، من له الصدارة في الناس، ديناً وسابقة وعلماً وقرباً من رسول الله..

ثم يضيف مشهداً آخر إلى أجزاء الصورة التي يضمها الإطار، ليرى فيها من يريد التأمل، كيف منعت الإمرة عن الأجدر بها، والأدنى إليها، والأعرف بحقها، والأحرص فيها على التزام سيرة نبيه العظيم..

والمشهد لم يند عن طارئ عابر، بل هو أبعد عن الصدفة وأقرب إلى العمد المقصود..

يشير إلى هذه «العمدية» ما أسفرت من بعد عنه الأيام..

فحين أحس الخليفة الأول دنو أجله، دعا إليه عبد الرحمن بن عوف يشاوره، فإذا هو يكشف بهذه المشاورة عما عقد عزمه وبيت نيته عليه..

يقول له:

«أخبرني عن عمر..».

يجيب عبد الرحمن:

«يا خليفة رسول الله.. هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة..».

يقول أبو بكر:

«ذلك لأنه يراني رقيقاً. ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه..».

ثم يدعو إليه عثمان بن عفان، يسأله:

«يا أبا عبدالله.. أخبرني عن عمر..».

يقول مجيباً على سؤاله:

«أنت أخبر به يا خليفة رسول الله..».

فيلح أبو بكر:

فيرد عثمان:

«اللهم علمي به أن سريرته من علانيته وأن ليس فينا مثله..».

يقول الخبر:

ثم يطلب من مشيريه: ابن عفان وابن عوف، أحدهما بعد الآخر أن يكتما ما دار بينه وبين كل منهما من هذا الحديث.

أما علي بن أبي طالب فلأمر ما أسقطه خليفة رسول الله من حسابه، عند الاستشارة وعند الاستخلاف..

لأمر ما..

ويأتي، من بعد، مشهد غير هذه المشاهد، يعمق الظلال، ويظهر الألوان..

فما أن يطعن عمر، ويحس أن الطعنات لن تلبث أن تذهب به إلى ما تحت أطباق رمسه حتى يقف من على - أو يكاد - نفس موقف سلفه الصديق . .

يقال له وهو ينوء:

«يا أمير المؤمنين . . لو استخلفت . . ».

فيكون جوابه:

«إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير منه . . ».

ثم يعاود حديثه، بعد قليل، على من حضره من صحابة رسول الله:

«لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، وقلت لربي لو سألني: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة . . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي لو سألني: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله . . ».

ولأمر ما، أيضاً، أسقط علياً من الحساب . .

لكنه الإسقاط الذي يبدو كأنما يؤيد رأي القائلين بأن الرفاق الثلاثة قد انعقدت نيتهم - أو على الأقل نية الاثنين ذوي الحول والطول منهم - على أن تكون إمرة المؤمنين دولة فيهم، يتولاها كل واحد منهم بميقات معلوم . .

على أن عمر يخالف عندئذ قاعدة قد بادر بوضعها سلفه العظيم للاستخلاف، تلك القاعدة التي تحصر إمرة المؤمنين في قريش من خلال مهاجريهم الأولين، واتخذها سلاحاً قاطعاً في وجه الأنصار، أشهره في اجتماع السقيفة، قهر به ما بدا من تطلعهم المنهوم إلى خلافة المسلمين . .

فما الذي دفع ابن الخطاب إلى مخالفة هذه القاعدة حين أتيح له أن يضع امرأ على رأس الناس؟ . .

وكيف ود - لولا أن سبقه الموت - أن يستخلف سالماً مولى أبي حذيفة وما هو من قريش في شيء؟ . .

وهل ترى كان احتجاج أبي بكر بوجوب توافر النسب القرشي فيمن تجوز له الإمرة مجرد ذريعة لكف دعوى الأنصار وإبعادهم عن ميدان التنافس على رياسة الدولة؟

أم ترى كان أمير المؤمنين الطعين قد غلبه يومئذ «الوجع» الذي كان، لا محالة، يفترسه افتراساً من خلال جروحه العميقة التي حفرها في جسده خنجر ذو رأسين، بنصاب في وسطه، عرف ذلك المجوسي: أبو لؤلؤة، كيف يضرب به فيثخن، ويديره كالرحى الطاحنة بين اللحم والعظام، حتى لينفث كالثعبان سموم الألم في جوارح الشيخ المصاب، وفي أعصابه إلى النخاع. فإذا هو «يهجر». . وإذا هو يقول ما لم يكن يدور له بحسبان. .

أم قد تزيد بعض الرواة تزيداً لا يبعد عن الظن، فأضافوا إلى أسماء الرفاق الثلاثة اسم «سالم» ليبعدوا بهذه الإضافة اتهام ثلاثتهم بالتدبير الذي قد يقال إنهم بيتوه ثم أنفذوه، حرصاً على الخلافة الإسلامية أن تظل في عشيرتهم الأقربين؟. .

وليس هذا التزيد - لو حدث - بغريب. . فما أكثر ما قد أضيف إلى التاريخ. .

وما أكثر ما قد انتقص منه مسايرة للاتجاهات السياسية أو المذهبية السائدة في هذا العصر من العصور أو ذاك وكانت تلون بلونها الأحداث، أو تطمس بعضها، أو تشذب منها كما يشذب المرء من وحشي النبات ويقتلع ريش الطيور. .

وليست هذه الرواية أيضاً هي الوحيدة التي أضافت إلى اسم أبي عبيدة إسماً رابعاً - أو أكثر - لتلك الجماعة، ود عمر - بمنطوقها - لو أوصى له من بعده بالأمر.

فلقد ورد أن عبدالله بن عمر ذهب من لدن أبيه إلى عائشة أم المؤمنين يستأذنها عنه في أن يدفن في بيتها إلى جوار رسول الله وأبي بكر، فرضيت. . وأمرت عبدالله أن يقول لأمير المؤمنين:

«لا تدع أمة محمد بلا راع.. استخلف عليهم..».

وكلمة «استخلف» بليغة في التعبير عن «الإيصاء»..

قال عمر لولده بعد أن سمع رأي السيدة:

«ومن تأمرني أن أستخلف؟..».

ثم أضاف:

«لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته. فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي: من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي رب سمعت عبدك ونبيك يقول: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح.. ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته. فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي رب.. سمعت عبدك ونبيك يقول: إن معاذ بن جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة.. ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته. فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي رب سمعت عبدك ونبيك يقول: خالد[1] سيف من سيوف الله سله على المشركين..».

فهذه رواية أحرى بأن تصور لنا كيف تضطرب الروايات بين الإضافة وبين الإنتقاص..

أم لعل عمر، في محنة وجعه، قد ذكر هذا أو ذاك من أسماء صحابة رسول الله وهو يعني، أو لا يعني، ما يقول شأن مريض طعين موعوك منهوك..

أم لعله ذكر هذه الأسماء ذكر مترحل إلى الآخرة تطالعه - من وراء ما يخفى عن عيون الملتصقين بعد بالدنيا - صور بعض الذين سبقوه إلى الله، فيلهج بأسمائهم لسانه لهج مشوق إلى اللقاء؟.

أم لعله ذكرها مغايراً، من لحظة إلى أخرى، بين الأسماء إذ يحضره اسم قد يريبه من صاحبه شيء فيقصيه، واسم آخر قد يرضيه من صاحبه شيء فيدنيه؟..

---

(١) ابن قتيبة: «الإمامة والسياسة».

كل هذا خليق أن يخطر بالبال..

لكن الأولى بأن يقال - على الترجيح أو الإحتمال - هو أن هذه المغايرة على لسان بن الخطاب، بين أسماء من رآهم حقيقين بالإمرة، وإنما هي أشبه بأن تكون تزايداً من الرواة..

ونظرة عمر إلى خالد هي - دون أدنى ريب - مفتاح هذا الاحتمال..

فلم يكن يسيراً على ابن الخطاب أن ينسى إنكاره على ابن الوليد الكثير من فعاله، حتى لقد ذهب في هذا الإنكار أبعد المذاهب. فعزله من إمارة الجيش مرة، وصادر بعض ماله مرة أخرى، وأزرى به علانية على رؤوس الأشهاد مرات..

وكيف لا ينكر عليه وقد شهد، أو سمع، من ضروب سلوكه ما يعاب؟

والصور شتى..

في فتح مكة بعث رسول الله خالداً ليدخل البلدة الحرام من أسفلها. وأمره أن يكون سلماً لمن سالم، وحرباً على من حارب. وألا يقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً أجيراً.. لكن طبيعة الجندي في المبعوث تغلبت في نفسه على التزام الأناة والهوادة، فإذا هو يقتل جماعة من قريش ونفراً من هذيل. وإذا بين قتلاهم امرأة.. فلما أن سئل سر فعلته هذه، كان عذره أن الذي أبلغه يومئذ أوامر النبي قد أساء التبليغ..

وفي بني جذيمة بن عامر، مضى داعياً للإسلام لا متحيزاً لقتال. لكنه مرة أخرى، ينصاع لصوت سيفه، فيقتل من القوم من يقتل، مخالفاً عن أمر رسول الله.. ولعل عمر، وقد بلغ نبأ ابن الوليد المدينة، رأى يومئذ محمداً يرفع يده إلى السماء غاضباً حزيناً، يشهد الله:

«اللهم إني أبرأ إليك من صنع خالد[1]..».

وعندما كان يشارك في قمع المرتدين، يؤتى له بمالك بن نويرة في

---

(١) صحيح البخاري..

جماعة من قومه: بني يربوع، فيشهد طائفة من المسلمين لهم أنهم أذنوا وأقاموا الصلاة فهم إذن على الإسلام. وتشهد طائفة بغير هذا الذي يقال.. فإذا تعذر، مع هذا الخلاف في الرأي بين الطائفتين درء شبهة الردة أو إثباتها، انبرى مالك يقول لابن الوليد:

«ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا..».

لكن خالداً يأبى ويقول:

«لا أقالني الله إن لم أقتلك..».

ويأمر به فيقتل، بينما قتل رجاله نفراً من قومه.. ثم لا يلبث أن يأخذ ليلى، امرأة مالك، فيعرس بها وهو بعد في ميدان القتال..

ويطيش صواب عمر لهذه الفعلة الشنعاء، فلا يزال بصاحبه أبي بكر حتى يبعث إلى ابن الوليد يدعوه.. فإذا جاء القائد ودخل المسجد ليقابل خليفة المسلمين، انتفض ابن الخطاب ثائراً به.. يقتلع من عمامته أسهماً - كان يغرزها فيها إيماء إلى صولته الحربية وتيهاً ومباهاة - فيكسرها، ويلقى بها محطمة تحت قدميه.. ثم يصيح به يتوعده أشد وعيد:

«قتلت أمرأ مسلماً(١)، ثم نزوت على امرأته.. والله لأرجمنك بأحجارك..».

وإذا كان خالد قد نجا، في ذلك العهد، بنظرة الصديق أو برفقه، من مغبة مثل هذه الغضبات العمرية، فإن العلاقات بين الرجلين غدت على حافة الإنفجار ولم يعد ثمة من يدفع عن ابن الوليد من شدة عمر شيئاً بعد أن آلت الإمرة إليه..

يكتب ابن الخطاب، وهو عندئذ أمير المؤمنين، إلى ابن الوليد يراجعه في حساب ما لديه من مال ويأمره ألا ينفق منه شيئاً إلا أن يستأذنه فيأذن له بالإنفاق.

(١) ابن الأثير.

لكن خالداً الذي يعرف لنفسه حقها كرجل في عمل عام، ويعرف أن المسؤولية ينبغي أن تقابلها حرية التصرف، لا يقبل من عمر أمره. ويرد عليه بمثل ما رد من قبل، في موطن مماثل، على أمر كهذا من أبي بكر الصديق..

يقول في جوابه:

«دعني وعملي.. أو شأنك وعملك..».

وكان من الطبيعي أن يأبى عمر على عامله خالد هذا الإسراف منه في الإعتزاز بنفسه. فيبعث إلى أبي عبيدة فيعتقله. ثم يحاسبه. ثم يصادر ما زاد من عروضه في ذلك المال إلى بيت المال..

على أن الأحرى بالتأمل في مواقف عمر إزاء خالد، هو ما كان من موقفه إبان حرب الشام.. فمع كل ما أسفرت عنه الأيام من انتصارات خالد وحسن بلائه في شتى مواقع الجهاد، وما بلغه في فنون القيادة العسكرية من ذرا لا يكاد يبلغ مستواها الرفيع قائد من القواد، حديثاً وقديماً إلا أقل القليلين - مع هذا كله فإن عمر لم يتحرج عن عزل خالد من إمارة الجيوش، والنزول به جندياً من عامة الجنود.. فلما سأله الناس فيما فعل بهذا السيف من سيوف الله، قال:

«... لا لسخطة ولا خيانة. لكن الناس فتنوا به... فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا.. فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بمعرض فتنة..».

ولما سأله خالد كان جوابه:

«إن الناس افتتنوا بك، فخفت أن تفتتن بالناس..».

رأي لعمر معروف في كبار صحابة الرسول..

على أن نظراته إلى خالد[1]، كما صورتها تلكم المواقف، مانعة بلا

(١) السعودي: «مروج الذهب ومعاون الجوهر» وقد كان في نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبي بكر في قصة مالك بن نويرة وغير ذلك.

ريب ترشيحه إياه للخلافة من بعده منعاً قاطعاً لو طال الأجل بالقائد العظيم . .
فتلك نظرات من يقول:

«لا» ويعلقها على طرف لسانه ليكون دائماً على أهبة النطق بها كلما حان أن تقال! . .

أما الروايات التي ترددت فيها أسماء شتى، وتغايرت من رواية لرواية، فإنها أدنى إلى أن تكون قد وضعت وضعاً في فم ابن الخطاب وطبعت على شفتيه . . وضعها أو طبعها هذا الراوية أو ذاك . . وهي أخلق بأن تحسب في التزايدات والإضافات التي لم يخل منها تاريخ عهد من العهود فضلاً عن هذا العهد الذي كان أرضاً صالحة لكثير من الأهواء السياسية، والنعرات العصبية، والنزعات المذهبية، تحرثها وتبذر فيها وترويها لتطلع لها ما تشاء . . وهي، على حقيقتها تلك، أشبه بأن تكون وسيلة لدرء الشبهة ودفع الاتهام عن الرفاق الثلاثة أن ينظر إليهم كمن بيتوا النية وعقدوا العزم من بدء الأمر على تداول الخلافة بينهم ثلاثتهم واحداً بعد واحد، كل واحد بميقات . . أم كيف لا تكون دريئة ودفاعاً عن ابن الخطاب وإنها لتظهره يود لو يدلي بالإمرة إلى أحد نفر من أصحاب محمد إذا ذكر فيهم أبو عبيدة، فاسمه لا يرد وحده وإنما يذكر بين بضعة كأن قد جاء عرضاً لم يمله القصد بل ساقته المصادفات.



(٣)

والرواة، فيما يلوح، قد أساؤوا إلى عمر بن الخطاب من حيث أرادوا أن يحسنوا إليه، واتهموه من حيث أرادوا الدفاع عنه . . وكما كان التهديد العمري اعتذاراً عن الرجل أشبه بالإتهام، فكذلك هذا الإهتمام بإبعاد أبي عبيدة عن دائرة التفرد بإيصاء عمر له بالإمرة من بعده لو أنه عاش . .

والواقع أن اتفاق الرفاق الثلاثة يوم السقيفة قد لا ينظر إليه كجريرة

يحاسب عليها أيهم أو كلهم لو أننا ربطنا بينه كموقف وبين أشخاصهم ليمكن تقديره التقدير السليم. . إذ الفصل بين المواقف وبين أصحابها أخلق به أن يجعل هذه المواقف - كما سلف القول - عاجزة عن الإفصاح عن نفسها، وعن الظهور على حقيقتها الفعلية، لأن تقويمها حينئذ يبعد بها البعد كله عن العنصر الإنساني المؤثر في تيار التاريخ والدافع لحركته، والنافخ فيه روح الحياة. ومن ثم يصبح هذا التقدير جامداً فجاً يقيس ويزن على وجه الإطلاق والتجريد لا على وجه المناسبة والتحديد. .

إنما يكون اتفاق هذا النفر من أصحاب رسول الله أدعى إلى التأمل، كما قد يكون أدنى من الجرائر لو رأيناه وقع قبل اجتماع سقيفة بني ساعدة، لا بساعات كما هو مشهود معلوم، لا ولا أيضاً بأيام. . بل لو أنه، بموعد وقوعه، قد سبق مرض محمد الأخير بوقت ولو قصير. .

ففي هذه الحال، ينقلب اتفاقهم من مظنون إلى ظنين. . لأنه ينتقل من حدود «العفوية» إلى نطاق «العمدية». . ويتغير من عارض عابر، إلى تربص متآمر. . ومن ثم فإن سلوكهم إذن يجانب استواء القصد، ويلازم التواء السبيل. .

والتآمر هنا - لو أنه وقع - حقيق بأن يعني، بين ما يعنيه، جورهم على ذلك الذي تؤمن جماهير غفيرة من المسلمين إيمان تسليم، وتؤمن أخرى غيرها إيمان اقتناع، بأنه أولى الناس بإمرة المؤمنين، خلفاً للرسول. .

بل هو حقيق أيضاً بأن يرى جوراً على الرسول. .

فهل من اتهام أشنع من هذا وأفظع، ويمكن إلصاقه بالصديق وبالفاروق ثم بثالثهما أمين الأمة ابن الجراح. . أولئك النفر من رواد الإيمان، وصفوة الصحابة الأجلاء. .

هل من شيء أثقل وقراً، وأقسى وقعاً، وأوجع أثراً من هذا الاتهام على نفس الواصم ونفس الموصوم في نفس الآن؟. .

هل هو تآمر؟. .

لئن كان، فإنه إذن تآمر له جناحان..

جناح جورهم، من ناحية، على ذلك الأجدر بالإمرة.. يتمثل في سلوكهم نحو «علي».. فإذا هو تآمر «سياسي» غاية الغايات منه احتياز السلطان، أو بالتعبير المكشوف العاري، أثرة دفعتهم إلى اقتناص السلطان..

وجناح جورهم، من ناحية، على رسول الله.. يتمثل في سلوكهم نحو المفروض من اتقائهم خدش وفائهم له، عليه الصلاة والسلام.. فإذا هو تآمر «أدبي»[١] أهون مظاهره وآثاره هذا السلطان..

فأما في الأولى، فلا عجب لو عدوا طورهم واستأثروا دونه بالسلطان وإن كان هو الأعلم الأفضل.. لأن مقاليد السلطة - كما نعلم من حركة التاريخ - كثيراً ما تنتهي إلى المفضول.. ولأن سلوكهم، بمعيار النظرة الدنيوية، عمل مشروع لا يفسق ولا يعاب إذ هو يدخل، بهذا المعيار، في نطاق الطموح المباح..

ولا نعني بهذا أننا نهدر «الوصية».. أو نذهب مذهب الذين يقولون بأن وصية محمد إلى ابن عمه، «لم تكن وصية بالخلافة[٢] بل بكثير من المتجددات بعده أفضى بها إليه عليه الصلاة والسلام».. ولكننا نحاول تناول قضية السقيفة في حدود ظروفها الإنسانية الظاهرة المخالطة للخطأ والصواب، والخاضعة لنظرة المعقول لا لإملاء المنقول، والطافية على تيار الرأي العام في تلك الأيام استجابة لسطوة العصبية، وانقياداً لحذق التدبير، وانصياعاً لصولة الدهاء..

في إطار هذه المعالم، قد لا يعسر الاعتذار عن الذين يرون، رؤية واقع أو رؤية افتراض، أن الأليق بأوضاع تلك الفترة، والأشبه بطبائع النفوس، والألصق بمسيرة الأحداث اعتبار خلافة أبي بكر إنما قامت بمفهوم سياسي أو على أسس سياسية، لا بمفهوم ديني أو على أسس دينية..

---

(١) نكرر هنا أن النظرة عقلية مجردة عن الاستناد للأحاديث النبوية (انظر المقدمة)

(٢) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

ذلك لأن انحسار السمة الدينية عن تلكم الخلافة قد وضعها حيث يجب أن تكون: مجرد وظيفة «مدنية عامة»، أساس المفاضلة بين المتنافسين عليها قد لا يقوم على الفضائل والميزات والمناقب والملامح النفسية والخلقية ونحوها من مقومات الشخصية، بقدر ما يقوم على عناصر خارجة عن ذاتية المتنافس وداخلة في ذاتية القائمين باختياره للاضطلاع بالوظيفة، كأهواء الجماهير، ومطامع ذوي النفوذ في الأمة، وسطوة الصداقات والقرابات، وانفلات التقدير. والاستهانة أو الجهل بدقائق الأمور، وضجيج الدعوة وجعجعة الترويج، والإنقياد المستسلم اللاإرادي، وربما الإرتهاب.. ثم على ما يلجأ إليه المتنافس من المبادرة، وسرعة الحركة، ومعالجة المواقف بالحسم، والقدرة على الإسترضاء والاستقطاب، وغيرها من أساليب المناورات التي يعرف كيف يجتذب بها إلى صفه قطاعات كبيرة من الجماعات أو التجمعات..



(٤)

من هنا فإن ذرائع «انتخاب» أبي بكر يوم السقيفة لشغل «منصب» الخلافة - فيما عدا ما ذكر من تقديمه للصلاة خلال مرض رسول الله - يمكن أن تكون نفس الذرائع التي قد تساند أي امرئ سواه..

ولا موجب للإسهاب في بيان المبررات والأسباب. فحسبنا من تلكم الذرائع بصفة خاصة، أن وفاة محمد وضعت المهاجرين عامة - ممثلين، لو جاز القول في أبي بكر وعمر وأبي عبيدة - تحت وطأة ظرف ضاغط شديد، ضاقت به الرقعة الزمنية المبسوطة أمام ثلاثتهم لتناول الأمر بالروية الواجبة وهم يرون الأنصار يهرعون إلى تنصيب رجلهم: سعد بن عبادة خليفة للرسول.. ومن ثم ليس من المحال أن يقال إن لهفة المتعجل، وقلق الجزوع، وخشية التأني أو التواني، وتوتر الأعصاب، هي التي - دون العقول

- كانت تتحكم عندئذ في التفكير لرسم المصير إن وجدت، في ذلك الظرف، طاقة تفكير لرسم مصير. .

في هذا الجو من اضطراب المشاعر، وخلخلة الفكر، وارتجاج الأذهان قد لا تبدو البيعة لأبي بكر بالسقيفة كأنها عن تدبير. . بل قد تبدو كأنها «رد فعل» عفوي مضاد لمحاولة الأنصار. . وقد تبدو أيضاً كأنها مجرد مجازفة خطرة لحصر الإمرة في مهاجرة قريش الأولين قد صادفها التوفيق. . لكنها لا يمكن أن تعد «انتخاباً» حقيقياً جاء نتيجة منافسة مفتوحة حرة بين مرشحين، بقدر ما تعد تسليماً للأمر إلى أبي بكر الصديق من رجلين اثنين من خيرة المهاجرين، آمناً الإيمان كله باقتدار صاحبهما على قيادة الأمة أعظم اقتدار. .

وإذا كانت السلائق النقية، والأنفس العفة، والضمائر النظيفة، التي هي بعض خلائق الرجال الثلاثة تجعلهم أمنع على الثلب والطعن إذ هم أدنى إلى تحري الصالح العام قبل النفع الشخصي، وأولى بابتغاء وجه الأمة الإسلامية جمعاء منهم إلى الإنصياع للأنانية وحب الذات. . فإن تصدى اثنينهم هذين لترشيح ثالثهم وكأنهما وكيلان عن المهاجرين فضلاً عن المسلمين وليسا كذلك. . لهو أمر فيه ما فيه. .

كذلك فإن خلو ميدان «الانتخاب» خلواً مطلقاً من آل بيت الرسول - إن لم نقل الحرص على إخلائه منهم - ليس عسيراً أن يدخل في تبعة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة قبل أن يسند حدوثه للظروف. .

بل إنه ليجعل اختيار أبي بكر خليفة تعييناً ممن لا يملك حق التعيين، فلا شورى ولا انتخاب. .

ولقد نسب إلى علي في هذا المعنى شعر يخاطب به أبا بكر، فيقول:

«فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب؟. .».

وما أصدقه من قول، وما أليقه بمطابقة واقع الحال. .

فإذا غفر لهم هذا الذي ظهر من استئثارهم بالترشيح، فبالاختيار،

فبالبيعة للفاضل الجدير وليس للأفضل الأجدر، لوقوع سلوكهم هذا في دائرة الفعل المبرر، أو الطموح المباح، أفلا يعتذر لبعض الأفهام لو رأت في وسيلتهم المستخفية التي أبلغتهم هدفهم دون إعلام آل بيت الرسول، نوعاً من التبييت أو الإئتمار؟ . .

تبعاً لهذا، لا محل لعجب عاجب إن سدرت تلك الأفهام في ظنها إلى طرف الجناح الثاني للجور: جناح التآمر «الأدبي» على الرسول من هؤلاء النفر الذين تسامع الناس كافة، ونقل التاريخ، أنهم كانوا - من بين صحب محمد عليه الصلاة والسلام - أقرب إليه، وأحرى بأن يمحضوه صدق الولاء في مماته كما في حياته سواء بسواء. .

طائفة غير قليلة من المسلمين، كما نعلم تعتقد اعتقاداً جازماً غير مقلقل، أن أبا بكر وعمر وابن الجراح قد عملوا على احتياز الخلافة لأولهم، ومحمد ما زال حياً لما يذهب إلى ربه، ولا بدا أنه يهم بالرحيل. ولا هم أومأوا إليه بما يرومون. .

فهل عن قطع، وبالدلالات الصريحة، جاء هذا الاعتقاد؟ . .

أم عن استنتاج واعتصار لمضامين السلوك؟ . .

أم عن مظنة ومحض اشتباه؟ . .

وإلى أي مدى يقترب من المعقول، أو المقبول، إقدام الرفاق الثلاثة على هذا التصرف «المشبوه». . أو التدبير «التحني». . أو التآمر «الأدبي» المظنون أو الظنين؟ . .

تساؤلات تجر إلى تساؤلات. .

ففيم يدخل سلوكهم هذا المقول به إن لم يدخل في باب النيات المستكنة التي لا يعلم حقيقتها، من دونهم، إلا الله؟ . . وما الذي - ربما - يفضح نياتهم هذه ويعريها أمام الأفهام غير عبارة سافرة جلية من أحدهم في لحظة اعتداد؟ . . أو فلتة يكبو بصاحبها لسان جموح؟ . . أو قرينة مادية تؤيد الاتهام؟ . .

وأين امرؤ في الناس سمع عن رواية تصارح بمكنون تلك النيات؟.. أو عن رأي يطلعه على خبيئتها إلا أن يكون وليد استنتاج؟..

وهل طموحهم، كلهم أو أحدهم، إلى نيل الخلافة دليل، وليس الطموح في ذاته سوى نوع من المشاعر الذاتية المستسرة والنوايا الشخصية الدفينة، استجلاؤها عسير كمحال على الأعين الفاحصة التي تحاول النبش في دخائل النفوس عن برهان؟..

ثم ما الذي يعنيه مثل هذا التدبير في مثل هذا المقام؟..

لو بدر منهم، حقاً، ذلك السلوك، أفلا يجوز الذهاب في تفسيره إلى حد اعتباره اتفاقاً «سرياً» بين ثلاثتهم للنزو على تراث محمد ما أن يختفي عن الدنيا محياه؟..

واعتباره «تربصاً» بلحظة حينه، عليه صلوات الله؟..

واعتباره «تطلعاً».. في طوايا نفوسهم - إلى الوفاة، لأن وقوعها هو وحده الذي يمكن لهم في تنفيذ ما أبرموه: ما أجمعت منهم عليه النيات، وانعقدت العزائم، وقر القرار؟..

فإذا هوى بهم تفكيرهم مثل هذا الهوى، فاتفاقهم أدنى إلى أن يظهر في صورة تآمر «خلقي» على نبيهم، أشبه شيء باتفاق «جنائي» لأنهم ينتظرون فرصتهم وهم بمثل إقعاءة ذئب جائع يتحفز للوثوب والانقضاض.. ولأن تربصهم بحين الرسول أشبه شيء بغيلة ترتكبها سرائرهم وإن لم يضربوا بسلاح قتال ولم تصطبغ أكفهم بدم مراق..

نتيجة لا يبعد - جدلياً - أن تفرض نفسها على فكر المتأمل وهو ينظر إلى السلوك من زاوية «الخلقيات» وتحت ضوء «المثاليات» قد لا يأباها الإباء كله منطق العقول..

على أن هذا الذي يسند إليهم فعله، لا يبعد أيضاً أن يظهر من زاوية «الواقعية» وهو مبرر أو معقول..

أو ليس يمثل نوعاً من «الاحتياط»، أو الاستعداد لمقابلة ظروف قدر

مغيب مجهول بما يكفل تجنيب الأمة خطر «فراغ سياسي» ينجم لا محالة عن وفاة الرسول، يتيه المسلمون في بيدائه، ويصبحون كقطيع ضال تتخطفه ذئاب الأحداث بعد أن غاب عنه راعيه؟..

ربما..

فلعل فعلهم كان محاولة سياسية، أرادوا بها إعداد الرئيس «المقبل» الذي يبادر إلى امتلاك زمام الأمور ما أن تحل اللحظة الحرجة وتحين..

لعله من قبيل ما يخف إليه بعض ساسة الشعوب، عند توقع وقوع الأزمات، من اتفاق أولي فيما بينهم على اختيار امرئ بذاته لولاية الأمور فور نزول النازلة، تفادياً لتمزق وحدة بلادهم لو تصارع ذوو الحول فيها على السيادة واستبقوا إلى الفوز بالسلطان..

ومع ذلك.. فلن نعدم قائلاً يقول: إنما كان اتفاق الثلاثة - سراً - على اختيار من يخلف محمداً، مسلكاً لم يخل من الشطط، ولم يحالفه التوفيق قد جاوزوا به حدهم، وخرجوا عن نطاق ما ينبغي لهم ويجمل بهم ما داموا أبرموه ومحمد - صاحب مشيئة الاختيار - لم يزل في هذه الحياة..

فهل سألوه؟..

هل عرضوا ما رأوا ليقول نعم أو يقول لا؟.. ليختار أو ليؤذن لهم بالاختيار؟

لا..

وما هو الرد، إذن، على من يؤكدون أن النبي لا بد قد اختار خليفته بالإشارة أو بالإفصاح لأنه، عليه الصلاة والسلام، ما كان ليدع أمته من بعده نهباً للتصارع على تراثه، وفريسة للحيرة والضياع[1]، وهو الذي كان لا يدع بغير إيضاح أمراً من أمورها جل أو هان؟..

أم يقال إنه شاء أن يترك للأمة حرية الاختيار رغبة منه في التمكين لمبدأ

(١) محمد رضا المظفر: «السقيفة».

الشورى وإفساحاً للناس في الأخذ بأيما نظام للحكم يرونه مناسباً لظروف الزمان وطبائع المكان وتطورات الأفكار على تعاقب الأجيال؟..

لكن الشورى كانت سلعة بائرة في سوق الاستخلاف..

كانت الشورى مجرد اسم تلعب به الشفاه، أفرغ منه مضمونه، وضلت طرقها إلى السقيفة كما ضلته في جميع المواطن وجميع الأعوام، في جميع بلاد الإسلام..

ونعو إلى ذلك الموقف الظنين للرفاق الثلاثة - الذي يؤيده الاستنتاج أكثر مما ينفيه حتى ليوشك ألا يكون لسلوكهم مفتاح سواه - فإذا العسير كل العسر أن يوافق المرء بينه وبين ما اشتروا به من نصاعة خلق، ونقاء سريرة، وعمق إيمان، وصدق ولاء هي أخلق بأن تعصمهم من زلل التدبير الذي يزوونه من وراء ظهر نبيهم وإنه لقائم فيهم، معافى موفور، يستطيعون في أية لحظة أن يكشفوا له عما يخالجهم، ويشيروا عليه أو يشاوروه؟..

ومرة أخرى، لماذا لم يسألوه؟..

أتطيرا، أم هيبة، أم استحياء منه وإشفاقاً عليه من جلافة سؤال لن يكون له من فحوى، مهما غلفوه برقة اللفظ، سوى أنهم يتطلعون إلى وارث من بينهم يرثه في الأمة، وينعقد مجلسه، عليه صلوات الله، بعد أن يموت؟..

وهل من المعقول أن تجمع الروايات، أو تكاد، على أن «معظم المهاجرين[1] وجل الأنصار» كانوا لا يشكون، عندما ذاع بالمدينة نبأ وفاة الرسول، في أن الأمر صائر لا محالة إلى علي ثم يكون تيقن هؤلاء «المعظم والجل» وعدم شكهم مجرد هوى خاص وليس صدى لرأي فهموه أو تناقلوه عن النبي الكريم؟..

هذا عسير، وذاك عسير..

كلا الأمرين من وراء ظهر الرسول لاحتياز سلطانه، يناقض تمام

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».

المناقضة طبيعة الوفاء في الخلائق النقية.. والمشهود به لأبي بكر وصاحبيه من نقاوة السلائق والخلائق ينفي عنهم شبهة مقارفتهم مثل هذا التدبير..

وما ها هنا مجال دفاع عن هؤلاء الصحاب..

لكن الحيرة بين قطبي التناقض هذين: بين الفعل المشبوه الذي لا يليق وبين الضمائر العفة التي تتوقى الشبهات، أدنى إلى أن تورث التردد في الاتجاه نحو حكم جازم مبرم يدين، لأنها حيرة تأخذ بخناق التفكير فيضطرب التقدير..

وكيف لا؟..

أم ليس حسبنا من الرجال الثلاثة أن تخلقهم بخلق الرسول، وما أكنت قلوبهم من نقاء وإيمان، وما اشتهر من إحاطتهم محمداً بكل المحبة والإعزاز وكل الولاء والوفاء، تشكل جميعها سياجاً حامياً يحول دونهم ودون التردي والإنحدار؟..

لقد كان محمد لهم هادياً يرشد، وأسوة تمتثل، وعالماً من الخير والفضائل يعيشون في رحاب شمائله الربانية التي تغسل أدران النفوس وتجلو صدأها بأفياض النور. فإذا رؤي منهم مثل ما علم من إيمانهم به، وحبهم له وفنائهم فيه، فإن تفكيرهم بما يناقض تفكيره، لهو إذن استهانة بحقه عليهم، وخروج على نهجه، ومروق من هديه الذي رسمه الله قد تدخل في نطاق الخيانة قبل أن تحسب في عداد العصيان..

وهو أيضاً نتيجة لغير مقدمتها الطبيعية المعروفة، لا يمكن أن تفهم وأن تستقيم..

ذلك لأن إيثارهم له، وافتداءهم إياه بالنفس والولد والمال، وخوفهم عليه دائماً أن يناله مكروه هو السلوك الأشبه بهم، والأولى بأن يبعد عن خواطرهم أن يتخيلوا - مجرد تخيل - حلول يوم في الزمان تطلع شمسه وليس بينهم هاديهم العظيم..

ولا يعني هذا أنهم كانوا وغيرهم من المسلمين، ينكرون تلكم الشواهد

التي دلتهم على أن نبيهم ميت لا محالة، ولكنه يعني أنهم، خشية وإشفاقاً، كانوا قد رموا، عن غير وعي أو قصد، بهذه الحقيقة المريرة خارج أسوار التذكر والإنتباه. .

فلقد كان توقع وفاة النبي، بغير شك، هاجساً بغيضاً يضطرب في بال الصاحبين على كره، لأنهما كانا يرتهبان كل الرهب التفكير فيه، وإن كان هذا الإرتهاب لا يعني لديهما انتفاء الوفاة. .

وكان يجسد بشاعته أمام الأفهام حب للرسول طاغ يحاول الغوص به إلى ما تحت غمرة الشعور. .

وكان يصده دائماً عن غزو وجدان الإنسان المسلم إحساس كاسح من الولاء والوفاء تتمثل فيه نظرة أمة عرفت دائماً لنبيها قدره، وعلت بمصيره المرتقب فوق كل مرهوب ومخوف من غدرات الزمان. . نظرة أمة عاشت سنين عدداً في كنف محمد، فإذا هي تمتلئ فكراً وعاطفة بإيمان قد عاشت به في أكرم عصر، وعايشت أعظم بشر، وأدركت أنها خير أمة أخرجت للناس. .

وكيف لا تبلغ أمة الإسلام آنذاك مثل هذا الشأو الرفيع من سمو الإعزاز للنبي الأثير الذي احتوى، بشخصيته المحيطة الآسرة، حياتها جميعاً من الأطراف حتى القلب ومن القلب حتى الأطراف وملك عليها آفاق الفكر والشعور، وبث في روحها من نورانيته ما نقلها من وجود العدم إلى وجود الوجود؟. .

بإيمانه نزع عن قلوبهم الغلف أكنة الضلالة. وبعلمه قشع عن عقولهم المطموسة غشاوة الجهالة. وبعزمه جلا عن نفوسهم الموبوءة درن الجمود. .

فإن يكن لهذا كله لسان ينطق، لجأر، بأعلى جرس الأصوات، مؤكداً للدنيا أن أبناء الأمة الإسلامية قاطبة، وفي مقدمتهم صحابة الرسول، كانوا يشفقون دائماً على أنفسهم أن يذكروا، سراً أو علانية - ورسول الله بينهم حي - شيئاً عن موته أو يفكروا فيه أو يتخيلوه. .

وما عن هروب من قدر الله وقضائه كانوا يشفقون..

أبداً..

بل هو حب اللياذ بالطمأنينة.. والشغف بالإنحياز إلى السكينة بالجوارح والقلوب والأرواح، وإن كانت طمأنينة يصوغها الأمل، وسكينة يصطنعها الخيال..

تلك كانت حصيلة المشاعر الجمعية لذلك المجتمع الذي بناه محمد من مادة رسالته القدسية وطبع أهله بطابع الحب والنقاء النفسي وصدق الوفاء من خلال نصاعة شيمه - عليه الصلاة والسلام - وطيب سجاياه وطهر طباعه، وارتقاء خلقه إلى ذروة الكمال الإنساني التي لا يطاولها في العالمين بشر ما بقيت الأرض والسماء، وكانت محور ثناء الحكمة الربانية في محكم التنزيل فكيف بها في تقدير الناس؟..

فهل على امرؤ من حرج إن هو مال، ولو بعض الميل، إلى تصديق نظرة القائلين بأن الرفاق الثلاثة: أبا بكر وعمر وابن الجراح، كانوا أكرم على أنفسهم، وأشد تمسكاً بقيم الأخلاق الرفيعة، من التفكير - والرسول حي - في اختيار خليفته، فضلاً عن التآمر وتدبير الاختيار؟..

إذا قيل إن الظروف هي التي فرضت عليهم فرضاً هذا الإتجاه، ففكروا ثم دبروا ثم اختاروا سراً، منذ أوبتهم من حجة الوداع وقد نفثت آية اكتمال الدين في روعهم انتهاء مهمة الرسول على ظهر دنياهم بانقطاع وحي السماء.. منذ رأوا في وجهه، عليه الصلاة والسلام، علائم المرض، وسمعوا منه ما يوحي بأن رحيله عنهم قريب.. إذا قيل إن هذا أو مثله كان دافعاً قوياً إلى التفكير ثم التدبير، فإننا إذن نجد من ينظر إلى الوضع من خلال هذه الملابسات أمام رأيين لا يلتقيان..

أما الأول فإنه الرأي الذي يوافق هوى الذين يؤثرون قياس العلاقات الإنسانية بالفتر والشبر، ووزنها بالدرهم والمثقال.. ذلك لأنهم ينظرون إلى هذه العلاقات من خلال الذاتيات والمنافع الشخصية وعتمة الماديات غير

مبالين فتيلاً بالقيم الخلقية الكريمة، ومهدرين العواطف الإنسانية النقية كأنما يحسبون معينها قد نضب وجف في دخائل الصدور . .

وأما الثاني فإنه الرأي الذي يوافق الذين يستغرق الظرف القائم وعيهم فلا يلتفتون لما عداه من اعتبارات وإن لم يكن في بالهم نبذ المثاليات وتجاوز الخلقيات، لأنهم - في تقديرهم للتوقعات المنتظرة والعواقب التي يشير إليها ذلك الظرف، ويومئ اتجاه الأحداث - يقدمون الكل على الفرد ويضعون النفع العام، لا النفع الخاص، في ميزان الإهتمام والتقدير . .

فمن ذا يظن أن الصديق وصاحبيه الجليلين على شاكلة الأولى تتحكم فيهم الذاتيات وترسم لهم بريشة الإغواء أسلوب السلوك؟ . .

ما هم كهؤلاء . .

ومن ذا يظن أن واقع الأمور يجردهم كل التجريد من صفاء القلب وشفيف الروح فيذعنون لمادية الأحداث وإن توقعوا أنها تسوقهم إلى نفع عام؟ . .

وما هم أيضاً كهؤلاء . .

بل الأشبه بهم أن يمازجوا بين الروحانية والواقعية، ويلائموا بين العاطفة والعقل فلا يطغى جانب على جانب، ولا ينسيهم اهتمامهم بالصالح الجمعي وفاءهم لرسول الله الذي يشدهم إليه حب خالص غير مشروط بنفع خاص . .

ولا غرابة في أن نجد موت محمد - وإن كان داهمة لا بد من نزولها ذات يوم - قد قبع في دخائلهم خلف الوعي لا يطل من كوى التفكير . . لأن الطيرة غالباً ما تخلي مكانها في أخيلتنا للفأل الحسن فيما يتصل بمصير كل حبيب إلى قلوبنا عزيز أثير . .

ولأن توقع الخير يسبق في مشاعرنا، أكثر الأحايين، توقع الضر . .

ولأن التعلق بالرجاء يغلب - عادة - في نفوسنا على الإستسلام للقنوط . .

ولا غرابة..

فالحب دائماً يقترن بالأمل.. والأمل يثمر التيمن.. والتيمن بشرى بين يدي طمأنينة يتلألأ لها وجه الدنيا، فتنحسر الظلمة عن المحب، وتمتلئ عيناه بالنور..

وما من أناس في العالمين، عندئذ ومن بعد، كان أحرى بهم أن يحبوا محمداً حب إيثار كهذا النفر وأمثالهم القلائل من صحبه الأولين المقربين..

وأنى لهم ألا يحبوه.. وألا يؤثروه، وألا يفنوا فيه الفناء كله وهم قد ائتسوا مكارم الأخلاق كاملة، ممثلة في شخصه العظيم؟..

وكيف لا، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن حبه من الإيمان، أو هو الإيمان؟..

فمن أحاديثه عليه الصلاة والسلام:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين..».

ولا شك أنهم، ثلاثتهم، قد وعوا هذا الحديث..

بل قد أثر أن أحدهم: عمر بن الخطاب، أقبل مرة على نبيه، يقول له، بصراحته الخشنة، التي كثيراً ما تبعد به عن المجاملة ولين التعبير، لتدنو من الغلظة والفظاظة إلى ما قد يفهم على أنه من سوء القالة ورعونة التقدير..

يقول عمر:

«لأنت، يا رسول الله، أحب إلي من كل شيء، إلا نفسي التي بين جنبي..».

فيكون الجواب الذي يتلقاه:

«لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه..».

عندئذ يراجع عمر قلبه وعقله، فإذا هو يرى لسانه قد خانه فزل به زلة ما كان ليغفرها لنفسه.. وإذا هو لا يلبث أن يثوب إلى ما هو به أجمل وأخلق..

إلى الموقف الحق، والرأي الصدق.. وهل في الناس إلا بضعة مثله قد انفعلت روحاً وفكراً وجارحة، بالهدي النبوي، فخلعت الذاتية، ولبست الإيثار؟..

ويجيب وهو ينيب:

«والذي أنزل عليك الكتاب بالحق، لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي..».

ويستضيء له الطريق..

بهذه العاطفة الإنسانية النبيلة، عاطفة الثرى السخي، التقي الطهور، التي تنزه النفس البشرية عن الدنس، فتسمو إلى ما فوق الأنجم، وتترقرق كنبع الصفا، وتشف كشعاع النور، اختص الثلاثة رسولهم العظيم، فإذا هم لا يؤلونه كل ما في طاقة مشاعرهم الخصبة الكريمة من إيثار يعلو على كل حب وولاء ووفاء. وهلا يكفي بياناً لحبهم إياه، وتقديمهم له على أنفسهم، وعلى من في الوجود كافة، وما في الوجود، ويكفي أن يكون فيهم - رائداً أو رفيقاً - أبو بكر، لنعرف أي طراز من البشر هم، وإنه لهو الصاحب الوفي والمحب الأمين؟..

بلى.. فإنه الصديق.. السباق دائماً إلى تصديق محمد قبل أن يرتد طرف وكأسرع ما يخطف طيف.. المحب الذي نرى إيماه ينمي حبه، وحبه يرهف إيمانه.. الأمين الذي يوافق علنه سره، وجهره نجواه.. الوفي في السراء وفي الضراء على السواء، ابتغاء رضوان ربه، لا رئاء الناس..

فإن قيل، مع هذا، إنهم اختانوا واجب الولاء فبيتوا أمرهم، من وراء محمد ليرثوه، فإنه إذن القول الذي يخالف ما بجلتهم عليه سجاياهم الإيمانية، وما تخلقوا به من خلق القرآن.. وهو القول الذي يصفهم بغير وصفهم، ويلطخ أكفهم بدم هم منه براء..

أما إذا قيل إنهم تدبروا الأمر والمحنة تهم أن تقع، والبلاء موشك أن ينزل فإن تدبرهم هذا كإرب أريب، وحيطة محتاط..

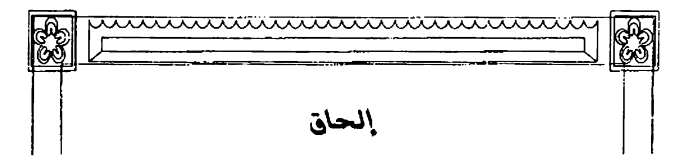
ثم لو قيل إنهم تلقفوا التراث النبوي بعد أن رحل عن الدنيا صاحبه، فقد تلقفوه وهمهم ألا يصبح نهباً لمن لا يصونه من الناس..

وإذن فقد راموا النفع العام..

ولا تثريب عليهم إن فعلوا، ليحفظوه في يد المهاجرين الأولين..

بل إن ثمة من قد يراهم أحق بالتمجيد منهم بالعذل، وبالحمد منهم باللوم لأنهم عرفوا، إذ سارعوا إلى السقيفة، كيف يحصرون إمرة المؤمنين يومئذ في المهاجرين القريبين من رسول الله في وقت غاب فيه عن الميدان أولى الناس بالإمرة وأدناهم قربى لرسول الله...





إلحاق

كيفما كانت الدواعي والأسباب التي لعلها قد حركت لسان عمر بن الخطاب لدعوة أبي بكر ليهرع إلى أهل السقيفة.. وحركت على الفور قدمي أبي بكر لتلبية منطق اللسان.. ثم حركت من بعد أبا عبيدة، سمعاً وسعياً: صاغياً لجرس الكلام، مقتفياً خطا الأقدام، فلقد كان، لا جدال، «حق» قريش في خلافة رسول الله في المسلمين هو محور القول والفعل، أو - في أقل القليل - هو أظهر هذه الدواعي والأسباب..

على أن الذي لا مراء فيه هو أن هذا الحق راجح كما هو مرجوح.. راجح بأناس ومرجوح بآخرين.. أم على الشيوع كانت تمتلكه قريش بقضها وقضيضها، بكل ما فيها من عشائر وبطون، أو طوائف مفرقة، وفرق أشتات؟.. وهل هو لهذه القبيلة كما هو لهذه القبيلة ولهذه الدار كما هو لهذه الدار؟.. ثم كيف يتأتى لها تحقيق هذا الإمتلاك، وعلى أي نحو يكون التحقيق؟.

الطبيعي المعقول أن خلافة الرسول لم تكن «حقاً مرسلاً» بغير ضوابط وشروط يحق لقريش على وجه الإطلاق، بجملتها وكافتها: خاصة وعامة، سابقين ومسبوقين، مهاجرين ومقيمين بغير استثناء..

وكما وضح هذا عقلاً، فقد ثبت فعلاً، منذ اللحظة الأولى التي وطئ فيها الرفاق الثلاثة أرض السقيفة عصر ذلك النهار الحزين.. فما أن يلوحوا لأعين الأنصار الملتفة حينذاك برجلها: سعد بن عبادة الخزرجي، حتى تبارى وإياهم على هذا الحق لأي الفريقين يكون..

عن رأي جماعة الأنصار الذي كانت نية كثيرين منها قد انعقدت عليه، أو تبنته تسمع من بينها من يفصح فيقول:

«نحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم، يا معشر المهاجرين، رهط منا..».

ونسمع منهم رأيهم في المهاجرين عند الهجرة:

«... إن محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يكذبونه إلا رجالاً قليلين وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم..».

ونسمع أيضاً منهم، من يتحدث عن دورهم في نشر الإسلام:

«... يا معشر الأنصار.. قد كنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقلهم على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله، طوعاً وكرها. وأعطى البعيد المقادة صاغراً.. وأثخن الله لرسوله بكم في الأرض. ودانت بأسيافكم العرب... فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس..».

فإن بلغوا من أحاديثهم تلك ما يرونه يقدرهم حق قدرهم، ويقدمهم على سواهم، نرى أبا بكر ينبري للرد عليهم، مؤكداً فضلهم ورافعاً ذكرهم.. ثم واضعاً قومه حيثما ينبغي أن يضعهم ذاكراً سبقهم، ومحقاً حقهم..

يقول للأنصار فيما يقول عنهم:

«أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم في الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته.. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، لا تفتاتون بمشورة. ولا تقضى دونكم الأمور..».

ويقول عن المهاجرين:

«لقد خص الله المهاجرين الأولين من قوم رسول الله بتصديقه، والإيمان به، والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم، وكل الناس لهم مخالف، وعليهم زار.. ولكنهم لم يستوحشوا لقلة. وكانوا أول من عبدالله في الأرض وآمن بالرسول.. هم أولياؤه وعشيرته وهم أحق الناس بالأمر بعده..».

ويضيف كأنما ليضع النقط فوق الحروف:

«. . . نحن - المهاجرين - أول الناس إسلاماً. وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً. وأحسنهم وجوهاً. وأكثرهم ولادة في العرب. وأمسهم رحماً برسول الله ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. .».

ولم يشر أبو بكر في حديثه هذا إلى تلك القولة المشهورة: «الأئمة من قريش» لأنها - فيما يغلب على الظن - لم تكن معروفة عند المهاجرين، فلم يستدلوا بها لتعزيز موقفهم. ولا استدل هو أيضاً بها. . بل استدل بالقرابة من رسول الله[١]، وبأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. .

فهل على المؤمن من حرج لو حسب أن أبا بكر، حين راح يعدد في السقيفة - على نحو ما سمعنا - الصفات التي تعلم الخليفة، إنما أعلن عن الصفات التي امتاز بها على وحده من دون الناس. . أم أحد أسبق من علي إلى الإسلام بعد محمد وخديجة؟ . . أم في العرب كلها من هو أنمى منه إلى دار أوسط وأعظم، وحسب أطيب وأكرم، وقدر أشرف وأوجه وإنه لسليل هاشم، وحفيد عبد المطلب، وولد أبي طالب الذين سادوا قريشاً كابراً عن كابر بالعزة والفضل والمكارم؟ . . أم في الناس من هو أمس رحماً بمحمد وإنه لأخوه وابن عمه وربيبه وصفيه ووليه وزوج زهرائه وأبو سبطيه؟ . .

إن تفصيل مقومات الأحقية للخلافة، كما أورد الشيخ التيمي في بيانه، يرجح، بلا مرية كفة الإمام، ويضعه مكان الصدارة من المستحقين والأحقين. . ولعله رمية غير مقصودة من أبي بكر. . ولعله من قبيل نم «اللاوعي» واجترار قبل تصريح الوعي وتعبيره. . ولكنه يجيئنا أيضاً بالقاعدة العامة التي وضعها أبو بكر لاختيار الخليفة أثناء احتجاجه على الأنصار في السقيفة. فإذا الخلافة - بمنطوق حجته هذه - ينبغي أن تقوم على أساس «قبلي» لا مناص معه من انحصارها في ذلك الحي من قريش الذي يمثل «عشيرة» رسول الله وأولياءه وذوي قرابته وقومه الأدنين. .

نفس هذه القاعدة العامة أعلن عنها عمر، أو عما هو بها أشبه، في نفس

---

(١) محمد رضا المظفر: «السقيفة».

اليوم، في نفس المكان. فلقد وقف قبل صاحبه، يجادل الأنصار أشد جدال وأعنفه ليصدهم عن تطلعهم إلى الإمرة، فلا نجده ينزع كثيراً ولا قليلاً عن المعهود فيه من الخشونة والحدة إلى الأحرى به من الرفق والهوادة في ذلك الموقف المتأزم العصيب. . إنما يتبدى كمن يحرص الحرص كله - وإن غلظ واشتد في العبارة وفي الإشارة - على إبراز المعنى والمضمون غير مبال من خصومه غضباً أو ثورة، وبغير تحر للمجاملة أو اللين. .

يقول يومئذ للأنصار وعنفه يرج نبراته ويرهق محياه:

«لا والله. . لن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم. . ولكنها لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت «النبوة فيهم»، وولي أمورهم منهم. . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين. .».

وولاية الأمر تعني امتلاكه. . وولي أمور الناس هو صاحب حق المالكية[١] عليهم، وذو السلطة الشرعية لتدبير شؤونهم والتصرف - بحقه - فيها وفيهم. . فإذا قرن عمر هذه الولاية بالنبوة، وألحقها بها، على هذا النحو الذي أفصحت عنه كلماته فإنه إذن قد وضع ولي أمور الأمة بنفس مكانة النبي إلا من ميزة تنزل الوحي التي تفرد بها - من دون الخلق أجمعين - محمد عليه صلوات الله.

وكما تفتقت عبارة ابن الخطاب عن هذا التخصيص الذي صور به الخلافة وهي تبع للرسالة وامتداد موصول بها لا ينقطع رباطه، فقد تفتقت أيضاً عبارته عن مبدأ هام يقوم عليه اختيار الخليفة، ويؤكد القاعدة الرئيسية التي وضعها أبو بكر أثناء احتجاجه، ثم يضيف إليها صفة تزيد من بروز ملامح الاختيار. . فإذا الخلافة - بمبدئه - خلافة «قرابية» لا مناص من انحصارها فيمن كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم ومالكها منهم. .

من هنا يحق للمرء - في ضوء مفهوم قول الشيخين - أن يرى الخلافة محصورة في محيط دائرة معلومة لا تتعداها، هي «عشيرة» رسول الله. .

---

(١) الشيخ عبد الله السبيتي العاملي: «تحت راية الحق».

فمحصورة من نطاق هذا المحيط الفسيح، في مركز هذه الدائرة الذي يمثل أولئك الذين كانت «النبوة فيهم» وكانت فيهم «الحاكمية» أو المالكية، ينهض بأعبائها ذلك الذي تنزلت عليه، من بينهم رسالة الله..

فإذا لم يكن هذا التحديد الدقيق يفيد إنحصار الخلافة في «بيت محمد»- مركز الدائرة، وقطب رحاها، ومتنزل النبوة - فأي شيء غير هذا يعني ويفيد؟..

وتجمل بنا الآن الإشارة إلى موقف لعمر يعسر تقبله وتصديقه وإن جرى ذكره في الأسناد والمراجع على ما يقارب الإجماع بين الرواة. فهو يجيئنا بتناقض عجيب بين رأي الرجل يوم السقيفة في أحقية الخلافة، وبين رأي له لاحق طلع به على ابن العباس، ذات يوم، محاولاً أن يبرر له لماذا ضنت قريش على علي بن أبي طالب بالخلافة وإنه للأحق بها، بين الألى كانت النبوة والولاية فيهم من آل بيت رسول الله بغير نزاع..

يومذاك قال الخليفة الثاني وهو بمعرض تبرير وتفسير، أو تعليل وتأويل لذلك الامتناع:

«يا بن عباس.. كرهت قريش أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت..».

أو قال:

«... كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة... فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت...».

أفكانت من حق قريش حينذاك أن تضع الخلافة، في غير موضعها[1]، حيث تشاء وتشاء لها الأهواء؟..

وهل هي التي وضعتها، مختارة، بعد إمعان نظر وروية.. أم دفعت إليها، معجلة بفكرة طرأت لاثنين[2] من رجالها أو ثلاثة؟.. أم لبث فيها نداء

(١) الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء: «أصل الشيعة وأصولها».
(٢) إشارة إلى مسارعة عمر وأبي عبيدة إلى اختيار أبي بكر دون الرجوع إلى بقية المهاجرين.

نزعتها القبلية؟ . . أم سيقت سوقاً بدافع الظروف الضاغطة أمام من هش عليها بعصاه مستجيبة لانفعال لا إرادي حرك تجمعاتها، دون أن تدري، كحركة القطيع المذعور بفعل غريزة حب البقاء والسلامة؟ . .

ويزيد في هذا التناقض العجيب ويضيف إليه، ما نقل إلينا من رسالة قيل إن عمر بعث بها إلى علي يلومه فيها على امتناعه عن البيعة لأبي بكر وقد بايع له الناس . .

في هذه الرسالة يقول:

« . . . لقد خرج[١] رسول الله والأمر مقيد محبس، وليس لأحد فيه ملمس . . . لم يسر فيك قولاً. ولم يستنزل فيك قرآناً. ولم يبرم في شأنك حكماً . . ».

ثم يستطرد وهو يفاضل بين علي وأبي بكر أيهما أجدر بالإمرة، وأحق بالولاية على الناس:

« . . . ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله قرابة، ولكنه أقرب إليه قربة . . والقرابة لحم ودم، والقربة روح ونفس، وهذا فرق عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعين»[٢]

والقربة والقربى والقرابة والمقربة كلها بمعنى. فهي القرب في الرحم وصلة الدم . . والأولى تجيء أيضاً من التقرب بقربان أو نحوه فتعني دنو المنزلة . .

ولسنا نحب أن نناقش في هذا المقام مفاضلة عمر هذه، لأن المفاضلة كثيراً ما تستعصي على التجرد من الدوافع العاطفية فتجيء صدى لتأثر المفاضل نفسياً أو فكرياً بشخصية الفاضل . . فإذا كان الرجل قد رأى أن أبا

---

(١) رحل عن الدنيا.

(٢) د. فاروق أبو زيد عن مقال (كتاب إسلامي مجهول) وضعه عبد الله النديم وضمنه رسالة أبي بكر الصديق - لأبي حيان التوحيدي - أنظر مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد ٢١٥٢.

بكر أقرب مكانة من النبي، وأحب إليه، فشأنه وما ساقه إليه إحساسه.

لكننا لا نفوت في هذه المناسبة دلالة صدق على مكانة الإمام في قلب ابن عمه العظيم، قد حرك بها الحق لسان أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، عندما سألوها مرة عن أحب الناس إلى الرسول.. فعلى الرغم مما عرف من وجدها على علي وازورارها عنه.. قالت:

«فاطمة..».

فما سئلت:

«ومن الرجال؟..».

أجابت:

«زوجها..».

وسواء أكرهت قريش تأمير الإمام، أم عدل عمر عن رأيه، فما لا ريب فيه أن الشيخين كانا - بنفس ما قالا - يعايران الأهلية للخلافة بغير المعيار العام الذي وضعه الإسلام للمفاضلة بين البشر. فتقوى الله، كما هو معلوم، هي ذلك المعيار العام. وأتقى الناس هو «الأفضل» عندالله، الأكرم لديه، الأقرب إليه. فهو إذن أحق بأن يضعه الناس حيث رفعه المولى سبحانه. وفي حضور المعيار الإلهي لا عبرة، طبعاً، لغيره من معايير النسب والحسب، والعزة بالنفر والمال، والقربى والصحبة للرسول وما شاكلها من ميزات مهما علت بقدرها في رأي العيون والعقول، فإن علوها «دنيوي» مرجوح الكفة في ميزان الدين..

نظرة أبي بكر وعمر، في مرآة حججهما في السقيفة، تقيم الأهلية لخلافة محمد على قاعدة قبلية عشائرية قرابية أهلية.. ولقد كان علي بلا مراء، أرسخ قدماً على هذه القاعدة من سواه من آل النبي وذوي قرباه وأوليائه، تدانت بهم الرحم أو تناءت، ومع ذلك فلسنا ندعي أن هذه القاعدة وحدها هي التي كانت تفرض اختياره. بل إن ثمة ميزات عدة من المكارم والقدرات والمواهب أفردت له مكان الصدارة وقدمته على جميع المسلمين

لولاها لكان له بينهم، وفي بيت النبوة، أكثر من منافس وقرين..

ورأينا في نظرة الصاحبين هذه ليس بالرأي المتعسف الموضوع، ولا المستنبط المشتق نتيجة لاستقراء الظروف والملابسات. ولكنه الرأي الصريح الواضح الذي كان يعتمل في ذهن علي وانفرجت عنه شفتاه.. فلقد أبى منهما هذا المبدأ القبلي القرابي الذي طلعا به على الناس وجعلاه أساساً للخلافة.. فلم ينظر مثل نظرتهما إليه. بل نقضه ورفضه وإن كانت له فيه الحجة الدامغة التي تؤيد أحقيته لولاية الأمر بعد رسول الله، وتنصره على كل المنافسين والمخالفين..

قال:

«واعجباه.. أتكون[1] الخلافة بالصحابة والقرابة!..».

بل لا تكون..

فما القرابة، في ذاتها، فضيلة، ولا رابطة الدم، فضيلة، ولا في الإسلام نسب يرفع وآخر يخفض إلا إن اقترن بعمل مقبول أو بعمل مرذول، فيتقدم من يحق حقوق الله، ويتوفى نواهيه وإن كان عبداً أسود أفطس، ويتخلف الثاني إلى آخر الصفوف وإن كان ذا حسب وسؤدد وجاه..

وإمرة المؤمنين أسمى وأرفع من أن يرتقي إليها امرؤ في سلم الصلات الأسرية التي تجيئه عفواً بغير تقوى تطهر، وجهد يشكر، وعمل يثاب، يبتغي بها صاحبها وجه ربه ونفع الناس، وصالح أخراه قبل دنياه..

ومنزلة علي في الإسلام، وفي نفس رسوله الكريم، أمكن وأعظم من أن تقاس بمقياس القربى لأنها محصلة مزاياه، وخلاصة جهاده لإعلان كلمة الله..

فليس عبثاً أن جعله محمد صفيه ونجيه..

وليس عبثاً أن بسط له في علمه وكشف عن مكنون أسراره..

---

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة».

وليس عبثاً أن آخاه بعد الهجرة من دون جميع الأهل والصحاب الخلصاء..

وليس عبثاً أن اجتباه ليؤدي عنه «براءة» نقضاً لكل حلف مع المشركين..

وليس عبثاً هذا وغيره الكثير والكثير، مما يؤكد سمو منزلته عند الرسول، وله في كل موطن آية، وفي كل وقت دليل.. وهل في العالمين من له فضائله التي لم تجتمع بعد رسول الله في إنسان غيره.. وكانت مقومات شخصيته المتفردة الفذة.. وبلغت من العظم والجلالة، ومن الانتشار والاشتهار ما يعي الذكر، ويفوق الحصر..

ونكاد نلم بعض إلمام بجانب من جوانب هذه الشخصية حين نستحضر في بالنا قوله:

«لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى. ولا معقل أحصن من الورع. ولا شفيع أنجح من التوبة. ولا كنز أغنى من القناعة. ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت..».

فهو أعجل الناس قربة إلى الله بتقواه. وحرصهم على مرضاته.. أعبدهم عبادة. وأكثرهم صلاة. وأشدهم على نفسه رياضة بالقيام والصيام.. ولا نحسب أن عبادته إلا عبادة حر يشكر لربه آلاءه، ويحمد نعماءه لا عبادة خائف من عقوبة، أو تاجر طامع في مثوبة على نحو ما صنف لنا العباد والعبادات..

يقول في هذا التصنيف:

«إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار. وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد. وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار..».

ولا نحسب أيضاً أن صورة كلامية أجمل من هذه التي رسم بها حلاوة

التقوى رسماً يفتن بها النفوس فرحاً، ويستطير القلوب شوقاً إلى تذوق طعمها الشهي الذي لا تدانيه كل أطايب المحسوسات والمعنويات. .

يقول:

«كل يوم لا يعصى الله فيه. . عيد. .».

ثم لا نحسب قولاً أدق وصفاً لتفه هذه الحياة وغثاثتها، وأحمل للعقول على النفور منها من قوله:

«من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها. .».

سئل علي بن الحسين، وهو غاية الغايات في العبادة، وزين من عبدوا الله وعاشوا على تقواه:

«أين عبادتك من عبادة جدك؟. .».

فقال:

«كعبادة جدي من عبادة رسول الله. .».

ولا غرو. . فالكمال الإنساني لمحمد عليه الصلاة والسلام في كل سجية وخصلة لا يضاهيه إلى أبد الآبدين كمال. .

وكم كان الإمام يتهجد ويتنفل فيكثر. ويلازم الأوراد. ويستغرق في التسبيح حمداً وقربة لله. . لأن النوافل - تسبيحاً كانت أو دعاء أو صلاة - هي خير ما يملأ به المسلم وقت فراغ وراحة، وأكرم على الله من أن يدع صاحبها ملهاة في يد إبليس يرمي به في نزعة شر تلوث طهره، أو يجنح به إلى باطل يوبقه وينتقص حسناه لحساب سوءاه. .

وكان يقول:

«ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة. ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة. ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة. .».

وهل النافلة سوى شكر واستغفار؟..

أثر عنه شعر يقول فيه:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالقول في باطل فاجعل مكانه تسبيحاً

لكنه بصر الناس أن يستدرجهم اهتمامهم بالنوافل بعيداً عن الفرائض الواجبة، فتشغلهم الفروع عن الأصول، ويشتروا الكثير بالقليل.. فقال يحذرهم الوقوع في هذا الإنحراف:

«لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض».

وقد أخذ الناس عند صلاة الليل. وتابعوه على تلاوة الأوراد والفزع إلى الدعاء ذكراً لله، وتسبيحاً لذاته، وتمجيداً لصفاته، ما انفسحت لهم في وقتهم فسحة واتسعت سعة، يتوسلون بها إلي رضوانه، ويلوذون بساحة غفرانه..

ولم يعرف أمرؤ أزهد منه زهادة، ولا أقنع قناعة.. فهو سيد الزهاد، وأقنع القانعين. يتحرى في معيشته الأشظف والأقشف..

ما ارتدى في حياته لباساً جديداً. ولا اقتنى ضيعة ولا ريعاً، إلا شيئاً كان له بينبع مما تصدق به وحبسه.. بل كان يلبس من الثياب الأغلظ المرقوع وينتعل نعلين من ليف..

وما شبع قط من طعام.. فأكله أخشن مأكل. فإذا ائتدم فبملح أو خل، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض. فإن ارتفع فبقليل من لبن الإبل.. أما اللحم فنادراً ما كان يذوقه. وكان يقول - وقوله يصدق فعله - وإن لم تخل عبارته من دعابة ساخرة تخز الذين يستكثرون من هذا الصنف من الأطعمة، أو يعولون عليه كمأكل أثير:

«لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان..».

وتحدث عن الزهد فأوجز المقال وأجاد البيان إذ استعار وصفه من قدسي التنزيل. . فقال:

«الزهد كله بين كلمتين من القرآن. قال الله سبحانه: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم». . ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد من طرفيه». .

ولم يحس في الزهد طعم الحرمان، بل كان يعتبره قنية غالية ثمينة يحرص عليها ولا يفرط فيها. . ولا بدع وهو القائل:

«الزهد ثروة. . ».

ولم يكن أيضاً كالألى يدلون بما يفعلون إظهاراً لقدرتهم على التحكم في النفس، وأخذها بما يحبون أن يشيع ذكره عنهم ولعاً بالذكر أو رثاء الناس. . بل كان يرى - كنص ألفاظه - أن «أفضل الزهد إخفاء الزهد».

وكانت رياضته نفسه بهذا التقشف الشديد عن إيمان واقتناع. كانت حليفة كل سني عمره الجافة واليانعة على السواء وليست قرينة مرحلة بذاتها من مراحل حياته قل فيها النشب ونضب المال. . بل إنا لنجده أحرص على التزام هذه الرياضة عندما تملكت يمينه سلطة الدولة، وغدا بمقدوره، ومن حقه، أن يتحول إلى معيشة لا توصف بأنها أرفه وإنما بأنها ليست أشظف. . ولا أدل على هذا من صور السلوك الذي يطالعنا به بعد أن آلت إليه إمرة المؤمنين وأصبح صاحب الرأي الأول في توجيه سياسة المال توجيهه سياسة الحكم والسلطان. .

قيل له، في عهده، والفصل حينذاك شتاء قر، وبدنه يرعد من البرد، وليس عليه سوى خلق قطيفة:

«يا أمير المؤمنين. . إن الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا؟. . ».

فرد بلسان المتعفف العيوف:

«والله ما أرزأكم شيئاً.. وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة[١]..».

ودخل مرة عليه صاحب من أصحابه فرآه يطعم كسرة يابسة ولبناً حامضاً تؤذي حموضته الشديدة الشم كما تؤذي الفم، فقال له وهو لا يملك أن يداري دهشته:

«يا أمير المؤمنين.. أتأكل مثل هذا؟».

فما كان جوابه - وهو مالك ثروة الزهد التي لا تنفد - إلا أن رد وهو راض قرير:

«.. كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به، خفت ألا ألحق به[٢]..».

ومن ذا أولى منه بمثل هذه القناعة وإنها لمال لا يفنى، وملك لا يبلى، وعزة لا تبور؟..

أليس هو القائل:

أفادتني القناعة كل عز[٣] وأي غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة

وليس أربح من هذه تجارة - ولا أقدر على - ضمان حرية الإنسان..

إنه يرى أن يحرر الفرد نفسه من نفسه، أن يخالفها، أن يعرض عن هواها فلا تتملكه بغرض، ولا تستذله بمطمع، ولا تشتريه برغبة. ولا يكون له فيها أرب يطأطئ من أجله رأسه فيغدو عبداً لمنة إنسان مهما أجدت عليه من نفع، ومهما كان إلحاح الحاجة وضغط الافتقار..

يقول:

---

(١) عباس محمود العقاد: «عبقرية الإمام».

(٢) عباس محمود العقاد: «عبقرية الإمام».

(٣) عبد العزيز سيد الأهل: «من الشعر المنسوب إلى الإمام الوصي علي ابن ابي طالب».

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلاً[١] رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

وصدق.. فلا أعز من العزة، ولا أكرم من الكرامة، ولا أخس من التعلق بغير ما في يد الله.

إنما إقبال الدنيا عليه وإدبارها عنه سيان.. ما أتاه من عروضها كما ولى عنه، وما ولى كما أتاه، كلاهما لا يساوي مثل خردلة.. لا يهفو منها إلى شيء.. ولا يهتم منها بشيء.. ولا يثق منها في شيء.. بل هو - كما يقول: «أوثق بما في يد الله منه بما في يده».. وهو غني عنها لأنه على اغرائها عزيز، وبملكها مستهين، وعن نشبها راغب، وهو - اعتزازاً بقدره - تحصن بمعقل القنوع والتأبي والزهد دون سطوة إغرائها، وزخرف عطائها فلم يشغله عن وعيه بزيف دعوتها، وتفه أمرها، وهوان شأنها على الله شاغل ولو كان مجرد أمنية تراود الخيال..

فكأنما كان شعاره حكمته المعروفة:

«من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته..».

وهو، إلى زهده، أكرم وأسخى من يحسبون في عداد الكرام الأسخياء ومن عرفهم الكرم والسخاء.. ولعله كان أسخى لأنه كان أزهد، أو لعله كان أزهد لأنه كان أسخى.. فهو يخرج مما يملك عن قنوع وزهادة كما يخرج منه عن سخاء وجود..

إنه لا يسخو فقط وماله كثر يفيض عن حاجته، بل يسخو وماله أيضاً قل، وأقل القل، يضيق عن البذل، ولا يحمل الكل، وينوء بأغث ضرورات حياته حتى ليوشك ألا ينهض بأوده وأود عياله..

إنه لا يضن أبداً بشيء له وإن كان هو إليه أفقر. يعوز نفسه ليعطي،

(١) عبد العزيز سيد الأهل: «من الشعر المنسوب إلى الإمام الوصي علي ابن ابي طالب».

ويمنعها ليمنح.. وكيف يضن وإنه ليعلم أن «البخل جامع لمساوئ العيوب[١] وزمام يقاد به إلى كل سوء».. لا ينال معه صاحبه فلجاً ولا نجحاً عند ربه القائل في محكم تنزيله:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾[٢]

وهل كانت الدنيا كلها تساوي - في حسابه - سوى قلامة ظفر أو قدر صفر لا يجدي عليه أن يأخذ منها، ولا ينقصها أن ينفق.. فلماذا اذن يضمن وهو الذي ضرب للناس بفعله مثلاً للبذل ودعا الكرام إلى محاولة سلوك مسلكه، حين اليسر وحين العسر على السواء، وسعهم اللحاق به على النهج أو لهثوا دون أن يقطعوا نفس شوطه..

يقول داعياً:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

أثر أنه كان يعمل عند يهودي في المدينة، فلا يزال يكد ويكدح حتى تتشقق يداه.. فإذا فرغ من عمله، فإنه لا يلبث، في أغلب الأحايين، أن يتصدق بكل أجره كأنما كان يتعب لغيره..

بل كأنما يسعى إلى الخصاصة.. فما أكثر ما كان ينزل، هانئ القلب راضياً، لمسكين أو يتيم أو أسير، عن قوته وقوت عياله..

كان يصوم ويطوي، ويطوي معه أهله، ليؤثر بزادهم وزاده.. دائماً الحرمان طريقه، والجوع رفيقه..

وكما كانت أريحته تدفعه إلى الجود بالمال وإن هو أعوز وعانى

---

(١) من حكمه.

(٢) سورة التغابن، الآيتين: ١٥ - ١٦.

الجوع، فقد كانت أيضاً تدفعه إلى الكرم بالحلم وإن هو ضيع حقه وغص بالأذى والكنود. .

إنها الأريحية التي تسخو بالماديات، وتسخو بالمعنويات. إنها عطاء ومنح وإنفاق، تهب الدرهم واللقمة والكساء. كما هي حلم وصفو وعفو تهب الكرامة والأمن والحرية. .

فهو أقبل الناس لإنابة منيب تائب، وأسرعهم لغفران زلة خاطئ مذنب. . إن ناله من عدوه ضرر، كان أعجل إليه بالعفو منه بالعقوبة، وبالصفح منه إلى رد الصاع. . أثبت من أن يخرجه من حلمه غضب على خصم جاحد، وأسمح بالتجاوز عن شنآن غريم حاقد. . يصفح وهو الموتور. ويعفو وهو القادر. ويغفر قربة إلى الله. .

وكان يقول:

«إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه، شكراً للقدرة عليه. .».

ويقول:

«العفو زكاة الظفر. .».

وكم أدى من أمثال هذه الزكاة. .

ملك عليه معاوية وعسكره، في صفين، شريعة الفرات، ومنعوه وجنده الماء. . فلما سألهم أن يشرب الجيشان على سواء، أبى طاغية الشام ورجاله ما أراد، وأجابوه عتواً وصلفاً، قائلين:

«لا والله. . ولا شربة ماء حتى تموت ظمأ كما مات عثمان. .».

فحمل عليهم، فأزالهم عنوة عن مراكزهم، وأجلاهم إلى الفلاة حيث الصدى والجفاف. .

عندئذ قال له أصحابه:

«. . . امنعهم الماء، يا أمير المؤمنين، كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة. . . واقتلهم بسيوف العطش. .».

لكن أريحيته أبت أن يصغي لغضبهم وغضبه على أولئك القوم المارقين من طاعته الغالين في عدواته.. وقال:

«لا أكافئهم بمثل فعلهم. أفسحوا لهم عن بعض الشريعة..».

وخلى بينهم وبين الماء..

وأسر، يوم الجمل، عبدالله بن الزبير، وكان الناهض ظلماً في حربه. الموغل غياً في بغضه.. المسرف إفكاً في سبه.. فلما جيء به إليه عفا عنه ورد عليه حريته.. وقال له:

«اذهب فلا أرينك..».

ولم يزد على ذلك..

وبمثل هذا عامل مروان بن الحكم، وطائفة غيره كثيرة من مناوئيه..

وبمثله عامل قبلهم الخارجين عليه من أهل البصرة، بعد أن أظفره الله بهم. فوهبهم الأمن والسلامة. لم يقتل منهم، ولم يغنم مالاً، ولا سبى ذرية..

وكان، إلى هذه الأريحية الكريمة، لا يقرن صفحه بمن، ولا يتطلع من ورائه لشكر.. وكيف لا وصفحه تقدمة إلى الله وحده ترفع عن مثوبة العبيد..

بل لم يكن ليغيب عن فطنته أن معظم من أظلهم حلمه ووهبهم الحياة والحرية لن يلبثوا أن ينكصوا على الأعقاب فيقابلوه بالكفران دون الشكران، وبالجحود دون العرفان ما إن تتاح لهم فرصة للتنكر وللتنمر.. ومع ذلك فقد كان دائماً يتوقى مدافعة الإساءة بالإساءة، ومغالبة العيب بالعيب، متنزهاً عن تناول سير شانئيه بالقدح والتجريح.. وتلك لا ريب مكرمة تعز في الخلائق وتستعصي على أنفس البشر إلا من طهر الله قلبه من الغل، وعصم لسانه وفمه عن نهش الجيف، ولعق الأوحال..

سمع أن اثنين من كبار أنصاره، هما حجر بن عدي وعمرو بن الحمق، يجهران بشتم معاوية وأهل الشام، فأرسل إليهما يكفهما عن ذلك. فقدما عليه، وسألاه:

«يا أمير المؤمنين.. ألسنا على الحق وهم على الباطل؟..».

أجابهم:

«بلى - ورب الكعبة..».

«فلمَ تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟..».

قال:

«إني أكره أن تكونوا شتامين لعانين... ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لج به..».

وروي[1] أنه كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم.. فقال:

«إن أبصار هذه الفحول طوامح... فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله فإنما هي امرأة كامرأة..».

فقال رجل من الخوارج:

«قاتله الله كافراً ما أفقهه!..».

فوثب القوم على الخارجي ليقتلوه، فنهاهم الإمام، وقال:

«رويداً.. إنما هو سب بسب، أو عفو عن ذنب..».

وما كان أكثر استمساكه بالصبر على ما يكره، واتقاء الرد على سفه سفيه تنزهاً وعفة..

وكان يقول:

إذا ما اجتررت سفاه السفيه علي فإني إذن أسفه

هذه اللمع من معالم أخلاقه حرية بأن تقدم أمام الأعين ظلاً لشخصيته، أقل القليل منها حقيق بأن يسمو بقدر المتخلق به إلى قمة الأقدار.. فما بالنا وقد توطد له من عمد الشرف النفسي ودعامات المروءات كل أشم ورفيع؟..

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة - شرح غريبه وموجز جمله».

وأنى لنا بمن على شاكلته وإنه للمتفرد بين شوامخ رجال الإسلام الذي إليه تعزى كل فضيلة، وبه تتصل كل مكرمة، وفيه تتالق وتتجلى كل محامد الخلال والخصال؟ . .

أما مواهبه وقدراته فأعسر على الإلمام والإحاطة. ألم تر كيف تدعيه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة، وتتمسح فيه كل مدرسة فكرية تريد أن تنضل غيرها في ميادين الحكمة والعلم، وتبز كل ما عداها من ذوات المذاهب والنظرات؟ . . وهل ثمة بين العلماء من قد أوتي من بسطة العلم ما يبلغه من العلوم الربانية والبشرية مثل مبلغ الإمام وإنه لهو الذي - بعصارة ذهنه الملهم الخصيب - روى جذورها، ونمى دوحها، وقوى فروعها، وخضر ورقها، ونضر زهرها، وأينع ثمرها، وأدنى قطوفها.

وكان ذا نظرة نفاذة، وروح نقية، وفكر عملاق. . يتعمق ما انتهى إليه من معارف الذين سبقوه، فلا يتقبلها على نفس وجهها، ولا يختزنها في واعيته كخزنة المال إلا أن يعاير وينقد، فيقر منها ما يقر، ويضيف إليها ما يضيف، أو يغير فيها ما يغير. . ويتأمل آيات الله في ملكوته، فينبهر ويعتبر ويفكر. . ويشهد ظواهر الخلائق وخصائصها شهود متدبر يسير ويخبر ويفسر. . ويغوص في أغوار الأنفس، مترحلاً في خفاياها وهو يحلل ويقدر ويبرر. . فكره المتوقد النقاد أداته، وروحه الشفيفة الصافية هاديه.

أحاط بمعارف الأولين. وارتاد للآخرين. . ممتثلاً في كل خطوة يخطوها على هذا النهج القومي أمر الله للإنسان أن ينهض العقل من سباته، ويدفعه إلى النظر والتفكير تلمساً للعلم حيثما يكون. .

فالله سبحانه يقول:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

ويقول تقدست ذاته:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[(١)]

وينزل تعالى من يعطل[(٢)] العقل عن وظيفته إلى ما دون مستوى الحيوان ويتوعده بسوء العقبى..

يقول جل شأنه:

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[(٣)]

والعلم، بنظرة علي، جنة للمرء تقيه، وحصن يحميه.. وهو خلود لصاحبه وضرورة حياة قبل المال، وفوق المال..

عن رأيه يفصح فيقول:

«هلك خزان الأموال وهم أحياء. والعلماء باقون ما بقي الدهر..».

ويقول:

«العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.. المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق..».

بل «العلم دين يدان[(٤)] به..» من ألحد فيه، أو تناءى عنه خس عند ربه منزلة، وبعد عن رحاب رضوانه.. ولعل خير ما يصور لنا خسة هذه المنزلة كلمة الإمام:

«إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم..».

ما سلف من عبارات، وغيرها الكثير من نوابغ الكلم ومأثوراته، يبين لنا

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٢) السيد سابق: «اسلامنا».

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) من مأثوراته.

كيف أعز على العلم كما لم يعزه أحد. وكيف رفعه مكانة علية لم يبلغ مثل شأوها الرفيع بين مقومات الحياة الإنسانية شيء سواه.. فإذا هو، هكذا، يكرم العقل - أداة التعلم - أجل تكريم ما نشط إلى تسقط المعرفة من أي سبيل.. وإذا كلامه ترجمان صدق أمين عما دعا الله إليه عباده وحثهم عليه من وجوب النظر في آياته، وتأمل مخلوقاته، انتجاعاً لفضله تعالى وخيره، وخلوصاً من تفهم مظاهر قدرته إلى استجلاء أسرار حكمته جلت ذاته وتقدست صفاته..

وكم عرف الإمام..

وكم تفرعت به المعرفة وانشعبت سبلاً، فمشى منها في كل سيل إلى مداه..

وكم ألمَّ منها بقديم، واهتدى إلى جديد..

والذي أحاط به خبراً عالم من العلم فسيح فسيح.. كشفه ورداه، ظاهراً وباطناً، جهد ذهني متقحم دؤوب. وعي جزئياته وكلياته وأشربها عقل ألمعي لماح.. فلقد كان على عبقرية ذهنية لا تتكرر.. وكان عقله لا يمل النظر فيما انتقل إليه من تراث البشرية الفكري عبر الأجيال في الروايات والأسفار، كما لا يكل من الطواف بمشاهد الكون ومرئياته. لا يكتفي منها بحصيلة البصر، وإنما يمضي إلى ما وراء المنظور كشفاً عن غوامض المبهم وأسرار المستور.. لم يتوان قط عن الترحل في البحث إلى أغواره. ولم يكف قط عن التعلم. ولم يضق قط عن معلوم ثقفه أو استخرجه من مجهول.. كل ما علمه وعاه. وكلما وعى استزاد. وكلما تقاطرت عليه المعارف وجد فيضها لديه سعة في عقله المنهوم الصديان الذي كان كأرض رمضاء لا يكاد يطفئ ظمأها وينقع غلتها كل ماء السماء..

وكيف يوصد العقل بابه في وجه العلم وإنه لآت يأتيه بزاد جديد؟..

في هذا يقول الإمام:

«كل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع..».

فما أحكم قولته، وأدق وصفه..

وإذا كان إيمانه بالفكر قد جعله يضع العقل على قمة الفضائل والنعم الإلهية التي خص بها الله أبناء البشرية كما يدلنا قول علي:

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها، والحلم رابعها والجود خامسها و..

إذا كان هذا هو رأيه، فأحر به إذن ألا يجد عذراً لإنسان يحرم نفسه نعمة العلم ما دام الخالق تعالى قد يسر له أسبابه، ومنحه المقومات التي تبلغه منه ما ينبغي بلوغه.. أم فيم سخر له الله سبحانه بدناً وعقلاً وقلباً تؤتيه القدرة على اقتحام سبل المعرفة، وتحمل مشقة التأمل والبحث والدراسة؟.. ولماذا عساه يعطل هذه الأجهزة عن أداء دورها الذي خلقت له، كأنما يغفل عنها وهي آلاء ربه الخليقة بالذكر. أو كأنما يكفر بها، فلا يفكر ليتعلم، ولا يتعلم ليهتدي، ولا يهتدي لينفع الناس؟.. والعلم لا ريب مبعدة للشر، ومجلبة للخير، ومكسبة لمكارم الأخلاق..

ألا تراه كيف يحث على ورود العلم إذ هو فرض يجب توفر أسبابه التي تتمثل في جسم يتحمل، وعقل يفكر، وقلب يفقه.. كما هو ضرورة يلزم اجتماعها في الإنسان السوي إلى خلقه القويم؟..

يقول حافزاً وآمراً:

تعلم فإن الله زادك بسطة وأخلاق خير كلها لك لازب

ثم يقول ناهياً، ومحذراً صحبة الجهول:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أودى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه

ولا حاجة للإطناب في بيان نظرته للعلم وتقديره وما أوجزناه فيه الغناء. إنما يكفي أن نطوف إطافة عجلى ببعض فنون المعارف التي حصلها

واستنبطها فكره فلا نجده إلا قد وعى وراد وأخذ من كل فن منها بأطرافه..

فالعلم الإلهي، وهو أشرف العلوم لاتصاله بأشرف معلوم، إنما «اقتبس من كلامه. عنه نقل، وإليه انتهى، وبه ابتدأ. فإن المعتزلة - الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن - تلامذته وأصحابه لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبدالله ابن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام.. وعن المعتزلة أخذت الأشعرية.. وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر»[1].

وليس أحد تحدث عن عقيدة التوحيد فأفاض فيها إفاضته، ولا تناول صفات الله فأحسن البيان عنها إحسانه، ولا عرض لقضائه وقدره فقربهما إلى العقول تقريبه.. «فالله تعالى[2] واحد أحد، ليس كمثله شيء. قديم لم يزل ولا يزل... لا يوصف بما توصف به المخلوقات... من قال في سبحانه بالتشبيه كان بمنزلة الكافر به، الجاهل لحقيقته...».

فتوحيداً لله، ينزه الإسلام الذات الإلهية عن مخالطة الأحياز: زمانية ومكانية.. وعن المشاركة في الملك بالإجتزاء أو المشورة، وفي القدرة بالقول أو الفعل.. وعن المقارنة بالنظائر أو الأشباه ولو مقارنة تمثيل. فتنزيهه الله خالص كامل، وقاطع مانع، يجل عن الوصف، ويعلو فوق تطاول العقول..

وقد صور على هذا التنزيه ببيان رأي، أمام كماله سبحانه، أن ينهى فيه عن وصف ذاته، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته، وعجز الكلام عن رسم صفاته.

يقول:

«... كمال توحيده الإخلاص له. وكمال الإخلاص له نفي

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة».
(٢) الشيخ محمد رضا المظفر: «عقائد الإمامية».

الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. . فمن وصف الله فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثناه. ومن ثناه فقد جزأه. ومن جزأه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار إليه فقد حده. ومن حده فقد عده. . ».

وقال مما جرى على نفس المثال:

«. . وحده لا شريك له. الأول لا شيء قبله. والآخر لا غاية له. . . . لا تقع الأوهام له على صفة. ولا تقعد القلوب منه على كيفية. ولا تناله التجزئة والتبعيض. . ».

وسأله صاحب له:

«هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟. . ».

قال:

«وهل أعبد ما لا أرى؟. . ».

فاستفسره:

«وكيف تراه؟. . ».

فكان رده عليه:

«لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين. . متكلم لا بروية، مريد لا بمهمة. صانع لا بجارحة. . . ».

ومن بدائع قوله في بعض صفاته سبحانه:

«هو الأول لم يزل، والباقي بلا أجل. . لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات. . لا يقال له متى. ولا يضرب له أمد بحتى. . الظاهر لا يقال مما. والباطن لا يقال فيما». .

وما أكثر ما تاهت الأفهام في ماهية القضاء والقدر وإن انتهى المطاف بالعقول المستضيئة بنور الحقيقة إلى المزاوجة فيهما بين العلم بما يقع وبين

توفر أسباب وقوعه. .»[1] فالقضاء علم الله السابق بحصول الأشياء على أحوالها في أوضاعها. والقدر إيجاده لها عند وجود أسبابها».

قيل مرة للإمام:

«أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره؟. .».

فقال لمن سأله:

«ويحك. . لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدراً حاتماً. فلو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. . إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً. وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً. . ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً. . ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً. . ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. .».

وما تكشف للإمام من كنوز «الإلهيات» لم ينبثق له عفواً. بل كان النتيجة اللازمة لتبصره في خلق الله، وتدارسه آيات كتابه، وتفهمه حكمه وأحكامه بروح شفيف ونفس وضاءة وذهن محيط. . فلا مشاحة في نقاء الجوهر، ورهافة الحس، وحدة الذكاء، ودقة النظر، وعمق الوعي لديه وكلها الأدوات القادرة على الدراسة والبحث والإستقصاء، والضامنة لاستقامة التفكير وسلامة الإستقراء. . ولا مشاحة أيضاً في أنه كان مهيأ لهذا الذي قدر له وأداه بحكم ملازمته - منذ طفولته - رسول الله، ومعايشته مقدمات الرسالة، قبل تنزل الوحي، والنبي عندئذ يخلو إلى نفسه، يتحنث ويتعبد بالغار وبداره، متأملاً ما يرى من جلائل الآيات الكونية، وحركة الزمن، وقوانين العدم والوجود، وما إليها من ظواهر وخوارق، تشهد بقدرة قاهرة أزلية ليست ككل القدرات. قدرة تحكم التقدير والتدبير، وتكون لمن يتفكر فيها ابتغاء الإهتداء أقرب إلى الاستجلاء. .

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة - شرح غريبه وموجز جمله».

عايش علي هذه الفترة من نشدان الحقيقة الواحدة، فإذا هو يعجب لمحمد، ثم يعجب به. ثم يتابعه على نفس نهجه متابعة تلميذ لأستاذه، ومستهد لهاديه، حتى ليدرك، في سنه الغضة، عن الموجد المدبر، ما لم يدرك غيره من الناس أجمعين.. وحتى لنسمعه يتحدث بما هداه إليه حسه المرهف، وروحه الشفيف فيقول:

«كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً...».

ويقول:

«لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة سبع سنين..».

وتلك هي المدة التي قضاها منذ كفله محمد حتى نزلت الرسالة، وأذن للنبي في الإنذار والتبليغ..

لهذا لا ندهش إذ يصفه أبو الحسن البصري، فيقول:

«كان رباني هذه الأمة..».

ولا ندهش حين نعلم أنه، على عهد رسول الله، كان وحده الحافظ للقرآن العارف به، المحيط بأسراره..

ثم لا ندهش ونحن نراه أول من اشتغل بجمعه..

يقال:

بعث أبو بكر إليه يعاتبه أن امتنع عن بيعته، ولزم داره.. فرد عليه بكلام فيه:

«والله ما كان قعودي في هذا البيت قصداً للخلافة.. بل لما وقذني به الرسول بفراقه، وأودعني من الحزن لفقده. وذلك لأنني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد لي حزناً، وذكرني شجواً.. وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره[١]..».

ويقال:

---

(١) د. فاروق أبو زيد مقال (كتاب إسلامي مجهول) مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد ٢١٥٢.

تأخر عن بيعة أبي بكر، لا مخالفة، بل تشاغل بجمع القرآن، وهذا يدل على أنه هو أول من جمعه[1].

ولا نسوق هذا إلا تدليلاً على الجمع لا على ما عداه مما أورده الخبر.. ثم لا نسوقه أيضاً إلا بياناً عن تفرده بحفظ كتاب الله، وجمع آياته، سابقاً سواه..

اشتغل علي بحفظ كتاب الله اشتغال من يحرص الحرص كله على هذا النور الذي أنزله ربه هدى ورحمة للعالمين أن تشرد منه عبارة، بل لفظة، بل اشارة.. وعنى بجمعه عناية من يخشى أن تتبعثر بعض آياته وسوره في الصدور على غير نسقها المقدور فتختلط وتتداخل، يتأخر منها ما هو أولى بالتقديم ويتقدم ما هو أولى بالتأخير.. وأكب على الترسل في قراءته ترسل ذي حس أدبي مرهف بلا نظير، تفتنه البلاغة، وتشغفه الفصاحة، ويولع ولوع متشه سحر بيانه يتطرق فيه من تذوق حلاوة المتعة العاطفية الشعورية من جمال عباراته إلى التنعم بكمال المتعة الروحية العقلية من جلال معانيه..

فماذا عسى يتهيأ اجتناؤه للناس من ثمار هذا الاستيعاب؟.

ما الذي يمكن أن يطالعهم به من له كالإمام وضاءة النفس، ودقة الحس، وشمول النظرة، وتفتح القريحة، وألمعية الفكر، ونقاوة الجنان؟..

إنه ليخلو إلى القرآن خلو خاشع متعبد، سجى الليل، أو هدأ السحر، أو أسفر الفجر، أو علت ضحوة النهار فلا يكاد يشغله في خلوته هذه، التي يرجو بها وجه ربه شيء من شواغل دنياه أن يرتل ويعيد، ويردد ويزيد، وجوارحه جميعها في ملاك بيانه العذب الآسر، وأسلوبه السماوي الساحر..

وإنه ليقبل عليه إقبال متأمل متدبر، يأخذ بمجامع المدلولات في سياق

---

(١) يقول ابن أبي الحديد في «شرح البلاغة»: نقلوا كلهم أنه تأخر عن بيعة أبي بكر فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة، بل يقولون: تشاغل بجمع القرآن، فهذا يدل على أنه أول من جمع القرآن، لأنه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله ﷺ لما احتاج أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته ﷺ.

العبارات وفي مباني الكلمات وفيهن الجلي والخفي، والصريح والغيبي، فلا يفوته أن يحيط بظاهرها وباطنها إحاطة شمول.. ويتبصر مختلف عظائم السور وجلائل الآيات ومنهن آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فلا يغيب عنه استجلاء ما بها من الحكم والأحكام..

وإنه ليجهر بتلاوته، تلاوة محب مشوق، فيتحرى صحة الضبط، وسلامة النطق، ودقة الأداء، مستمتعاً بعذوبة كلماته وفقراته مرنمة منغمة.. فإذا هو يجمع إلى إحكام الوصل والوقف، والمد والإمالة، والإظهار والإدغام، والتحريك والتسكين، والتخفيف والتنوين ألواناً من الصور الصوتية التي توافق كل حرف وكلمة وآية، وتطابق مغزاها، حتى لتوشك المعاني أن تتجسد أمام العيون والنواظر قبل أن تطرق الأسماع إلى القلوب..

بحسه الجمالي المتميز، وذهنه الألمعي الثاقب، وإدراكه الروحي المشرق قرأ القرآن فأحسن ترتيله. وجمعه فاستظهر ما فيه. وتدبره فبلغ أعماقه ووعى لباب معانيه..

أو ليس من الطبيعي إذن أن نراه - وهو أول من جوّد التلاوة، وأحسن الترتيل - رائداً في فنون القراءات، كل سابق فيها لاحق به، وكل فذ من أفذاذها ناقل عنه، ناهل من فيضه، وارد معينه؟.. فقراءة القرآن أئمتها يرجعون إليه: كأبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وغيرهما، قد أخذوا عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأبو عبد الرحمن كان تلميذه والناقل عنه[1].. وكتابة المصحف وضبطه كانت على ما يوافق رواية حفص عن أبي عبد الرحمن السلمي نفسه الذي نقل عنه.. والطريقة التي انتهجت في عد الآيات هي طريقة الكوفيين عن أبي عبد الرحمن السلمي أيضاً، اتباعاً لنهج علي بن أبي طالب كما ورد في كتاب: «ناظمة الزهر» للإمام الشاطبي[2]..

وهل ليس من الطبيعي أن نراه - وهو الذي تدبر معانيه، وغاص في

(١) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة».
(٢) التعريف بالمصحف الشريف: المصحف - طبعة القاهرة سنة ١٣٨١.

دلالاته مستجيشاً فطنته الخارقة، ومستهدياً مكنون علم رسول الله - إنما قد برع في تحليله وتفسيره والكشف عن خبايا أسراره حتى غدا علم التفسير غرس فكره، عنه انبثق ومنه فرع، وإليه يرد كل صاد لينهل من ينابيعه؟..

سئل عبدالله بن عباس، وإنه في هذا العلم لفارس ميدانه، وحجة زمانه:

«أين علمك من علم ابن عمك؟..».

فقال:

«كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط..».

ثم أولى به أن يكون أفقه الناس..

ولقد كان..

فقد أحاط علماً بالقرآن وهو دستور الإسلام، وأصل التشريع.. ووعى سنة رسول الله: فعلها وقولها، عن ملازمة له، ورؤية عين، وأخذاً من لسانه عليه صلوات الله.. ناهيك بما خصه به صاحب الدعوة في هذا المجال، فضلاً عما عداه من علوم لم يتح كشفها لسواه.

يقول:

«تا الله لقد علمت تبليغ الرسالات، وإتمام العدات، وتمام الكلمات».

وذاك علم فيه من الرؤى الغيبية والحكمة الخفية ما لا يؤتاه إلا من كان عند محمد حقيقاً بأن يطلع على بعض ما أودعه الله من أسرار.. فما بالك إذن بعلم الشريعة وهو العلم المباح لكل الناس؟..

عن النبي فقه علي في الدين وثقف ما نزل به الروح الأمين. وإذا كان بعض الصحابة قد برزوا في علوم الشريعة فليس مثل بروزه، إذ كان أفقههم، وأقضاهم، وأدقهم فتياً، والمرجع الأول الذي إليه يقصدون التماساً للرأي الأصوب حين يستعصي أمر فيغم عليهم أو تختبل فيه النظرات..

أثر عن عمر بن الخطاب، أنه قال:

«لا بقيت معضلة ليس لها أبو حسن..».

أثر أيضاً قوله:

«لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر..».

وكان عمر من المعدودين القلائل بين جهابذة الفقهاء..

جيء مرة بامرأة ولدت لستة أشهر، فقضى الخليفة[1] عليها بالحد.. وهم بتنفيذه لولا أن تداركه علي، وقال:

«ليس هذا لك..».

ثم أردف:

«قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾[2].. وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[3]..».

فإذا خرجت مدة الرضاع فستة أشهر للحمل لا تخالف ما نزل به كتاب الله..

ومثل هذا ما كان منه لما أمر عمر برجم امرأة حامل، فرده علي عن ذلك قائلاً له:

«إن كان لك عليها سبيل، فليس لك على ما في بطنها سبيل[4]..».

فارعوى عمر.. وقال كلمته المشهورة:

«لولا علي لهلك عمر..».

وروى أنه رفع إليه رجلان سرقا من بيت المال، أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عروض الناس..

(١) هو عمر بن الخطاب في قول، وعثمان بن عفان في آخر..

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٤) السيد أمير محمد الكاظمي القزويني: «نقض كتاب الصواعق المحرقة».

فقال في الأول:

«أما هذا فهو من مال الله، ولا حد عليه.. مال الله أكل بعضه بعضاً..».

وقال في الثاني:

«وأما الآخر فعليه الحد..»[١]

وهذه قضية مثيرة.. لأن أول السارقين جزء من المال المسروق، لا إرادة له ولا أهلية.. فهل من جناح على من لا أهلية له؟..

ومن أعاجيب أحكامه التي خالف بها نظرة الكثيرين، فتياه في حلى الكعبة وما زينت به من عروض ثمينة..

فلقد أشارت طائفة من ذوي الرأي على عمر بن الخطاب أن ينتفع بذلك الحلي في الإنفاق على شؤون الحرب والدفاع، وقالوا له:

«لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين، كان أعظم للأجر..».

وناقشوه في الأمر متسائلين:

«وما تصنع الكعبة بالحلى؟..».

وبدا قولهم لعمر صواباً من صواب فهم أن يطيعهم فيه، لولا أن آثر، توقباً واطمئناناً، أن يستشير الإمام..

قال علي:

«إن القرآن أنزل على النبي والأموال أربعة: أموال المسلمين، فقسمها بين الورثة في الفرائض.. والفيء، فقسمه على مستحقيه.. والخمس فوضعه الله حيث وضعه.. والصدقات فجعلها الله حيث جعلها.. وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً ولم يخف عليه مكاناً.. فأقره حيث أقره الله..».

---

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة - شرح غريبه وموجز جمله».

فقال عمر، وقوله تسليم وإقرار:

«لولاك لافتضحنا..».

وتركَ الحلي بحاله[١]

ومن علم علمه، ووعى وعيه، وأخذ عقله ووجدانه بالبحث والتأمل وتعمق الأمور واحتوائها، نافذاً إلى النتائج البعيدة من الأسباب القريبة، ومقيماً الكليات على الجزئيات ومستخلصاً المبادئ والقواعد من العموميات، والدقائق الخفية من الظواهر الخرساء الصماء استخلاص التبر والذهب من الصخر والتراب، خليق به أن يكون ذا قريحة مجلوة، وإدراك محيط، وخاطر لماح كأنما ذهنه يتحرك بإلهام.. ومن ثم فليس عجباً أن نجده، عليه رضوان الله، قد تفرد ببديهة حاضرة تتفتق في مثل طرفه الهدب، عن كل معجز يغم على الأفذاذ من أقرانه ومعاصريه بعد طول تفحص وإعمال فكر وجهد استقراء..

سئل يوماً عن المسافة بين المشرق والمغرب وهو سؤال أبعد من أن يخطر له ببال.. فكان رده الذي سبق إلى سائله ارتداد طرفه وهو حسير أو وهو قرير:

«مسيرة يوم للشمس..».

وقيل له مرة في مقام استفسار هو أدنى إلى مواقع الامتحان بل التعجيز:

«لو سد على رجل باب بيته وترك فيه، فمن أين يأتيه رزقه؟..».

فبادر يقول وكأن جوابه كان مربوطاً بذيل السؤال:

«من حيث يأتيه أجله..».

وهذا بلا ريب قول فطن ذكي، فيض الإلهام يكاد يسبق على شفتيه أحرف الكلام..

وكم أعسر له السؤال فيسر عليه الجواب. وكم أشار فأصاب.. وكم

---

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة - شرح غريبه وموجز جمله».

رأى فكان رأيه فصل الخطاب، وقضى فكان قضاؤه العدل، وأفتى فبلغ بفتياه قمة القمم التي لا يرقى إلى سمائها أعلام الفقهاء وشوامخ العلماء..

وعنت له اللغة العربية كما لم تعن لغيره.. لان صعبها، وذل غريبها، وتفتحت أبوابها، فإذا هو مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، به ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها[١]..

فالمعلوم الثابت أنه هو الذي استولدها قواعدها، واستنبطها أسسها، وحدد لها جوامع الأصول التي لا بد أن تنهض عليها لتظل، كحالها عند أهلها الأوائل، سليمة التركيب، مبرأة من عيوب اللحن والخطأ، ومناقص التحريف والإلتواء..

إنه صاحب «علم النحو» الذي حفظ بناء العربية قائماً، ولولاه لمال، ولشابها من لكنة الشعوب الغريبة التي دخلت الإسلام ما يغلب على نقاء جوهرها الأصيل.. ولتبدلت لغة أخرى غير لغة القرآن. ولاندثرت اندثار اللغات القديمة، وماتت كاللاتينية التي غدت طللاً دارساً بعد أن تبلبلت بها لهجات الأوروبيين..

ابتدع الإمام هذا العلم. وأملى على أبي الأسود الدؤلي أصوله الجامعة.. فقسم له الكلام كله إلى اسم وفعل وحرف. وقسم الكلمة إلى معرفة ونكرة. وقسم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم.. فكان هذا الذي ابتدعه أس السياج الواقي الذي درأ عن العربية عوادي العجمة واللحن، وأبقى لها اللب والسمت، وضمن صحة الضبط واستقامة اللسان..

ولم يكن بين أبنائها من هو مثله أدرى بها، وأعرف بأساليبها. فاق فيها كل ناطق وكاتب. فإذا هو أخطب من خطب الناس، وأكتب من خط في قرطاس.. منه تعلم خطباؤها الخطابة، وبه اقتدى أدباؤها في الكتابة، لا

---

(١) الشريف الرضي: «خطبته في تقديم النهج».

يباريه في فنونها التعبيرية مبار حاكى وقلد أو جدد وابتكر.. إذا خطب شدت الأسماع إلى طرف لسانه، وسكتت الأنفاس تصغي إليه. وإذا كتب فأقدر من بين أو أمر أو زجر.. وإذا جادل فأبرع من حاج وقارع ودلل.. وإذا حدث فخير من هدى ووعظ وذكر..

حتى الشعر لم يعصه، ولم تشرد منه قوافيه وإن هو آثر صياغته قصائد قصاراً وطوعه عفيفاً يجول في ميادين الدين والحكمة والزهد والجهاد ومكارم الأخلاق، مترفعاً به عن غيرها من أغراض المنظوم..

قيل له مرة:

«اهج القوم الذين يهجوننا..».

فتحرج أن يفعل، وأجاب:

«إن أذن رسول الله..».

وعلم الرسول، فقال:

«إن علياً ليس عنده ما يراد من ذلك..».

وترك الرد على هجو المشركين لحسان(١)..

وإذا كان ثمة من يقولون بأن شيئاً من شعره منسوب إليه، وليس من غرسه، فذلك لأنهم يرون بعضاً تحت مستوى أسلوبه الرفيع، وبعضاً يدعى لآخرين من فحول الشعراء ولا يبعد أن يكونوا أصحابه ثم تمثل هو به أو ألصقه به رواة يكادون لعلو قدره في كل مجال - يظنونه أخلق بألا ينسب لسواه..

والحق أن ما عرف من إحاطته الشاملة بخصائص اللغة، وثورته الإبداعية الطاغية في أساليبها هو بديهية البديهيات.. ويحسبنا - للتدليل على تفرده بالدقة في سبك العبارات وبالإحكام في رسم صورها الجمالية، وبالقدرة الفائقة على تضمينها نظراته المعجزات، وآرائه الخوارق في أعضل

(١) عبد العزيز سيد الأهل: «من الشعر المنسوب إلى الإمام الوصي علي بن أبي طالب».

المسائل وأعصاها - أن نشير إلى ما انتقل إلينا من آثاره الأدبية والفكرية فيما حفظه الناس، وتداولوه، وترنموا به، من خطب مئين كان يوردها ارتجالاً عفو الخاطر، دون إعداد. . وأن نومئ إلى ما حوته كتب الدارسين والعلماء والمؤرخين من رسائله ومأثوراته وحكمه ووصاياه. . وبعض هذه وتلك من كنوز، قد جمعه لنا الشريف الرضي في «نهج البلاغة»: معالم وآيات على حضور بديهة، وتوقد ذهن، ونفح إلهام. .

بحسبنا أيضاً، مثلاً لاقتداره الفذ على نصاعة البيان، وصدق التعبير، ونقل المعاني نابضة بالحياة وإشرابها القلوب والعقول، ما وقع لصاحبه همام، بعد خطبة سمعها منه، امتلأت بها نفسه، رهبة وروعة، وتاقت شوقاً إلى الله. .

جاءه همام، وكان رجلاً عابداً، وقال:

«يا أمير المؤمنين. . صف لي المتقين حتى كأني أراهم. .».

فتثاقل الإمام، لأمر ما، عن تلبية سؤله. .

لكن الرجل لم يزل يعزم عليه ويلح حتى استجاب له. . وخطبه والناس خطبة وصف بها أهل التقوى. . منها قوله:

«. . . لولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. .».

ومنها:

«. . . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها. وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا. يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دائهم. وأما النهار فحلماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح. . . .».

ومنها:

«. . . إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري. وربي أعلم بي من نفسي. اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يظنون. . إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب. قرة عينه فيما لا يزول. وزهادته فيما لا يبقى. نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه. .».

واسترسل في الوصف. فما أن بلغ منه ما شاء، حتى صعق همام صعقة كانت فيها نفسه. .

عندئذ قال الإمام:

«أما والله لقد كنت أخافها عليه. .».

أفمن كان كلامه هكذا قد خالطته نفحات من العلم الإلهي، وعبقات من البيان النبوي، يمكن أن يوصف إلا بما قيل فيه:

«كلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين؟ . .».

هذا كله لمحة من علمه كالومضة الخاطفة تعلن عن النور ولكنها لا تحيط خبراً بعظمة مصدره. . وكالقطرة تنبئ عن عذوبة الينبوع ولكنها لا تمثل غناه. .

وما علمه الإمام، ووفقه إليه ربه من أفانين المعرفة، جعله ملكاً مشاعاً لمن عاصروه ومن لحقوا به. . بثه فيهم، ونشره عليهم، وأهداه بعدهم للأجيال من خلال ما كان دائماً يذيعه في خطب وكتب ودروس ومواعظ ونصائح وأوامر وزواجر وحكم وأمثال تفجرت بها فطرة له بلاغية معدومة النظير، وتجسدت في أفعال تطابق الأقوال. .

ولا عجب أن يكون هذا بعض غرسه وجناه، بل العجب ألا يكون. . وكيف لا يبلغ علي ما بلغه وهو الذي تربى منذ صباه المبكر في حجر النبوة، وشهد انبثاق نور الإسلام، ومشى إلى نصرته ما بين قرني الشمس على العرق والرمضاء والدم والنار؟ . كيف لا وقد عايش الرسالة الهادية، وعرف من

أسرارها ما لم يحط به سواه، منذ تنزل بها جبريل في حراء حتى ارتفع عن الأرض وحي السماء؟.. كيف لا وقد تتلمذ على أزكى نفس، وأعظم عقل، وأطهر قلب، وأتقى روح، فكان الولد الربيب، والتلميذ النجيب والأخ الحبيب، والصديق اللصيق، والخليل الصفي، والولي الوفي من دون كل الأقرباء والأصفياء والأولياء؟..

وهو صاحب السيف الذي كان الظفر دائماً معلقاً بطرف ذؤابته أينما جال وصال..

شجاع كما لم تكن قط شجاعة الشجعان. فارس كما لم تكن قط فروسية الفرسان.. ما تحرف إلا لقتال. ولا فر في موطن نزال. ولا ارتاع من كتيبة فضلاً عن إنسان. ولا بارز إلا صرع وجندل. ولا هاجم إلا أصمى وقتل. كرته لا ترتد ولا ترد. وضربته لا تحتاج إلى ضربة ثانية.. ومن كتبت لهم النجاة من أعدائه ومناجزيه في معاركه، وامتد بهم الأجل ظلوا طوال عمرهم يفاخرون بشرف وقوفهم في الحرب في مقابلته.. روي أن معاوية انتبه يوماً من غفوة، فإذا عبدالله بن الزبير عند قدميه يبتسم، ويقول له:

«لو شئت أن أفتك بك، يا أمير المؤمنين، لفعلت..».

قال معاوية وهو لا يخفي تهكمه:

«لقد شجعت بعدنا..».

قال عبدالله يباهي ويفتخر:

«وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف إزاء علي ابن أبي طالب؟..».

فرد العاهل الأموي وكأنما أدلع لسان سخريته:

«لا جرم.. إنه قتلك وأباك بيسرى يديه، وبقيت اليمنى يطلب من يقتله بها!..».

بل كانت العرب - وإن أثخن فيها فأيتم منها من أيتم، وأيم منها من أيم تتباهى بسقوط صناديدها صرعى بحد سيفه..

قالت أخت عمرو بن عبد ود - فارس العرب الأول، وصريعه يوم الخندق - مباهية وهي ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دامت في الأبد
لكن قاتله من لا يعاب ... .

فأي فخر!..

وكان دائماً سباقاً إلى الجهاد في سبيل الله، مشغوفاً في ميادينه بلقاء الأعداء.. يقبل ويقتحم حين يؤثر غيره من الأبطال أن يتردد ويحجم، ويصبر على استعار القتال حيثما يستعصي الصبر على كل جلد صبور.. ويغالب الموت بالإرتماء بين أنيابه فيهرع الموت إلى الفرار.. سيفه من سرعة دورانه في المعامع يبدو كغابة من سلاح.. ويمينه تباري الكتائب في حش رقاب الأعداء حتى لكأنه جيش موفور العدد والعتاد.. سقط على أرض بدر الكبرى سبعون مشركاً صرعى، قتل وحده منهم النصف، وقتل جند الإسلام كلهم يومئذ النصف الآخر..

وطار ذكر بلائه في الحرب فملأ الآفاق قروناً عدة، حتى اتخذه الفرنج والروم رمزاً للتفوق الحربي الذي لا يضارع، فرسموا صوره في بيعهم ومعابدهم، حاملاً سيفه، مشمراً للقتال، مجسداً لبطولة الأبطال وفروسية الفرسان.. وصوره الترك والديلم على سيوفهم تفاؤلاً به، واستجلاباً للنصر الذي كان حليفه في كل ميدان..

واقترنت شجاعته بهيبة وثقت له في الظفر، كانت تتزلزل لها القلوب في الصدور، وتدور العيون في المحاجر، وتلتوي الأقدام:

سئل:

«بأي شيء غلبت الأقران؟..».

فأجاب:

«ما لقيت رجلاً إلا أعانني على نفسه[1]..».

(١) بارتهاب لقائه وخوفه مغبته.

ووصفه أحد أصحابه فقال:

«كنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه..».

وأراد معاوية أن يعيبه بما كان فيه من دعابة، فغضب لهذا قيس بن سعد بن عبادة أشد الغضب، ولم يبال سطوة العاهل، بل رد عليه رداً عنيفاً، قال فيه:

«... أما والله لقد كان أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابك طغام أهل الشام..».

وإذا كانت الشجاعة قد اقترنت فيه بالهيبة فقد اجتمعت له إليهما قوة بدنية «هرقلية» كما يقال في الأساطير.. فهو الذي خلع باب حصن ناعم وترس به وبثقله تنوء العصبة أولو الأيدي من الرجال.. وهو الذي اقتلع الصخرة التي آدت اقتلاعها العشرات وتفجر من تحتها الماء.. وهو الذي أسعفته يقظته كما أسعفته قوته فمد إحدى يديه إلى فارس هم أن يقتله، فخطفه بها من فوق جواده، وجلد به الأرض جلداً شديداً حتى حطمه، وأحاله كتلة هامدة من اللحم والدم وهشيم العظام..

ولا شك في أن شجاعته في حلبات الصراع الحربي وسيفه بيمينه إنما نبعت من جنان ثابت، لا يهتز أمام الخطوب والقوارع وإن تراءى له خطر الموت كاشراً عن أنيابه يطل عليه من وراء لقاء سافر أو تآمر متستر دارعاً كان في عدة الحرب أو صفر اليدين أعزل من السلاح.. وليس أبين على جسارته، وقوة قلبه وثبات جأشه من مبيته ليلة الهجرة في فراش محمد وإنه ليعلم تمام العلم أنه عندئذ أدنى إلى ألا يسلم من أسياف أولئك الفتية الأجلاد الألى أعدتهم قريش للانقضاض على الراقد وفي حسبانهم أنه الرسول..

وقلما اجتمعت براعة القتال إلى براعة السياسة في إنسان. ولكنه كان المحارب وكان السياسي في آن.. بل هو - بتعبيرنا المعاصر - «رجل الدولة» الذي يرسم خطة العمل في الداخل وفي الخارج على صعيد أوليائه وصعيد أعدائه، فيحذق سياسة الناس كما يحذق سياسة الأمور، ويطوع كليهما

لمقابلة كافة الاحتمالات في تطورات الأحداث وتغيرات الظروف بالحكمة وسعة التفكير وحسن التقدير، ومرونة المداولة بين مختلف أساليب المجابهة ليكبح شرة الأزمات ثم يلقاها بأنجع الحلول..

والذين يزعمون أنه لم يكن صاحب سياسة ولا دهاء، إنما يرون السياسة على غير وجهها الحقيقي، ويجردونها من مضمونها الأصيل.. فليست أخذاً بالغدر، ومقارفة للفجر أو تكون إذن نوعاً من الخسة النفسية والخبث الرخيص الذي يتردى بإنسانية الإنسان وكرامته إلى الحضيض، ولا يستعصي انتهاجها على أي وغد خسيس.. قيل في دهاء معاوية ما قيل، فكان رد علي على هذا الزعم المأفوك:

«والله ما معاوية بأدهى مني. ولكنه يغدر ويفجر، وأنا امرؤ لا أحب الغدر..».

لا يفوت المرء - حين يستبطن الحوادث، ويتعمق الشواهد التاريخية - أن يرى للإمام من «بعد النظر» ما يجعله يعنى أعظم عناية بالبحث عن مكامن الخطر في التطورات والتغيرات المحتملة الخليقة - في تصوره - بأن تتسلل إلى دنيا الواقع فيكشف عن ذلك الخطر، وينبه له، وينهض لدرئه.. تماماً كمن ينبش عن جمرة دفينة في الرماد فيسحقها قبل أن يتطاير منها الشرر، وتندلع النار..

بعث مرة إلى قثم بن عباس، عامله على مكة، رسالة يقول فيها:

«... إن عيني بالمغرب كتب إلي يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتمسون الحق بالباطل، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق، ويحتلبون الدنيا درهاً بالدين... فأقم على ما في يديك قيام الحازم الصليب... ولا تكن عند النعماء بطراً، ولا عند البأساء فشلاً[1]..».

فهو هكذا لا يغفل عن حركات عدوه، ولا يترك له في يديه المبادأة..

---

(١) الإمام محمد عبده: «نهج البلاغة - شرح غريبه وموجز جمله».

بل يسبقه إليها، ويعد لمدافعة تصرفه بما يفسده عليه. .

ومن دلائل يقظته السياسية أن بثه الأرصاد في أرض العدو، كان يقترن أيضاً بما يعرف اليوم باسم: «الحرب النفسية» التي قد يظن الكثيرون أنها بدعة جديدة في السياسة، من ابتكار قادة الدول والشعوب في عصرنا الحديث. . وصحائف التاريخ تفيض بأنباء كتبه ورسله إلى مختلف البلاد لتهيئة أذهان «الرأي العام» فيها لتقبل نظرته إلى وضع من الأوضاع، أو تصرفه في أمر من الأمور يرى إقراره وتثبيته أو تناوله بالمراجعة والتغيير. . وهي تفيض أيضاً بأشعار شعرائه الذين طالما كانوا يسوقون القصيد، أثناء دوران رحى الحرب وفي وقت السلام، لشرح قضيته، وتفنيد دعاوى خصومه، تبصيراً بالحقيقة التي خدع عنها مخالفون، أو نيلاً من «الروح المعنوية» لديهم لتثبيطهم عما نهضوا فيه من الافتئات على حقه والعدوان عليه. .

وكما لم يغفل عن تسقط أخبار عدوه، وتعرف أفكاره استشفافاً للمتوقع من سلوكه وتحركاته فهو لم يغفل قط عن تعقب تصرفات ولاته وعماله في مختلف الولايات والأمصار، ليستيقن حسن سيرتهم في الناس، والتزامهم حدود وظائفهم دون الخروج من إطار السياسة العامة المرسوم. .

كتب إلى مصقلة بن هبيرة، عامله على أرد شير خرة:

«بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك أنك تقسم فيء المسلمين، الذي حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك. . فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك. . ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفئ سواء، يردون عندي عليه، ويصدرون عنه. . ».

ولم يكن السلوك «العام» الذي يتصل بوظيفة العامل هو وحده ما يتعقبه علي في أعماله بل كان يتعقب، إلى جواره، سلوكهم «الشخصي» ويعايره بمعيار دقيق إذ هم القدوة الذين ينبغي أن تكون سيرهم مثلاً يحتذيه المحكومون. . علم أن عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة، دعى

إلى وليمة ثرى، حضرها معه، فيما يبدو، فريق من السراة.. فكتب إليه:

«... يا ابن حنيف.. إن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو..

«ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه..

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[1] ومن طعمه بقرصيه..

«ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد.. لكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة.. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع.. أأبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى؟..[2]

«أأقنع أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟..

«... فاتق الله، يا ابن حنيف. ولتكفك أقراصك ليكون من النار خلاصك»..

فكان كتابه درساً في التربية الخلقية، وكيف ينبغي أن يكون الحاكم لشعبه مثلاً للاقتداء والائتساء..

والواقع أن الإمام لم يدع سيرة عماله في الناس تمضي عفواً بغير معالم واضحة على الطريق، أو حدود مرسومة تبين الجادة السواء للسلوك في كلا أمور الدنيا والدين. وبحسب من شاء الرجوع إلى دلالة أن يستعيد عهده للأشتر النخعي حين ولاه مصر، ليعرف أي دستور وضع لسياسة الأمور والناس، يدرك كل من يدرسه أنه وليد فكر سياسي عملاق عرف كيف يضع خطة متكاملة، تتناول كل أوجه النشاط الإنساني، في مختلف الجوانب الإجتماعية والإقتصادية، عمادها المواطن الكريم الحر الذي لا يفضله غيره

---

(١) الطمر: «الثوب الخلق».

(٢) غرثى: جائعة.

إلا بالعمل الجاد المثمر الذي يتناسق الأفراد في أدائه يداً واحدة، وفكراً واحداً، على طريق واحد، في هداية الدين..

ولقد نعجب حين نرى الإمام، في عهده هذا، قد حدد المبادئ العامة للحكم التحديد الواضح الذي ظلت المذاهب السياسية تصطرع وتتبارى للاهتداء إليها على مدى قرون طويلة، وأخذ كل مذهب يدعي لنفسه بلوغه منها ما لم يبلغه سواه.. وكفى أن أكد ضرورة التئام أبناء الأمة وحدة اجتماعية وسياسية، وثيقة العرى بغير تفرقة، وإنما في مساواة كاملة بين كافة المواطنين وإن تباينت أوضاعهم الإجتماعية، واختلفوا رأياً وعقيدة. فالناس كما يسجل العهد «إما أخ في الدين أو نظير في الخلق».. والرعية: «طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض..».

ومع ذلك فإن «العهد» يقرر أن القاعدة «الجماهيرية» العريضة التي تؤلف غالبية الشعب، أحق بالرعاية، لأن العامة من الأمة «هم عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء».. ومن ثم فإنه يرتب لهم على الدولة واجباً قبلهم: أن تكفل لهم مستوى كريماً من المعيشة يحفظ عليهم شرف آدميتهم.. «فلكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه».. ويوجب عليها أيضاً رعاية «من لا حيلة لهم» من المساكين والمحتاجين والمتعطلين وذوي العاهات والمرضى وأمثالهم، ففرض لهم قسماً من بيت المال، وقسماً من غلات صوافي الإسلام..

ويطول المدى بمن يحاول تعقب ما حواه عهد علي للأشتر.. فكفى أنه دستور لسياسة الحكم جاء من المبادئ بكل ما يناسب مجتمع عصره، وبكل ما يبدو وكأنه وضع ليوافق مجتمعنا الحديث. وكفى أنه يعرض لكافة المشكلات ويصف لها الحلول.. وكفى أنه يطوف بكل ما يشغل الناس في رحلات حياتهم اليومية ويتصل بجوانبها الروحية والعقلية من عقيدة وعلم وتربية نفسية وسلوك اجتماعي ونظرات.. ويتصل بجوانبها المادية والإقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة وإدارة وجهاد وتنمية مالية في مختلف مجالات الاستثمار..

ولا غرو وللإمام هذه المقدرة - بل الحاسة السياسية المرهفة التي تستنطن أدواء المشكلات، وتجهز دواء لكل داء - أن نجده ملاذاً للألى عرفوه، يستهلمونه الرشاد. لا فرق فيهم بين كبير وصغير، ولا بين حاكم ومحكوم.. وكم استلهمه الخلفاء فألهم، وكم استشاره فأشار..

عزم عمر بن الخطاب على الشخوص بنفسه لقتال الفرس.. ثم رأى أن يسأله رأيه في هذا العزم، فقال له الإمام:

«... كن قطباً، واستدر الرحى بالعرب.. فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك.. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، وطمعهم فيك..».

وقال له مرة أخرى في مقام كهذا المقام:

«إنك متى تسر إلى هذا العدو بشخصك فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة فإن أظهر الله فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت ردء الناس...».

حاسة سياسية فوق القدرة، ترفعه من الساسة إلى مكان الصدارة، وتشرف به السياسة، لأنه ينزهها عن الغدر والفجر، ويطوع أساليبها لتوافق نهج الدين وتطابق مكارم الأخلاق..

فهل مثله في الفضائل والقدرات امرؤ من الناس؟..

أن يكون ثمة طائفة يرون أن يفضلوا عليه هذا الصاحب من أصحاب رسول الله أو ذاك، فرأيهم جدير بالمراجعة والتعديل.. ذلك لأننا نجد من وراء هؤلاء المتشيعين لأبي بكر متشيعين يقرون بأفضلية علي، ويظاهرهم على هذه الأفضلية الكثرة الغالبة من العلماء وإن تفرقت بهم المذاهب، وتباينت الآراء..

الفهرس